

مجلة جامعة حمص

سلسلة العلوم التاريخية والاجتماعية
والجغرافية



مجلة علمية محكمة دورية

المجلد 48 . العدد 6

1448 هـ - 2026 م

الأستاذ الدكتور طارق حسام الدين رئيس جامعة حمص

المدير المسؤول عن المجلة

أ. د. وليد حمادة	رئيس تحرير مجلة جامعة حمص للعلوم الإنسانية
د. نعيمة عجيب	رئيس تحرير مجلة جامعة حمص للعلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية

عضو هيئة التحرير	د. محمد فراس رمضان
عضو هيئة التحرير	د. مضر سعود
عضو هيئة التحرير	د. ممدوح عبارة
عضو هيئة التحرير	د. موفق تلاوي
عضو هيئة التحرير	د. طلال رزوق
عضو هيئة التحرير	د. أحمد الجاعور
عضو هيئة التحرير	د. الياس خلف
عضو هيئة التحرير	د. روعة الفقس
عضو هيئة التحرير	د. محمد الجاسم
عضو هيئة التحرير	د. خليل الحسن
عضو هيئة التحرير	د. هيثم حسن
عضو هيئة التحرير	د. أحمد حاج موسى

تهدف المجلة إلى نشر البحوث العلمية الأصيلة، ويمكن للراغبين في طلبها
الاتصال بالعنوان التالي:

رئيس تحرير مجلة جامعة حمص

سورية . حمص . جامعة حمص . الإدارة المركزية . ص . ب (77)

. هاتف / فاكس : 2138071 31 963 ++

. موقع الإنترنت : www.homs-univ.edu.sy

. البريد الإلكتروني : journal.homs-univ.edu.sy

ISSN: 1022-467X

شروط النشر في مجلة جامعة حمص

الأوراق المطلوبة:

- 2 نسخة ورقية من البحث بدون اسم الباحث / الكلية / الجامعة) + CD / word من البحث منسق حسب شروط المجلة.
- طابع بحث علمي + طابع نقابة معلمين.
- إذا كان الباحث طالب دراسات عليا:
يجب إرفاق قرار تسجيل الدكتوراه / ماجستير + كتاب من الدكتور المشرف بموافقة على النشر في المجلة.
- إذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية:
يجب إرفاق قرار المجلس المختص بإنجاز البحث أو قرار قسم بالموافقة على اعتماده حسب الحال.
- إذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية من خارج جامعة البعث :
يجب إحضار كتاب من عمادة كليته تثبت أنه عضو بالهيئة التدريسية و على رأس عمله حتى تاريخه.
- إذا كان الباحث عضواً في الهيئة الفنية :
يجب إرفاق كتاب يحدد فيه مكان و زمان إجراء البحث ، وما يثبت صفته وأنه على رأس عمله.
- يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (العلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية):
عنوان البحث .. ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).
- 1- مقدمة
- 2- هدف البحث
- 3- مواد وطرق البحث
- 4- النتائج ومناقشتها .
- 5- الاستنتاجات والتوصيات .
- 6- المراجع.

- يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (الآداب - الاقتصاد - التربية - الحقوق - السياحة - التربية الموسيقية وجميع العلوم الإنسانية):
- عنوان البحث .. ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).
- 1. مقدمة.
- 2. مشكلة البحث وأهميته والجديد فيه.
- 3. أهداف البحث و أسئلته.
- 4. فرضيات البحث و حدوده.
- 5. مصطلحات البحث و تعريفاته الإجرائية.
- 6. الإطار النظري و الدراسات السابقة.
- 7. منهج البحث و إجراءاته.
- 8. عرض البحث و المناقشة والتحليل
- 9. نتائج البحث.
- 10. مقترحات البحث إن وجدت.
- 11. قائمة المصادر والمراجع.
- 7- يجب اعتماد الإعدادات الآتية أثناء طباعة البحث على الكمبيوتر:
 - أ- قياس الورق 25×17.5 B5.
 - ب- هوامش الصفحة: أعلى 2.54- أسفل 2.54 - يمين 2.5- يسار 2.5 سم
 - ت- رأس الصفحة 1.6 / تذييل الصفحة 1.8
 - ث- نوع الخط وقياسه: العنوان . Monotype Koufi قياس 20
 - كتابة النص Simplified Arabic قياس 13 عادي - العناوين الفرعية Simplified Arabic قياس 13 عريض.
 - ج. يجب مراعاة أن يكون قياس الصور والجداول المدرجة في البحث لا يتعدى 12سم.
- 8- في حال عدم إجراء البحث وفقاً لما ورد أعلاه من إشارات فإن البحث سيهمل ولا يرد البحث إلى صاحبه.
- 9- تقديم أي بحث للنشر في المجلة يدل ضمناً على عدم نشره في أي مكان آخر، وفي حال قبول البحث للنشر في مجلة جامعة البعث يجب عدم نشره في أي مجلة أخرى.

10- الناشر غير مسؤول عن محتوى ما ينشر من مادة الموضوعات التي تنشر في المجلة
11- تكتب المراجع ضمن النص على الشكل التالي: [1] ثم رقم الصفحة ويفضل استخدام التهميش الإلكتروني المعمول به في نظام ورد WORD حيث يشير الرقم إلى رقم المرجع الوارد في قائمة المراجع.

تكتب جميع المراجع باللغة الانكليزية (الأحرف الرومانية) وفق التالي:

آ . إذا كان المرجع أجنبياً:

الكنية بالأحرف الكبيرة - الحرف الأول من الاسم تتبعه فاصلة - سنة النشر - وتتبعها معترضة (-) عنوان الكتاب ويوضع تحته خط وتتبعه نقطة - دار النشر وتتبعها فاصلة - الطبعة (ثانية . ثالثة) . بلد النشر وتتبعها فاصلة . عدد صفحات الكتاب وتتبعها نقطة . وفيما يلي مثال على ذلك:

MAVRODEANUS, R1986- Flame Spectroscopy. Willy, New York, 373p.

ب . إذا كان المرجع بحثاً منشوراً في مجلة باللغة الأجنبية:

— بعد الكنية والاسم وسنة النشر يضاف عنوان البحث وتتبعه فاصلة، اسم المجلد ويوضع تحته خط وتتبعه فاصلة — المجلد والعدد (كتابة مختزلة) وبعدها فاصلة — أرقام الصفحات الخاصة بالبحث ضمن المجلة . مثال على ذلك:

BUSSE,E 1980 Organic Brain Diseases Clinical Psychiatry News , Vol. 4. 20 – 60

ج . إذا كان المرجع أو البحث منشوراً باللغة العربية فيجب تحويله إلى اللغة الإنكليزية و التقيد بالبنود (أ و ب) ويكتب في نهاية المراجع العربية: (المراجع In Arabic)

رسوم النشر في مجلة جامعة حمص

1. دفع رسم نشر (600) ل.س ستمئة ليرة سورية عن كل بحث لكل باحث يريد نشره في مجلة جامعة البعث.
2. دفع رسم نشر (2000) ل.س الفا ليرة سورية عن كل بحث للباحثين من الجامعة الخاصة والافتراضية .
3. دفع رسم نشر (200) مئتا دولار أمريكي فقط للباحثين من خارج القطر العربي السوري .
4. دفع مبلغ (150) ل.س مئة وخمسون ليرة سورية رسم موافقة على النشر من كافة الباحثين.

المحتوى

الصفحة	اسم الباحث	اسم البحث
42-11	أشرف أسعد طه أ.د. حسام جميل الناييف	الأهمية السياسية التاريخية لبلاد الشام (سوريا الطبيعية) في ظل المسألة الشرقية
66-43	د. رجاء علي انجام	غزوة في عصر الفتنة: سياسة السلطان مودود بن مسعود بين إرث الأب وتحديات البقاء (432-440هـ/1041-1048م)
100-67	سناء محمود فياض بلال أ.د. خليل الحسين	أثر الحروب الداخلية والخارجية على حركة التجارة الداخلية في مصر والشام خلال العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)
136-101	د. علي ابراهيم	الأسرى في العهد العثماني بين (1519-1830م) (دراسة مقارنة بين الجزائر وإيطاليا)
218-137	مرح عبد الرحمن السعيد د. خليل الحسين	علي بن عدلان (٥٨٣-١١٨٧هـ/١٢٦٨-١٢٦٨م) وإسهاماته في مجال علم التعمية

الأهمية السياسية التاريخية لبلاد الشام (سوريا الطبيعية) في ظل المسألة الشرقية

طالب الدراسات العليا: أشرف أسعد طه إشراف أ. د: حسام جميل الناييف

ملخص:

شكلت بلاد الشام (سوريا الطبيعية) عبر القرون نقطة التقاء حضاري وسياسي جعلها في قلب التحولات الكبرى التي شهدتها بلاد الشام قبل خضوعها للانتداب الفرنسي، فقد كانت مسرحاً للصراع بين الدول الاستعمارية بسبب موقعها الاستراتيجي بين القارات الثلاث آسيا، وإفريقيا، وأوروبا.

تضمن البحث المسألة الشرقية (1822-1920م)، وبالتحديد مصير الدول العربية الواقعة تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية في ظل المسألة الشرقية.

سياسة محمد علي باشا التوسعية بغية السيطرة على بلاد الشام (1832 - 1840م) من أجل تأسيس دولة إسلامية قوية مترامية الأطراف.

إظهار موقف الدول الاستعمارية الكبرى وبالتحديد فرنسا، وإنكلترا، وروسيا الراضين لوجود دولة قوية اقتصادياً وعسكرياً يحكمها محمد علي على طريق التجارة الى جانب المكنة الدينية التي كانت مهد الديانات السماوية ودورها كمركز مؤثر في تاريخ العالم والمنطقة.

الكلمات المفتاحية: بلاد الشام، المسألة الشرقية، محمد علي، الإمبراطورية العثمانية.

The Political and Historical Significance of the Levant (Natural Syria)

in light of the Eastern Question

Graduate Student: Achraf Assad Taha

Supervised: Prof. Dr. Hossam Jameel Al-Nayef

Abstract:

Throughout the centuries, the Levant (Natural Syria) has served as a crossroads of cultural and political interaction, placing it at the center of major transformations prior to its subjection to the French Mandate. Its strategic position — linking the continents of Asia, Africa, and Europe—made it a principal arena for rivalry among the colonial powers.

The Eastern Question (1832–1920) fundamentally addressed the future of the Arab lands under Ottoman rule within this broader geopolitical context.

In pursuit of establishing a powerful Islamic state capable of counterbalancing competing powers, Muhammad Ali Pasha adopted expansionist policies to assert control over the Levant.(1840–1832)

These developments brought to light the stances of the major colonial powers—particularly Britain, Austria, and Russia—all of which opposed the emergence of a strong economic and military state ruled by Muhammad Ali along vital trade routes. Additionally, the profound religious significance of the region, as the cradle of monotheistic faiths, further reinforced its influence on the history of the region and the world.

Keywords: Levant, Eastern Question, Muhammad Ali, Ottoman Empire

مقدمة:

تعد بلاد الشام (سوريا الطبيعية) مركز الثقل الجيوسياسي في الشرق العربي خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إذ شكلت بموقعها الاستراتيجي حلقة الوصل بين المصالح الدولية المتضاربة، وقد تزامن هذا الدور مع بروز المسألة الشرقية التي عكست حالة التراجع في قوة الإمبراطورية العثمانية أمام المطامع الأوروبية المتزايدة للسيطرة على طرق التجارة والمنافذ البحرية الحيوية.

لم تكن بلاد الشام مجرد ساحة للتنافس الدولي فحسب بل كانت هدفاً لمشاريع إقليمية طموحة، أبرزها سياسة محمد علي باشا التوسعية (1832-1840م) التي سعت إلى إعادة صياغة خارطة النفوذ في المنطقة مما دفع القوى الكبرى إنكلترا، روسيا، والنمسا للتدخل المباشر لفرض توازنات سياسية جديدة تخدم مصالحها. يسعى هذا البحث إلى تحليل التحولات السياسية والعسكرية التي شهدتها بلاد الشام في تلك المرحلة، ويهدف البحث إلى فهم الجذور السياسية للأزمات التي مرت بها المنطقة قبل خضوعها للانتداب الفرنسي عام 1920م.

لذلك من الأهمية دراسة الأهمية السياسية التاريخية لبلاد الشام (سوريا الطبيعية) في ظل المسألة الشرقية.

• مشكلة البحث:

تتمثل إشكالية البحث في تفكيك وتحليل الأهمية الجيوسياسية لبلاد الشام (سوريا الطبيعية) باعتبارها المتغير الحاسم لأخطر أزمات "المسألة الشرقية" خلال العقد الممتد بين (1831م - 1841م). وتكمن المشكلة الدراسية في تجاوز التفسيرات التاريخية التقليدية السطحية التي تعاملت مع المنطقة كـ "ساحة صراع ساكنة"، والانتقال نحو دراسة تحليلية مقارنة تفسر كيف تحولت "المسألة الشامية" الناجمة عن الطموح التوسعي لمحمد علي باشا إلى إعادة هندسة شاملة لـ "المعادلات والترتيبات

السياسية الدولية، مبرزةً التناقض البنيوي بين استراتيجيات القوى الأوروبية (بريطانيا، فرنسا، روسيا، النمسا، بروسيا)، والتي لم تكن تسير وفق سياسة موحدة، بل تحكمت فيها المصالح الجيوسياسية المتعارضة لاقتسام النفوذ على خطوط التجارة والمنافذ البحرية الحيوية للشام.

• أهمية البحث:

تكمن الأهمية العلمية والمنهجية لهذا البحث في النقاط الآتية:

- التميز الفكري والإضافة العلمية: يبتعد البحث عن الصياغات العامة والسرود الروائية السطحية للأحداث التاريخية، ليقدم قراءة موضوعية تركز على نقد "المعادلات والترتيبات السياسية" الدبلوماسية والعسكرية التي شكلت منطلقات التدويل لبلاد الشام.
- تطبيق المنهج التاريخي المقارن: تبرز أهمية الدراسة في موازنة ونقد الروايات التاريخية المختلفة (الوثائق الرسمية المصرية، والمراسلات الدبلوماسية الأوروبية، والسجلات العثمانية)، لإظهار التباين الحقيقي في مواقف القوى الدولية (بريطانيا وفرنسا وروسيا) بدلاً من تبني النظرة الأحادية.
- الموضوعية والابتعاد عن التعميم: يتجنب البحث اختزال تراجع النفوذ العثماني في قوالب جاهزة (كالتخلف المطلق)، بل يحلل الأزمة من منظور بنيوي يراعي التحديات الداخلية (العسكرية والمالية) والضغوط الاستعمارية الخارجية المترامنة.

- الضبط المفاهيمي والتسلسل الزمني: يساهم البحث في معالجة الاضطرابات الشائعة في

التواريخ وبنود الاتفاقيات الدولية الحاكمة للمسألة الشرقية في تلك الفترة الممتدة من التدخل

العسكري المصري 1831م وحتى تسوية معاهدة لندن 1840م وفرمانات 1841م.

- أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق حزمة من الأهداف الأكاديمية المحددة:

تأصيل مفاهيمي دقيق للمسألة الشرقية:

- رصد أطوار ومراحل تطور "المسألة الشرقية" تاريخياً.

- إبراز دور بلاد الشام كحجر زاوية في هذه الظاهرة.

تقييم استراتيجية الحملة المصرية بالشام:

- تحليل الدوافع الحقيقية وراء مشروع محمد علي التوسعي.

- تبيان الأثر الإداري والسياسي لإبراهيم باشا في المنطقة.

تفكيك المواقف الدولية المتنافسة:

- كشف أبعاد الصراع البريطاني الفرنسي الروسي حول الشام.

- استقراء السياسات البراغماتية لكل دولة تجاه الأزمة الشامية.

- منهجية البحث:

يستند هذا البحث بصورة أساسية إلى المنهج التاريخي المقارن والمنهج التحليلي النقدي، متجاوزاً

أسلوب السرد الوصفي البسيط. وتتضح معالم هذه المنهجية التطبيقية في النقاط الآتية:

- تفكيك بنود الاتفاقيات الدولية (كوتاهية، هونكيار إسكله سي، لندن 1840).
- تتبع التغيرات الجيوسياسية بموجب كل اتفاقية بشكل دقيق.
- تجنب النقل السردى الأعمى للأحداث والوقائع دون تمحيص.

• عرض البحث:

احتلت سوريا الطبيعية بلاد الشام موقعاً ذو أهمية استراتيجية في خريطة التاريخ الإنساني لما تمتاز به من ثقل سياسي وحضاري في مرحلة ما قبل الانتداب الفرنسي بسنين طويلة لقد كانت تلك المنطقة صلة وصل بين الدول التي شكلت جزء مهما من ملامح العالم القديم والحديث وأسباب اهتمام القوى الدولية بها.

(1) المسألة الشرقية 1822-1920م:⁽¹⁾

اعتباراً من القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر الميلادي، بدأت ملامح الضعف البنيوي في جسد الدولة العثمانية بالظهور الجلي، حيث غدت عاجزة عن حماية حدودها الإقليمية الواسعة وصون سيادتها. وأدى هذا التراجع الهيكلي إلى إثارة مطامع الإمبراطوريتين الروسية والنمساوية في منطقة البلقان والمضائق البحرية الحيوية، بينما وقفت كل من فرنسا وبريطانيا في مواجهة تلك التطلعات؛

⁽¹⁾ تم تحديد الفترة الزمنية للمسألة الشرقية على اعتبار ان هذا المصطلح قد ظهر أثناء انعقاد مؤتمر فيرونا عام 1822م ليشمل المشكلات الدولية التي كان ينطوي عليها انحلال الامبراطورية التركية الوشيك وانتهى بمؤتمر سيفر في 10 آب عام 1920م.

انظر: نور الدين، زين. (1976م). الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة سورية ولبنان، لبنان: بيروت. دار النهار. ص:22.

بغية حرمان روسيا والنمسا من فرض سيادتهما على الممرات المائية ومنعهما من النفاذ المباشر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط. وبذلك، تبلورت "المسألة الشرقية" كوحدة مفاهيمية تعبر عن مجمل المشاكل والأزمات الدولية الناجمة عن الانحدار العثماني والمنافسة الاستعمارية الحادة بين الدول الأوروبية لاقتسام أملاكها. وقد قادت هذه المعطيات لاحقاً إلى النفاذ الغربي للبلاد العربية وتوليد أزمات جيوسياسية متلاحقة تعاقبت فصولها في مطلع القرن التاسع عشر، ومنتصفه، والربع الأخير منه.²

وكان حكام أوروبا وعزّابو دبلوماسيتها إذا تدارسوا "المسألة الشرقية" أرادوا بها تشخيص واقع الدولة العثمانية بالنظر إلى مصالحهم الاستراتيجية أو مطامعهم النفعية الخاصة. وكان التركيز ينصب على مضيق الدردنيل الذي يُمثل قلب الدولة العثمانية الحصين؛ إذ سادت القناعة في العواصم الغربية بأن تلك الدولة قد تجاوزت مرحلة الشيخوخة ودخلت طور الانحلال الفعلي. وبناءً على ذلك، بدأت كل دولة تطالب بنصيبها الجغرافي من تلك الغنيمة المتداعية، متذعرةً في الغالب بدوافع دينية؛ وزعموا أن تحركاتهم تأتي لحماية الأقليات المسيحية في الشرق، أو للرد على تجاوزات الحكام العثمانيين ضد مصالحهم التجارية ورعاياهم الأجانب. وعمدت النمسا في هذا السياق على إثارة نزعات سكان البلقان الانفصالية ضد العثمانيين باسم "مبدأ القوميات والجنسيات"، بينما قادت روسيا القيصرية تحركاتها الدبلوماسية والعسكرية باسم المذهب الأرثوذكسي، وتدخلت بروسيا (ألمانيا لاحقاً) مدفوعةً بتحالفاتها التاريخية مع روسيا. وفي المقابل، برزت بريطانيا في مظهر الصديق والحليف للباب العالي، وهي

² الدسوقي، محمد كمال. (1976م). الدولة العثمانية والمسألة الشرقية. القاهرة: مصر. دار الثقافة للطباعة والنشر. ص: 45-52.

صداقة براغماتية كاذبة ربحت لندن من ورائها نفوذاً ومكاسب جغرافية واقتصادية تعادل ما كانت تخسره السلطنة العثمانية من أراضي وسيادة. ورغم تضارب وتعدد أطماع الدول الأوروبية، إلا أنها أدركت جماعياً أن بقاء الإمبراطورية العثمانية يُمثل ركيزة إلزامية للحفاظ على "توازن القوى الدولي"، وهي الوظيفة السياسية المحورية التي أدارتها المسألة الشرقية لعقود لمنع صدام أوروبي شامل³.

وتحت وطأة هذه الضغوط، لجأت الحكومة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلى انتهاج سياسة "الإصلاح" بآليات ارتكزت على دعم وإملاءات غربية، وتمحورت حول ثلاث ركائز أساسية: اقتباس النظم الغربية في تنظيم الجيش العثماني وتسليحه وإدارة الحكم، والتوجه بالمجتمع نحو التشكيل العلماني والخروج النسبي عن التنظيم الإسلامي التقليدي للدولة، فضلاً عن تعزيز مركزية السلطة بين القسطنطينية والولايات التابعة لها. غير أن تلك التدابير والإصلاحات المتأخرة—والتي كان غرضها الأساسي إرضاء الدول الأوروبية—أدت إلى نتائج عكسية زادت من وتيرة انهيار الدولة؛ إذ فتحت الباب للتدخل الأجنبي المباشر في الشؤون السياسية والمالية للإمبراطورية وفرض شروط قاسية أفقدتها الجزء الأكبر من سيادتها، لتنتهي فصول هذه المسألة تاريخياً بدعوة الدولة التركية للتوقيع على معاهدة سيفر في 10 أغسطس عام 1920م.

ومن هنا يطرح البحث تساؤلاً جوهرياً حول مصير المنطقة العربية في ظل المسألة الشرقية؛ فبعد أن بقيت البلاد العربية تحت السيطرة العثمانية لقرابة أربعة قرون متتالية عانت خلالها من انغلاق سياسي واقتصادي وثقافي فرضته طبيعة الإدارة العثمانية، كانت أوروبا تشهد تحولات ديموغرافية وعلمية

³ الحصري، ساطع. (1957م). البلاد العربية والدولة العثمانية. القاهرة: مصر. مطبعة الرسالة. ص: 112-116.

راديكالية تبحث فيها عن مصادر ثروة وتقنيات جديدة. هذا التباين الحضاري أدى لصعود الرأسمالية الغربية ونشوء "أوروبا الحديثة"، في حين بقيت المنطقة العربية مهمشة وتزداد فجوة تخلفها بمقياس التقدم الأوروبي المتسارع. وتُوج هذا الانكشاف التاريخي بصعود الاستعمار الأوروبي الجديد عبر صراع بريطاني-فرنسي قاد للاستحواذ على مصر، والجزائر، وتونس، والمغرب، وليبيا. ومع اشتعال الحرب العالمية الأولى (1914-1918م)، اكتملت حلقات السيطرة الاستعمارية باحتلال العراق وفلسطين وبلاد الشام، لتُشرعن هذه السياسة التقسيمية لاحقاً بموجب صكوك الانتداب الصادرة عن الهيئة الدولية الناشئة المتمثلة في عصبة الأمم⁴.

(2) دور الامبراطورية العثمانية في ظهور واستفحال المسألة الشرقية:

أدرك السلطان العثماني عبد الحميد بعد اعتلائه السلطة أطماع أوروبا فيها وقد ورد في مذكراته: ((عندما توليت العرش لم أكن أعلم بهذه الحقائق وانما ابتدأت بمعرفتها واحدة بعد واحدة بالتجربة اننا نقف بمفردنا في العالم لنا أعداء، وليس لنا صديق، يمكن للصليب ان يتحد في كل وقت، لكن الهلال دائماً بمفرده. كلٌ ينتظر النفع من الدولة العثمانية، ويظهر لنا الصداقة، ولكن عندما لا يوجد فيها ما يأمل، سرعان ما يعاديه))⁽⁵⁾. ثم يعود ليقول مبيناً تأمر الدول الأوروبية على امبراطوريته ((ان

⁴ الخطيب، محمد كامل. (2003م). آخر أخبار المسألة الشرقية: ما يزال الرجل مريضاً. دمشق: سوريا. وزارة الثقافة السورية. ص:78.

⁽⁵⁾ السلطان عبد الحميد. (1991م). مذكرات السلطان عبد الحميد، ط:3، ترجمة: محمد حرب. لبنان: بيروت، دار القلم. ص:140.

الانكليز والفرنسيين والروس وحتى الالمان والنمساويون أي كل الدول الأوروبية الكبرى وجدت مصلحتها في تقسيم الدولة العثمانية وتفتيتها⁽⁶⁾.

نستنتج من ذلك ان الامبراطورية العثمانية كانت ضحية لأطماع أوروبا المادية ويمكن القول ان تدهور وضعف الدولة العثمانية يعود لعوامل داخلية عدة أهمها:

- السلاطين العثمانيون بعد سليمان القانوني كانوا سلسلة من الحكام الضعاف الذين يفتقرون الى دراية لاحتياجات الامبراطورية الجديدة⁽⁷⁾.
- الفساد في الادارة المركزية والمحلية.
- تدهور نظام الإنكشارية⁽⁸⁾.
- الفساد الذي كان متفشياً في العاصمة والولايات، فكثيراً ما كان الولاة يشترون تعيينهم بالمال، وهدفهم الاول أطماعهم الخاصة، وفي إحدى سجلات الدولة العثمانية وجد جدول بأسماء 61 والياً تم تعيينهم في دمشق بغضون 80 عاماً أولها عام 1815م⁽⁹⁾.
- من الاسباب المهمة تمرد شعوب الدول التي خضعت للسلطنة العثمانية عليها بسبب تصرفات السلطنة كونها كانت دولة إقطاع عسكري لأنهم عندما يستولون على أي منطقة يتم إحصاء

⁽⁶⁾ السلطان عبد الحميد. (1991م). ص:130.

⁽⁷⁾ عامر، محمود علي. (2004م). تاريخ الامبراطورية العثمانية، دراسة تاريخية واجتماعية. ط:1. سوريا: دمشق. ص:243.

⁽⁸⁾ انيس. (1993م). ص:167.

⁽⁹⁾ حتي، فيليب. (1959م). تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة: كمال اليازجي. ط:1. لبنان: بيروت. دار الثقافة. ص: 313.

المقاطعات وقرى ويمنحون القرى الى الجنود المحاربين والمقاطعات الكبيرة الى القواد والامراء والمقاطعات الكبيرة الى السلطان⁽¹⁰⁾ وتلك المنح تقتصر على حق جباية الاعشار وسائر الرسوم والضرائب المترتبة عليها.

ساهمت الامبراطورية العثمانية في زيادة حجم التدخل الاوروبي في اعمالها الحكومية من خلال الدين المترتب على الامبراطورية للبنوك الاوروبية فمنذ عام 1850م أصبحت السلطنة بحاجة للمال لسد نفقات الجيش والادارة وفي عام 1881م انشئت إدارة الديون العامة واعطيت الادارة حق الرقابة على الجزء الاكبر من الواردات المالية العثمانية كونها تمثل الدائنين الاجانب⁽¹¹⁾. اما البعض فقد تكهن بزوال الامبراطورية العثمانية وتحل محلها دولة تركية وهذا ما ذكره يوسف آقجورا⁽¹²⁾ الذي كان يقول: ((ان الدولة العثمانية لا يمكن ان تعيش لأنها مؤلفة من عناصر وقوميات مختلفة، انها ستموت وتنتفض حتماً، ولكن بعد موتها ستقوم دولة تركية لا تضم غير الاتراك⁽¹³⁾)).

⁽¹⁰⁾ رافق، عبد الكريم. (1974م). العرب والعثمانيون 1516-1916م. ط:1. سوريا: دمشق. مطابع أ ب الاديب. ص:45.

⁽¹¹⁾ حوراني، البرت. (1997م). تاريخ الشعوب العربية. ترجمة: كمال خوري. ط:1، لبنان: بيروت. ص:353.

⁽¹²⁾ يوسف آقجورا: من أترك روسيا، من نواحي قزان الواقعة على نهر الفولغا، درس في جامعة أرنهورغ في روسيا ثم واصل الدراسة في مدرسة العلوم السياسية في باريس.

انظر: الحصري، ساطع. البلاد العربية والدولة العثمانية. ط:1، مصر: القاهرة، مطبعة الرسالة. ص:108.

⁽¹³⁾ الحصري (1957م)، ص:110.

3) سياسة محمد علي باشا التوسعية واحتلال بلاد الشام وموقف الدول الأوروبية

منه (1832-1840م):

شعر محمد علي باشا⁽¹⁴⁾ والي مصر بضعف الدولة العثمانية وان الاوان لتنفيذ طموحه بتوسيع نطاق سلطنته ولا سيما انه تعلم الكثير من نتائج الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام 1798-1801م والتي كانت مليئة بالفوائد بالنسبة لمحمد علي باشا التي ساعدته في الحكم⁽¹⁵⁾، فأصبحت العلاقة بينه وبين السلطان العثماني فقد اصبحت سيئة منذ عام 1829 م فكان الباشا يكن الحق للسلطان لأنه لم يفي بوعدده بإعطائه سوريا بالإضافة لمصر لاشتراكه بحرب المورة الى جانب العثمانيين ورفض السلطان محمود الثاني (1785-1839م) اطلاق يد الباشا في ليبيا بسبب تقاعس الباشا بمساعدة السلطان في حرية الاخيرة مع روسيا⁽¹⁶⁾، وان هذا الطموح اصطدم بقوة بمصالح انكلترا والتي بانته معالمها بعد الحملة الفرنسية على مصر والتي تمثلت في عدم السماح لأي قوة أوروبية بالاستيلاء على

⁽¹⁴⁾ محمد علي باشا (1769-1849م): ولد في مدينة قوله، وهي مدينة بحرية صغيرة، ولد محمد علي في عام 1769م، وهو تركي عثماني مسلم، لا يمت للألبان بصله، والا لصقالبة مقدونيا ويونانها بسبب ولا نسب والثابت ان أباه ابراهيم آغا كان على رأس كتيبة من رجال الحفظ في المدينة، وانه مات أبنة لازال صغيراً، وان والي المدينة كفل محمد بعد موت ابيه، ونشأ محمد نشأة علمية صرفة، ولما بلغ 18 من عمره تزوج بسيدة من قريبات الوالي ورزقه الله منها بخمسة من أبنائه وبناته، ويقال انه عمل بعد زواجه في تجارة الدخان في ربيع الثاني عام 1805م وصل مرسوم الدولة العثمانية ومضمونه الخطاب لمحمد علي باشا والي جدة سابقاً، ووالي مصر حالياً.

انظر: الكيالي، عبد الوهاب . (1993م). الموسوعة السياسية، ج:6، ط:3، لبنان: بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ص:92-93.

⁽¹⁵⁾ سمحات، قاسم. د.ت، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام (1804-1850م)، دم، ص:127.

⁽¹⁶⁾ خوري، اميل - عادل إسماعيل. (1960م). السياسة الدولية في الشرق العربي 1789-1958م. ط:1، ج:2. لبنان: بيروت. دار النشر للسياسة والتاريخ. ص:86.

مصر أو ان يكون لها نفوذ سياسي يهدد مصالحها والمحافظة على كيان الدولة العثمانية المتداعي وتعزيز النفوذ البريطاني فيها وإبقاء مصر في إطار الدولة العثمانية وعدم انفصالها تحت أي حكم⁽¹⁷⁾.

بعد ان استقرت ولاية مصر لمحمد علي باشا أصبح الفرنسيون يساعدونه بالعلوم والفنون العصرية وتدريب الجنود⁽¹⁸⁾، وتمكن من تنظيم جيش مدرب وبأمر من السلطان محمود ارسل حملة على الحجاز لإخراج الوهابيين منها⁽¹⁹⁾، وحملة أخرى لإخماد ثورة المورة وأيضاً حملة على السودان بينما الدولة العثمانية مشغولة بحرب مع الروس فاجتتم محمد علي باشا الفرصة وبتحريض من فرنسا من اجل السيطرة على بلاد الشام⁽²⁰⁾، سبق وان ولت الدولة العثمانية ابراهيم باشا⁽²¹⁾ ولاية المورة اليونان والتي استقلت عام 1828م ليصبح ابراهيم باشا بلا ولاية فطلب له والده من الباب العالي ان يتولى ابراهيم ولاية الشام فلم تتم الموافقة واختير له ولاية كريت فرفضها فقام محمد علي بتهديد السلطنة والزحف على القسطنطينية وعلى اثر ذلك قرر الباب العالي عزل محمد علي باشا من ولاية مصر واخذ يعد حملة ليسوقها عليه⁽²²⁾، الا ان محمد علي باشا قرر الخروج عن سلطة الباب العالي مستغلاً حادثة ضخمها

⁽¹⁷⁾ الغنام، سليمان (1980م)، قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (1811-1840م) في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا. ط:1، السعودية: جدة، نشر تامة. ص:121.

⁽¹⁸⁾ العظمة، عبد العزيز (2002م). مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها. ط:2، سورية: دمشق، دار الفكر. ص:290.

⁽¹⁹⁾ حسون، علي (1994م). تاريخ الدولة العثمانية. ط:3، لبنان: بيروت، المكتب الاسلامي. ص:164.

⁽²⁰⁾ العظمة (2002م). ص:291.

⁽²¹⁾ ابراهيم باشا (1789-1848م): الابن الاكبر لمحمد علي، ويعتبر المؤسس الفعلي للجيش المصري، كان يعرف الفارسية والتركية والعربية. قاد الحملة الفرنسية ضد الوهابيين (1816-1819م) فهزمهم. تولى حكم مصر في نيسان بسبب عجز أبيه وتوفي في تشرين الثاني عام 1848م.

انظر: موسوعة السياسة (1990م). ط:3، ج:1، لبنان: بيروت، دار نعمة للطباعة. ص:19.

⁽²²⁾ العظمة (2002م). ص:291.

بخلاف مع والي عكا فأعد محمد علي باشا جيشاً بقيادة ابنه ابراهيم باشا عام 1831⁽²³⁾، وبعد سلسلة من المعارك حققت قوات محمد علي باشا نصراً كبيراً على الجيش العثماني⁽²⁴⁾، ودخول ابراهيم باشا بقواته مدينة دمشق بدون معركة يوم 14 محرم 1248 هـ - 1832 م⁽²⁵⁾، شعر محمد علي وابنه ابراهيم ان الظروف أصبحت مواتية لفرض شروطهما على السلطان العثماني ونتيجة ما قام به الباشا فأرسل السلطان محمود مندوباً عن السلطنة للتفاوض بصلاحيته مطلقة على أساس عفو سلطاني شامل ومنحه حكم مصر والمنطقة الجنوبية من سوريا وشرط الامتناع عن التعويض او الاعتراف بحق الوراثة لأبنائه من بعده، ومن خلال المفاوضات شعر محمد علي بضعف السلطان وأصبح مصراً على ضم سوريا بالكامل لسلطته والاحتفاظ بأرضه وان يحظى بمعاملة خاصة ودفع الخراج السنوي كل عام بالوقت المحدد.⁽²⁶⁾

في بداية الامر لا بد من بيان موقف الدول العظمى فرنسا وانكلترا وروسيا من انتصارات ابراهيم باشا إذ انه كان يميل الى عدم التدخل بالرغم ان السلطان محمود طلب مساعدة الدول الاوروبية، نجد ان فرنسا كانت متعاطفة وكذلك الرأي الفرنسي مع محمد علي وأجريت عدة رسائل ما بين حكومة محمد علي وملك فرنسا لإيضاح حقيقة الامر وطالباً الوقوف لجانبه⁽²⁷⁾، أما موقف انكلترا فكان عدم زج نفسها في المشاكل القائمة بين السلطان العثماني ووالي مصر، وأما موقف روسيا فكانت تنتظر الى انتصارات

⁽²³⁾ العظمة (2002م). ص: 292.

⁽²⁴⁾ الدسوقي (1976م). ص: 165.

⁽²⁵⁾ كرد علي، محمد (1925-1928م). خطط الشام، ج: 5، سورية: دمشق، مطبعة المجمع العلمي العربي. ص: 293.

⁽²⁶⁾ خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 93-94.

⁽²⁷⁾ كامل باشا، مصطفى (1909م). المسألة الشرقية، ط: 2، ج: 1، مصر: القاهرة، مطبعة اللواء. ص: 159-160.

محمد علي تشكل خطورة عظيمة بالنسبة لها⁽²⁸⁾، أرسلت روسيا مندوباً الى السلطنة وعرضت ارسال أسطول روسي للدفاع عن القسطنطينية وقد رفض السلطان العثماني العرض بسبب ان روسيا هي العدو التقليدي للسلطنة ولم يتم التوصل لاتفاق، أرسلت روسيا ذات المندوب الى مصر وقد أبدى محمد علي استعدادة للتعاون مع روسيا وانه لن يتقدم باتجاه اسطنبول وذلك كسباً لود روسيا⁽²⁹⁾، الا ان السلطان العثماني تراجع عن قراره وطلب المساعدة الروسية حيث استجاب القيصر الروسي وأرسل أسطول روسي قوي في 20 شباط 1833 م الى شاطئ اسطنبول⁽³⁰⁾.

أظهرت انكلترا وفرنسا غضبها بسبب التقارب الروسي العثماني ففي 18 نيسان عام 1833 م عقدت اتفاقية في كوتاهية⁽³¹⁾ في مقر ابراهيم باشا، وعقدت اتفاقية صلح بين السلطنة العثمانية ومحمد علي⁽³²⁾، تقضي بالعفو عن محمد علي وإبقائه والياً على مصر وسنار وكريت وضم ايلات سوريا إليه، ويكون ابراهيم حاكماً على الحبشة والحجاز، وظل الصلح شفهيّاً لرفض السلطان تسجيله⁽³³⁾ بسبب ارسال روسيا مندوبا عنها والتي افضت اجتماع المندوب مع السلطان الى اتفاقية عرفت ب انكيار سكليسي في 8 تموز عام 1833م، حيث اثارت هذه المعاهدة الدول الاوروبية من حيث حصول روسيا

(28) الدسوقي (1976م). ص: 167-168.

(29) الدسوقي (1976م). ص: 169.

(30) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 96-97.

(31) كوتاهية: مدينة في تركيا الاسيوية (الاناضول)، مركز لواء كوتاهية ولطان أونو. بنيت عند سفح هضبة.

انظر: موستراس، المعجم الجغرافي العثماني (د.م- د.ت). ص: 428.

(32) الدسوقي (1976م). ص: 170.

(33) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 111.

على مكاسب كبيرة جدا وهي التي تقضي بان يطلب الباب العالي من روسيا المساعدة البحرية والعسكرية وفضلاً عن معاهدة تحالف دفاعي⁽³⁴⁾.

انزعجت أوروبا من مضمون المعاهدة وبنودها السرية فاستغل محمد علي باشا الجو الدولي المضطرب واخذ يطالب باستقلاله طالباً من حكومتي فرنسا وانكلترا الاعتراف بالاستقلال وذلك في 3 أيلول عام 1834م مقابل امتيازات يقدمها لهم معللاً طلبه بانه الضمان الوحيد للوقوف بوجه روسيا وتقدمها في الشرق عبر آسيا وبلاد فارس⁽³⁵⁾، الا ان موقف تلك الدول كان سلبياً فاخذ محمد علي البحث عن الطريقة التي يمكن معالجة خلافاته مع السلطان بدون تدخل الدول الاوروبية، ونتائج المفاوضات بين الطرفين كانت فاشلة. اشتدت الازمة بين الطرفين عام 1837م فحشد السلطان العثماني جيوشه على الحدود السورية الشمالية وحشد محمد علي جيوشه استعداداً للمواجهة العسكرية⁽³⁶⁾. نتيجة للوضع المتأزم كان لا بد من محمد علي من تنفيذ مخططة السياسي اذ عمد الى استدعاء قنصلي انكلترا وفرنسا في 25 أيار عام 1838م وإبلاغهم إعلان الاستقلال ومن ثم تبليغ قنصلي روسيا والنمسا⁽³⁷⁾، على أثر تلك المجريات قرر السلطان العثماني الحرب على محمد علي باشا وفي 21 نيسان عام 1839م تحركت القوات العسكرية العثمانية من وادي الفرات باتجاه سوريا، وانتهت الحرب بهزيمة الجيش العثماني لأسباب عدة منها:

(34) انظر: نص معاهدة انكيار سكليسي المعقودة بتاريخ 8 تموز عام 1833م. خوري وعادل إسماعيل (1960م). ص: 277.

(35) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 120-121.

(36) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 129.

(37) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 130-131.

- غدر بريطانيا بالإمبراطورية العثمانية وعدم تدخلها عسكرياً لصالحها.

- تعامل محمد علي باشا مع قرار إعلان الحرب على السلطنة بكياسة عالية جداً وتوظيفه ضد خصمه السلطان محمود، وظهوره بمظهر المطالب للسلم من خلال إرسال مذكرة في 16 أيار عام 1839م إلى قناصل الدول في القاهرة موضحاً من خلال المذكرة الاستعداد للانسحاب من سوريا الشمالية إلى دمشق إذا عاد الجيش العثماني لقواعده خلف الفرات، ونظراً لعدم انسحاب الجيش العثماني دارت معركة عنيفة في نرب انتهت بهزيمة الجيش العثماني في 24 حزيران عام 1839م⁽³⁸⁾، فأصبح الطريق مفتوح باتجاه الآستانة للجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا وعزز هذا النصر لجوء الاسطول العثماني بتاريخ 4 تموز عام 1839م الى الاسكندرية⁽³⁹⁾.

تزامنت انتصارات محمد علي مع وفاة السلطان محمود الثاني، وتسلم السلطة السلطان عبد المجيد خان الذي أرسل مندوباً للتفاوض مع محمد علي الا ان المفاوضات باءت بالفشل بسبب تدخل الدول الاوروبية، وعلى أثر ذلك قررت السلطنة إعادة استئناف المفاوضات مع محمد علي باشا، وإغلاق مضيق الدردنيل في وجه جميع الدول هذا الذي أدى الى اضطراب الدول الأوروبية وبالأخص انكلترا التي أكدت عزمها بالمحافظة على وحدة الامبراطورية وكيانها من خلال سفيرها في الآستانة إلا ان هذا

⁽³⁸⁾ خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 143.

⁽³⁹⁾ خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 164.

الأمر لم يثنى السلطنة عن قرارها و أرسلت مندوباً عنها إلى الاسكندرية للمفاوضات مع محمد علي باشا. (40)

أبدت الحكومات الأوروبية قلقها من الاتفاق الحاصل مع محمد علي باشا دون الرجوع إليها، فتم تشكيل تحالف دولي خماسي بتاريخ 20 تموز عام 1839م للنظر بما قامت به الدولة العثمانية دون الرجوع للدول الأوروبية. (41)

(4) التحالف الانكليزي الروسي البروسي العثماني من أجل العمل على طرد محمد

علي باشا وابنه من بلاد الشام 1839م:

لم يلق القبول من الدول الأوروبية المكاسب التي حققها محمد علي سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ووبالأخص انكلترا التي كانت تسعى الى القضاء على النفوذ الروسي لدى العثمانيين وتدمير الجيش العثماني في معركته مع جيش محمد علي وإقصاء فرنسا عن مصر والحد من نفوذها في سوريا وتكون هي الرابحة في الشرق (42)، وكانت مصلحة انكلترا ان لا تكون مصر قوية اقتصادياً وبالتالي ستصبح قوة عسكرية إسلامية عربية التي تمثلت بالإصلاحات التي ظهرت ما بين 1832 و 1840م وطموح محمد علي وابنه ببناء دولة عربية قوية (43). لجأت انكلترا بتحريض بحارة الاسطول العثماني الذي لجأ إلى الاسكندرية ورفع راية العصيان من اجل العودة الى الآستانة، ولكن محمد علي لجأ للحل السلمي

(40) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 167.

(41) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 171.

(42) خوري، عادل إسماعيل. (1960م). ص: 140-141.

(43) الكيالي. (1993م). ج: 3، ص: 293.

مرة أخرى فارسل أحد دهاة ديوانه بشهر حزيران عام 1840م الى الآستانة حاملاً معه ود محمد علي وخضوعه لأوامر السلطان وإعادة الاسطول البحري العثماني في اليوم الذي يريده السلطان مقابل منحه حكم مصر وسوريا وراثياً ودفع الخراج، فتدخلت انكلترا وطلبت من السلطان عبر سفيرها ان لا تقدم على أية تسوية بدون إشراك الدول الاوروبية وبذلك تكون أخفقت مهمة مندوب محمد علي باشا⁽⁴⁴⁾.

(5) التحالف العسكري الاوروبي ضد محمد علي لإخراجه من بلاد الشام:

تمكنت انكلترا من إنشاء تحالف اوروبي ضم انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا ووقع الجميع على مذكرة في 27 تموز عام 1839م والمتضمنة إلزام الباب العالي العثماني بوقف المفاوضات مع محمد علي⁽⁴⁵⁾، وتمكنت انكلترا بالاتفاق مع روسيا والنمسا وبروسيا بتوقيع اتفاقية في 15 تموز عام 1840م في لندن والتي تضمنت: ان تكون مصر وراثية لمحمد علي وولاية عكا مدى الحياة فاذا امتنع عن الانسحاب من الارض التي احتلها ولم يقبل بالعرض خلال عشرة أيام تبقى له ولاية مصر فقط واذا أصر على الرفض خلال عشرة أيام أخرى تُزعت منه ولاية مصر، وساعدت الدول الاوروبية السلطنة العثمانية عسكرياً لإخضاع محمد علي.

وافق السلطان العثماني على مقررات المعاهدة في 3 آب عام 1840م وكُلف رفعت بك أحد كبار رجاله لحمل العروض المقررة الى محمد علي⁽⁴⁶⁾، أما الدول الاوروبية لم تقم بتبليغ فرنسا قبل التوقيع

(44) الغنام. (1980م). ص: 116.

(45) الدسوقي (1976م). ص: 182.

(46) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 284.

بمضمون المعاهدة الا ان انكلترا أبلغت فرنسا بواسطة سفيرها في فرنسا بنص المعاهدة في 15 تموز 1840م مبررة فيها أسباب إقدام الدول الاربع على توقيع المعاهدة⁽⁴⁷⁾.

(6) موقف محمد علي باشا من بنود معاهدة لندن:

وصل مندوب السلطان العثماني الى الاسكندرية في 11 آب عام 1840م واجتمع مع محمد علي في 16 آب وبلغه مقررات معاهدة لندن⁽⁴⁸⁾، وبتاريخ 22 آب اجتمع محمد علي بأركان دولته واطلعه على مضمون المعاهدة وما دار في الاجتماع وطلب منهم المشورة فُصح بقبول العرض المقدم لكن محمد علي لم يأخذ بمشورة أركان دولته وشجعه على ذلك الممثلين الفرنسيين الموجودين في مصر وبذات الوقت رفض ضغط قناصل الدول الأوروبية لقبول المعاهدة قبل انتهاء الفترة الاولى المقررة ومخاطبتهم ((ان موقفهم منه أشبه بموقف لص دخل على رب عائلة في عقر داره وطلب منه ان يعطيه ماله ومتاعه فلما أبى رب العائلة هدهد اللص بقتل حرمه وأولاده قائلاً له ان تبعة القتل ستقع عليه⁽⁴⁹⁾)).

نظراً لرفض محمد علي المطالب أصدر السلطان العثماني أمراً بخلع محمد علي من الحكم في 15 تشرين اول عام 1840م وتعيين عزت باشا خلفاً له بحكم مصر وسوريا وبموافقة حلفائه الأوروبيين⁽⁵⁰⁾، انتهت مدة العشر أيام الأولى فخسر محمد علي حكم عكا، وبقي عدة أيام على المهلة

⁽⁴⁷⁾ خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 242.

⁽⁴⁸⁾ خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 257.

⁽⁴⁹⁾ رستم، أسد (1933م). الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، مجلد: 5، الاوراق السياسية لسنة 1256هـ، لبنان: بيروت. منشورات كلية العلوم والآداب. ص: 172-180.

⁽⁵⁰⁾ بركات، داوود . د.ت . البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتح الشام 1832م، مصر: القاهرة. المطبعة الرحمانية. ص: 202.

الثانية فطلب من أركان دولته للاجتماع مره ثانية فعرضوا عليه الموافقة فاستدعى المندوب العثماني والقناصل وأبلغهم الموافقة بقبول حكم مصر وراثياً ومحتفظاً بحقه بمطالبة السلطان بحكم سوريا مدى الحياة، الا ان المندوب العثماني والقناصل طلبوا من محمد علي سحب العسكر من سوريا وإعادة الاسطول العثماني الى السلطنة فوراً، الا ان محمد علي رفض ذلك وبانتظار رد السلطان عما طرحه، وقد وضحت انكلترا بأنه لا يحق للسلطان قبول المقترح او رفضه دون موافقة الدول الموقعة على المعاهدة وكانت النتيجة ان محمد علي قرر بتاريخ 6 أيلول عام 1840م عدم قبول المعاهدة دون قيد او شرط⁽⁵¹⁾، شعر محمد علي بموقف فرنسا المتراخي وبالأخص بعد ان طلب محمد علي بتاريخ 7 تشرين الثاني عام 1840م من ملك فرنسا لويس فيليب المساعدة العسكرية فلم يتلقى الإجابة على طلبه فأدرك محمد علي أن فرنسا لا ترغب بتقديم المساعدة⁽⁵²⁾، رضخ محمد علي للأمر فلم يعد أمامه إلا القبول بعرض انكلترا الذي وضعته في 14 تشرين الثاني عام 1840م، والذي تضمن باستعداد الدول الأوروبية لمساعدة محمد علي اذا انسحب من سوريا وإعادة الاسطول العثماني الى الآستانة خلال ثلاثة أيام من تبليغه، فوافق محمد علي على العرض وأرسل بتاريخ 11 كانون الاول عام 1840م كتاباً للصدر الاعظم يبلغه بموافقة⁽⁵³⁾، إلا أن السلطان العثماني رفض إلغاء أمر عزل محمد علي وإرضاء الدول الأوروبية فأصدر أمراً بتاريخ 13 شباط 1841م، تضمن مجموعة من الشروط القاسية لإعادة محمد علي والياً على مصر ثم أصدر السلطان أمراً آخر بتاريخ 19 نيسان عام 1841م خفف من الشروط

(51) الدسوقي (1976م). ص: 187.

(52) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 269.

(53) خوري، عادل إسماعيل (1960م). ص: 270-271.

الواردة من الأمر الأول، وخلال تلك الأوقات كانت تجري اتصالات بين وزير خارجية محمد علي والقائد البريطاني نابيير والاتفاق على انسحاب القوات من سوريا⁽⁵⁴⁾، فقام محمد علي بنشر منشور عام وجهه إلى الحكام والعلماء والذوات قال فيه ((أنه حضر الى ميناء الاسكندرية جناب الاميرال نابيير وعرض لنا اتفاق دول أوروبا بإجابة طلبه مصر لنا بطريق التوارث وصدر الامر للسر عسكر وكافة القواد بترك الشام والاذن بحضورهم لمصر))⁽⁵⁵⁾.

سعت الدول الأوروبية الى تحديد الوضع الدستوري لمحمد علي وتوسطت لدى السلطان من اجل ذلك وعلى ان يدفع للسلطنة جزية سنوية مقدارها ثلاثون مليون قرش وألا يزيد عدد جيشه عن 18 ألف جندي، وللسلطان حق تعيين كبار موظفي دولته وان يعترف بالمعاهدات التي عقدها الباب العالي مع الدول الاجنبية تعتبر ملزمة لمصر أيضاً⁽⁵⁶⁾.

7) إثارة الأحقاد والضغائن بين شرائح المجتمع في بلاد الشام:

ساهمت الدول الأوروبية وبالأخص إنكلترا بالمساهمة في ديمومة وجود الحكم العثماني خارج العاصمة القسطنطينية، وكان ثمن هذا الاستمرار تدخل الدول الأوروبية بشؤون السلطنة العثمانية في ظل عوامل الضعف التي مرت وأهمها عدم القدرة على حكم الشعوب التي وقعت تحت هيمنتها واستخدمها لأسلوب إثارة الأحقاد والضغائن بين شرائح المجتمع وفي هذا الخصوص كان ادق وصف لأسباب دعم العثمانيين لذلك قول قنصل إنكلترا في دمشق ((والظلم يدفع الى المقاومة، والضعف يزيد

⁽⁵⁴⁾ بركات د.ت. ص: 203-204.

⁽⁵⁵⁾ بركات د.ت. ص: 202-203.

⁽⁵⁶⁾ الدسوقي (1976م). ص: 188-189.

التمرد، والسكان يؤلفون من طوائف مختلفة المذاهب معادية للسنة، ومن طوائف نصرانية متعصبة يعادي بعضها بعضاً، والحكومة عاجزة عن بسط سيطرتها على الجميع، ولهذا أمست مضطرة إلى إثارة طائفة على أخرى بإيقاد جذوة التحاسد والبغضاء، ويمثل هذه المسائل تتمكن من حفظ بعض السيطرة لنفسها⁽⁵⁷⁾)).

أصبح التدخل الاجنبي في الامبراطورية حقيقة لا بد منها فأصبح قنصل روسيا مسيطراً على مسائل الروم الارثوذكس وقنصل فرنسا الحاكم والمتحكم في قضايا البابويين وقنصل انكلترا مهيمناً فيما يعرض للبروتستانت⁽⁵⁸⁾، ومما يؤكد ذلك أنه في عام 1861م قام الامبراطور نابليون الثالث امبراطور فرنسا بإرسال حملته من قبله الى سوريا بحجة حماية المسيحيين ولم تحقق الحملة هدفها فعادت الى بيروت وكسروان وزحلة للمحافظة على قرى المسيحيين فقط.⁽⁵⁹⁾

8 موقف الامبراطورية العثمانية من بلاد الشام في أوائل القرن التاسع عشر:

استعرضنا وضع الامبراطورية العثمانية وعلاقتها مع الدول الأوروبية وأصبحت رهينة المعاهدات التي قيدتها وأصبحت ضعيفة الى حين يأتي الوقت المناسب للسيطرة وتقاسم ممتلكاتها سيما وأنه لم تكن لدى الدولة العثمانية القدرة على مواجهة الاوضاع الجديدة اذ كان الفساد الحكم العثماني قد بلغ مداه فالرشوة وشراء المناصب والضرائب الفادحة وغير ذلك من أساليب الظلم الذي كان من الممكن عده من الامور المعتادة في العصور السابقة لم يعد ممكناً في وقت بدا فيه الناس يتسامعون بالحركات

⁽⁵⁷⁾ كرد علي ، محمد (1983م). ج:3، ص:81-82.

⁽⁵⁸⁾ كرد علي ، محمد (1983م). ص:93.

⁽⁵⁹⁾ العظمة (2002م). ص:322.

التحررية والتطورات الدستورية والثورات القومية التي كانت تجري في مختلف انحاء أوروبا في القرن التاسع عشر ومن الإنصاف ان نقول انه قد بذلت جهوداً داخل نطاق الدولة العثمانية لمواجهة التطورات الجديدة، كانت المحاولة الأولى في زمن السلطان عبد الحميد 1839 - 1881م عندما حاول تحقيق إصلاحات مدنية على أساس جديد وعرفت هذه المحاولة بالتنظيمات وقد صدرت في منشور هامبوني، والمحاولة الثانية كانت زمن عبد الحميد الثاني 1876-1909م عندما حاول تخفيف الحكم المطلق وجعله مشروطاً بالدستور، وسميت هذه الإصلاحات بالمشروطية أي مشروطية الحكم⁽⁶⁰⁾. حاول السلطان عبد الحميد استقطاب نفوس العرب من خلال فكرة الجامعة الاسلامية والتي تهدف الى توطيد موقفه الداخلي ضد المعارضين لحكمه وتعزيز موقفه الخارجي وكسب ولاء المسلمين بصفته خليفة المسلمين، ومن خلال ذلك يستطيع ان يهدد نفوذ الدول الأجنبية ومستعمراتها، وقد شعر الأوروبيين بخطر هذه السياسة على نفوذهم⁽⁶¹⁾.

الشعور القومي العربي كان منتشراً لدى الشعوب العربية عامة وبلاد الشام بشكل خاص وقد بين ذلك أحد الكُتّاب الفرنسيين عندما زار الشام عام 1882م قائلاً: ((انتشرت روح الاستقلال انتشاراً واسعاً، وكان الشبان من المسلمين، خلال إقامتي في بيروت، منهمكين في تنظيم الجمعيات لإنشاء كثير من المدارس والمستشفيات والعمل على النهوض بالبلاد، ومن أهم هذا صفات هذا النشاط انه بريء من

⁽⁶⁰⁾ قدورة، زاهية (1985م). تاريخ العرب الحديث. ط:1، لبنان: بيروت. دار النهضة العربية. ص:233.

⁽⁶¹⁾ برو، توفيق (1991م). العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908-1914م. ط:1، سوريا: دمشق. دار طلاس للنشر. ص: 47-48.

وصمة التعصب الطائفي، فقد عمدت تلك الجمعيات على قبول النصارى وإشراكهم في العمل القومي، أما الاتراك فقد نحوا من هذا الميدان⁽⁶²⁾.

بدأت روح الاستقلال في سوريا في صورة جمعيات كانت في البداية ثقافية ثم أصبحت جمعيات سياسية مثل رابطة الوطن العربي التي انشئت في باريس عام 1904م، جمعية النهضة العربية التي أسست في دمشق عام 1906م، جمعية الإخاء العربي العثماني التي أسست عام 1908م، المنتدى العربي الذي تأسس على أثر إقفال جمعية الإخاء العربي، ثم الجمعية القحطانية التي أنشئت عام 1909م، وجمعية العربية الفتاة التي أسسها العرب في باريس ثم انتقل مركزها الى بيروت عام 1913م، ثم إلى دمشق وبقيت فيها لعام 1920م، وتوجت اعمال هذه الجمعيات بالمؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس بين 18-23 حزيران عام 1913م⁽⁶³⁾، وقد واجه رجال الاتحاد والترقي هذا العمل السياسي بالعنف فكان إذ جاء الوالي العثماني جمال باشا⁽⁶⁴⁾ إلى دمشق والياً في عام 1913م، وظهرت أعماله المعادية للفكر العربي، وتوج سياسته بالقبض على عدد من الرجال العرب وتعليق عدد

⁽⁶²⁾ انطونيوس، جورج (1987م). تاريخ حركة القومية العربية. ط:1، ت: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس. لبنان: بيروت، دار العلم للملايين . ص: 161-162.

⁽⁶³⁾ قدورة (1985). ص:235.

⁽⁶⁴⁾ جمال باشا 1872-1922م: ولد باسطنبول، تخرج من المدرسة الرشدية ومدرسة الأركان، كان احد ثلاثة من العصابة العسكرية حكموا تركيا خلال الحرب العالمية الأولى بعد عام 1908م، عندما عاد الى إسطنبول أصبح عضواً في الحكومة العسكرية. أرسل الى جبهة فلسطين عام 1914م حيث قاد محاولة فاشلة لغزو مصر، عُين بعد ذلك حاكماً على سوريا، بعد قيام نظام مصطفى كمال عكف على الاشراف على جيش الأفغان، وفي عام 1922م أغتاله أحد الوطنيين الأرمن أثناء تنقله في تقليس.

- الكيالي (1993م). ج:2، ص:74.

منهم على المشانق الذي زاد الحماس والكفاح للتخلص منه⁽⁶⁵⁾، وكانت حملة الإعدامات التي نفذها

الوالي جمال باشا على دفعتين الأولى في 21 آب 1915م، والثانية في 6 أيار عام 1916م.⁽⁶⁶⁾

كان حلم الاتحاد والترقي أن يتحقق في عدة سنوات ما لم تحققه الدولة السابقة من مزج للعناصر وصهرها في بوتقة واحدة خلال مئات السنين لكنهم اخطئوا في تقدير ما وصل اليه تطور الأوضاع في تلك السلطة المترامية الأطراف⁽⁶⁷⁾.

9) الاطماع الفرنسية والبريطانية ببلاد الشام في الربع الاخير من القرن العشرين:

أرهقت الدولة العثمانية نتيجة الحروب التي خاضتها، فضعفت عسكرياً واقتصادياً فاستفادت الدول الاستعمارية من هذا الضعف وبالأخص فرنسا التي اتخذت عبر التاريخ حمايتها للأقليات المسيحية في بلاد الشام، وذلك كما جاء بتصريح رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك بأن فرنسا: ((ستكون مضطرة وهي حامية المسيحيين في الشرق، لأن تجعل الحكومة العثمانية مسؤولة عن كل مكروه يلحق بهم، وهي تطلب منها بإلحاح أن تصدر الأوامر إلى الولاة ليحولوا دون حدوث مثل ذلك)).⁽⁶⁸⁾

وقد أكد رئيس الوزراء الفرنسي على العلاقة والوثيقة بين فرنسا وانكلترا من خلال خطابه الذي ألقاه في المجلس النيابي في 21 كانون اول عام 1912م، مؤكداً على حقوق فرنسا في الشرق واصفاً أن المساس بها مساساً ب الكرامة القومية: ((نحن مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا بلا هوادة،

⁽⁶⁵⁾ قدورة (1985). ص: 240.

⁽⁶⁶⁾ سعيد، أمين. د.ت، الثورة العربية الكبرى. ج: 1، مصر: القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي. ص: 58.

⁽⁶⁷⁾ برو (1991م). ص: 194.

⁽⁶⁸⁾ برو (1991م). ص: 350.

وعازمون على إدامة تقاليد فرنسا العظيمة في الشرق، وستسعى فرنسا لبذل كل ما في وسعها لصيانة هذه التقاليد المقدسة وحماية كرامتنا الوطنية))⁽⁶⁹⁾، وأعاد رئيس الوزراء الفرنسي ذلك أمام مجلس الشيوخ بقوله أن التفاهم الذي كان قد جرى بين فرنسا وإنكلترا على شؤون سوريا، التي كان موافقة على ماورد في خطاب رئيس الوزراء الفرنسي أمام مجلس العموم باعتراف حكومته بمصالح فرنسا في سوريا، إذ سبق أن اعطى رئيس الوزراء الفرنسي تصريحاً حول ذلك قائلاً: ((إن إنكلترا تتخلى عن أي مطمع سياسي لها في سوريا))⁽⁷⁰⁾، وبعد سنوات عدة وبالتحديد في 29 كانون الأول لعام 1918م أكد وزير خارجية فرنسا على منبر الجمعية العمومية الفرنسية بتمسك فرنسا بعلاقاتها التاريخية في سوريا بإعلانه: ((إن حقوق فرنسا في سوريا ولبنان وفلسطين، تقوم على التاريخ، وعلى اتفاقيات ومعاهدات - فضلاً عن أهل البلاد يريدوننا، وأن اتفاقيتنا مع بريطانيا، تربط بيننا وبينها، والحقوق المعترف لنا بها أصبحت ملكاً لنا بالفعل⁽⁷¹⁾)).

لا بد في نهاية الأمر أن ظهرت نوايا وأفعال الدول الاستعمارية بالتآمر على الدولة العثمانية وتقاسم تركتها، فما إن اندلعت الحرب العالمية الاولى فكرة التقسيم بدأت عندما اتفقت فرنسا وإنكلترا على عقد اتفاقية سرية مع روسيا في شهر اذار عام 1915م بتنفيذ المطلب الروسي بضم اسطنبول

⁽⁶⁹⁾ سلطان، علي (1987م). تاريخ سورية 1908-1918م نهاية الحكم التركي، ط:1، سوريا: دمشق. طلاس للدراسات والنشر. ص:244.

⁽⁷⁰⁾ قرقوط، ذوقان. (1989م). تطور الحركة الوطنية في سورية 1920-1939م، ط:1، سوريا: دمشق، طلاس للدراسات والنشر. ص: 17.

⁽⁷¹⁾ سلطان، علي (1987م). تاريخ سورية - حكم فيصل بن الحسين 1918-1920م، ط:1، سوريا: دمشق. طلاس للدراسات والنشر. ص:76.

والمضائق لروسيا في حال الانتصار بالحرب⁽⁷²⁾، وكان لبريطانيا الدور الخفي بوضع اتفاقية سايكس بيكو عام 1916م، ووعد بلفور عام 1917م مع انتهاء الحرب العالمية الأولى عُقدت الهدنة بين الأطراف المتحاربة في 11 تشرين الثاني عام 1918م، ومع بدأ الهدنة بين الأطراف المتحاربة أصبحت فرنسا تطالب بضم سوريا ولبنان وخليج الإسكندرون لسيطرتها.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث تؤكد النتائج على أن الأهمية السياسية التاريخية لبلاد الشام ليست مجرد أهمية موقع جغرافي بل هي مركز ثقل بالنسبة للمسألة الشرقية ولحملة محمد علي باشا، حيث اعتبر هذين العاملين تهديداً مباشراً للاستقرار الأوروبي حيث تعاملت الدول الأوروبية من خلالها بأن تكون بلاد الشام ضعيفة ومقسمة وبالأخص اتجاه حملة محمد علي باشا على بلاد الشام ومنعها أن تكون تحت قيادة إقليمية قوية عسكرياً ودينياً، وقد أظهر الموقف الأوروبي العسكري والسياسي أمصير بلاد الشام لا يقرر إلا بموافقة الدول الاستعمارية الكبرى.

⁽⁷²⁾ قرقوط. (1989م). ص:24.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر والمراجع العربية:

- 1- الحصري، ساطع. البلاد العربية والدولة العثمانية. ط:1، مصر: القاهرة، مطبعة الرسالة.
- 2- الخطيب، محمد كامل. (2003م). آخر أخبار المسألة الشرقية: ما يزال الرجل مريضاً. ط:1، سوريا: دمشق.
- 3- الدسوقي، محمد كمال (1976م). الدولة العثمانية والمسألة الشرقية. ط:1. مصر: القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر.
- 4- العظمة، عبد العزيز (2002م). مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها. ط:2، سورية: دمشق، دار الفكر.
- 5- الغنام، سليمان (1980م). قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (1811-1840م) في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا. ط:1، السعودية: جدة، نشر تامة.
- 6- الكيالي، عبد الوهاب . (1993م). الموسوعة السياسية. ج:6، ط:3، لبنان: بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 7- انيس، محمد . (1993م). الدولة العثمانية والشرق العربي (1514-1914م). ط:1، مصر: القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.

8- بركات، داوود . د.ت . البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتح الشام 1832م، مصر: القاهرة. المطبعة

الرحمانية.

9- برو، توفيق (1991م). العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908-1914م. ط:1،

سوريا: دمشق. دار طلاس للنشر

10-خوري، اميل - عادل إسماعيل. (1960م). السياسة الدولية في الشرق العربي 1789-

1958م. ط:1، ج:2. لبنان: بيروت. دار النشر للسياسة والتاريخ.

11-رافق، عبد الكريم. (1974م). العرب والعثمانيون 1516-1916م. ط:1. سوريا: دمشق.

مطابع أ ب الاديب.

12-رستم، أسد (1933م). الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، مجلد: 5 ،

الاوراق السياسية لسنة 1256هـ ، لبنان: بيروت. منشورات كلية العلوم والآداب.

13-سعيد، أمين. د.ت، الثورة العربية الكبرى. ج:1، مصر: القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

14-سلطان، علي (1987م). تاريخ سورية 1908-1918م نهاية الحكم التركي، ط:1، سوريا:

دمشق. طلاس للدراسات والنشر .

15-سلطان، علي (1987م). تاريخ سورية - حكم فيصل بن الحسين 1918-1920م، ط:1،

سورية: دمشق. طلاس للدراسات والنشر .

16-سمحات، قاسم. د.ت، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام(1804-1850م)،

د.م.

17- عامر، محمود علي. (2004م). تاريخ الامبراطورية العثمانية، دراسة تاريخية واجتماعية.

ط:1. سوريا: دمشق.

18- قدورة، زاهية (1985م). تاريخ العرب الحديث. ط:1، لبنان: بيروت. دار النهضة العربية.

19- قرقوط، ذوقان. (1989م). تطور الحركة الوطنية في سورية 1920-1939م، ط:1، سوريا:

دمشق، طلاس للدراسات والنشر.

20- كامل باشا، مصطفى (1909م). المسألة الشرقية، ط:2، ج:1، مصر: القاهرة، مطبعة اللواء.

21- كرد علي، محمد (1925-1928م). خطط الشام، ج:5، سورية: دمشق، مطبعة المجمع العلمي

العربي.

22- كرد علي، محمد (1925-1928م). خطط الشام، ج:3، سورية: دمشق، مطبعة المجمع العلمي

العربي.

23- لبيب، حسين. (1921م)، المسألة الشرقية. مصر: القاهرة، مطبعة الهلال.

24- موستراس، المعجم الجغرافي العثماني. (د.م - د.ت).

25- موسوعة السياسة (1990م). ط:3، ج:1، لبنان: بيروت، دار نعمة للطباعة.

26- نور الدين، زين. (1976م). الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة سورية ولبنان، لبنان:

بيروت. دار النهار.

27- وزارة المعارف السورية. تاريخ العرب الحديث من الفتح العثماني حتى بدأ اليقظة العربية، د.ت،

سوريا: دمشق، مطبعة الاستقلال.

ب - المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة:

- 1- السلطان عبد الحميد .(1991م). مذكرات السلطان عبد الحميد، ط:3، ترجمة: محمد حرب. لبنان: بيروت، دار القلم.
- 2- انطونيوس، جورج (1987م). تاريخ حركة القومية العربية. ط:1، ت: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس. لبنان: بيروت، دار العلم للملايين.
- 3- حتي، فيليب.(1959م). تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة: كمال اليازجي. ط:1. لبنان: بيروت. دار الثقافة.
- 4- حوراني، البرت .(1997م). تاريخ الشعوب العربية. ترجمة: كمال خوري. ط:1، لبنان: بيروت. ص:353.

غزنة في عصر الفتنة: سياسة السلطان مودود بن مسعود بين إرث الأب وتحديات البقاء (432-440هـ/1041-1048م)

الدكتورة: رجاء علي انجم قسم التاريخ (تاريخ عرب واسلام)
كلية الآداب والعلوم الانسانية - جامعة اللاذقية

المخلص:

يتناول هذا البحث سياسة السلطان مودود بن مسعود الغزنوي في سنوات حكمه السبع بين 432 و 440 للهجرة، وهي الفترة التي أعقبت مصرع والده مسعود على يد ثائري جيشه، ويسعى البحث إلى تفكيك طبيعة تلك السياسة التي اضطر فيها مودود إلى الموازنة بين إرث آبائه القائم على التوسع والفتوح، وبين واقع الدولة المتصدع الذي فرض عليه الانكماش والمدافعة عن حوزته، وقد توزع البحث على ثلاثة مباحث رئيسية، تناول المبحث الأول بنية الإرث الغزنوي بجوانبه العسكرية والاقتصادية والإدارية والجغرافية والمعنوية، وبيّن كيف تحول هذا الإرث من عنصر قوة إلى عبء ثقل في زمن الفتنة، فيما وقف المبحث الثاني عند التحديات الداخلية والخارجية التي واجهها مودود، وفي مقدمتها تمردات القادة الأتراك، والنزاع الأسري مع عمه عبد الرشيد، والزحف السلجوقي الذي أضاع خراسان وغيرها من الأقاليم الغربية، وحل استراتيجيات مودود في مواجهة تلك التحديات، والتي تنوعت بين القمع والترهيب تارة، والانسحاب المدروس والتركيز على المركز تارة أخرى، أما المبحث الثالث فتوقف عند وسائل التثبيت الشرعي وتدبير الملك التي اعتمدها مودود، من استناد إلى نسب محمود، واستمالة للعلماء والفقهاء، واستخدامه للألقاب والخطب والمظاهر السلطانية، وسياسة إدارية تعتمد على الموازنة بين الفرس والأتراك، مع استعمال العقوبات القاسية أحياناً والعفو أحياناً أخرى، وخلص البحث إلى أن مودوداً كان سياسياً محنكاً أدرك أن البقاء أولى من المغامرة، فحول الدولة من إمبراطورية مترامية الأطراف إلى مملكة إقليمية مركزها غزنة وبخارى، مؤقتاً بذلك السقوط الكامل للدولة، ورغم قصر حكمه إلا أنه يمثل نموذجاً فريداً لحاكم واجه أزمة بنيوية متكاملة، وحاول بإمكاناته المحدودة أن يمسك بزمام الملك في زمن كثرت فيه الفتن واضطربت فيه الولاءات.

الكلمات المفتاحية: غزنة، مودود بن مسعود، السلاجقة، الإرث الغزنوي، عصر الفتنة.

Ghazna in the Age of Sedition: The Policy of Sultan Mawdud ibn Mas'ud between the Legacy of the Father and the Challenges of Survival (432–440 AH / 1041–1048 CE)

Abstract:

This research examines the policy of Sultan Mawdud ibn Mas'ud al-Ghaznawi during his seven-year reign between 432 and 440 AH, a period that followed the murder of his father Mas'ud at the hands of army mutineers. The research seeks to deconstruct the nature of that policy, in which Mawdud was compelled to balance between the legacy of his forefathers, built upon expansion and conquests, and the fractured reality of the state, which imposed upon him retrenchment and the defense of his domain. The research is divided into three main sections: the first section addresses the structure of the Ghaznavid legacy in its military, economic, administrative, geographical, and moral dimensions, and demonstrates how this legacy transformed from an element of strength into a heavy burden in times of civil strife. The second section examines the internal and external challenges that Mawdud faced, foremost among them the revolts of the Turkish commanders, the familial conflict with his uncle 'Abd al-Rashid, and the Seljuk advance that cost him Khurasan and other western provinces, while analyzing Mawdud's strategies in confronting these challenges, which alternated between suppression and intimidation on one hand, and calculated withdrawal and concentration on the center on the other. The third section addresses the means of legitimization and royal administration that Mawdud employed, including his reliance upon his lineage to Mahmud, his cultivation of scholars and jurists, his use of titles, sermons, and regal displays, and an administrative policy based on balancing the Persians and Turks, while sometimes applying harsh punishments and other times granting pardons. The research concludes that Mawdud was a shrewd statesman who realized that survival was preferable to adventurism, thus transforming the state from a sprawling empire into a regional kingdom centered on Ghazna and Bukhara, thereby delaying the complete collapse of the state. Despite the brevity of his reign, he represents a unique model of a ruler who faced a comprehensive structural crisis and attempted, with his limited means, to hold the reins of power in an age rife with seditions and unsettled loyalties.

Keywords: Ghazna, Mawdud ibn Mas'ud, Seljuks, Ghaznavid Legacy, Age of Sedition.

المقدمة:

إن دراسة تاريخ الدول الإسلامية في مراحل الانهيار الداخلي تتطلب مقارنة موضوعية تبتعد عن الأحكام المعاصرة، وتنتظر إلى السياسة القديمة بمنطقها الخاص. ويتناول هذا البحث الموسوم بـ "غزنة في عصر الفتنة: سياسة السلطان مودود بن مسعود بين إرث الأب وتحديات البقاء (432-440هـ/1041-1048م)" أزمة الإمبراطورية الغزنوية بعد مقتل السلطان مسعود بن محمود سنة 432هـ على يد ثوار جيشه، وهي الحادثة التي كشفت هشاشة الدولة التي قامت على هيبة محمود وسيادة الجند الأتراك. وقد خلف مسعود ابنه مودود في ظروف بالغة الصعوبة، إذ واجه ثلاث مشكلات مترابطة: أولها ثقل الإرث الجغرافي الواسع الممتد من الهند إلى بحر قزوين (بحر الخزر وهو بحر داخلي) وثانيها تمرد القادة الأتراك الذين صاروا يتحكمون بالجيش ويتجربون على الملوك، وثالثها انقسام البيت الغزنوي بسبب نزاع مودود مع عمه عبد الرشيد، بالإضافة إلى الضغط السلجوقي المتزايد في الشرق الذي أدى إلى فقدان مدن كبرى مثل مرو وبلخ، تاركاً خراسان مكشوفة للعدو. ولحل تلك المعضلات، اتبع مودود سياسة عملية مزدوجة فعلى المستوى الداخلي، قمع الثوار بقسوة وكبح نفوذ القادة الذين طمعوا بالمشاركة في الحكم، وخارجياً، لجأ إلى غارات محدودة في الهند ليس بهدف التوسع بل لتوفير الغنائم التي يحتاجها الجند، وتقرب إلى العلماء لإضفاء الشرعية الدينية على حكمه، لكن العقبة الجوهرية كانت في نظام الأقطاع العسكري الذي ورثه عن جده، فقد تحول ذلك النظام إلى أداة قوة بيد الأمراء الذين أصبح ولاؤهم مرتبطاً بمصالحهم لا بالسلطان، مما أجبر مودود على التخلي عن سياسة التوسع التي اشتهر بها الغزنويون، واتجه إلى الانكماش والتركيز على حماية قلب المملكة في غزنة وبخارى، وهي الخطوة التي أغضبت بعض قادته لكنه اعتبر البقاء أهم من المغامرة بفقدان الملك كله. وعلى امتداد سبع سنوات، جسد مودود نموذج الحاكم الذي أدرك تحولات عصره، فانتقل بالدولة من مرحلة المد العسكري إلى مرحلة الدفاع عن البقاء، مستفيداً من هيبة اسم أسلافه ومن ذكائه السياسي في التعامل مع الأطراف المتصارعة، ورغم تناقض الروايات حول شخصيته بين الشجاعة والقسوة، وهو الاختلاف الذي يعكس تعقيد الظرف الذي عاشه، فلم تكن سنوات حكمه مجرد مرحلة عابرة، وإنما أصبحت مختبراً لفهم كيفية إدارة الدول الكبرى لأزماتها الوجودية، حين يصبح الانسحاب من بعض الجبهات ضرورة حتمية للحفاظ على الكيان، وهذا هو المحور الأساسي الذي سيعمل البحث على تحليله من خلال النصوص التاريخية المتاحة.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في كونه يتناول حقبة دقيقة من تاريخ الدولة الغزنوية، وهي سنوات الفتنة التي أعقبت مصرع السلطان مسعود، حيث تسلط الضوء على شخصية السلطان مودود الذي لم يحظَ بما يستحقه من عناية الباحثين رغم ما حملته سيرته من دروس في سياسة الأزمات، إذ يعدّ حكمه مختبراً تاريخياً نادراً لدراسة كيفية تعامل الحكام مع إرث الآباء في لحظات الانهيار، كما أن التركيز على سنوات سبع فقط يتيح رصد التفاصيل الدقيقة للقرارات السياسية والإدارية والعسكرية في زمن متسارع الأحداث، مما يكشف عن سنان التحول من حال التوسع والهيمنة إلى حال الانكماش والمدافعة.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى الكشف عن ملامح السياسة التي انتهجها السلطان مودود بن مسعود في مواجهة التحديات المتعددة التي عصفت بدولته، وذلك من خلال تحليل قراراته وتصرفاته إزاء القادة الأتراك والصراعات الأسرية والزحف السلجوقي والنزاعات الإقليمية، وصولاً إلى رسم صورة متكاملة لطبيعة حكمه وكيفية موازنته بين متطلبات الإرث الغزنوي وضرورات البقاء، كما يهدف إلى تبين أثر تلك السياسة على استقرار الدولة ونفوذها الجغرافي خلال سنوات حكمه القليلة، وما إذا كانت قد مهدت لانهيار لاحق أو أنها مثلت محاولة إصلاحية حقيقية حالت دون اندحار كامل، بالإضافة إلى السعي لفهم العوامل الذاتية والموضوعية التي صنعت شخصيته السياسية من خلال علاقته بوالده وجده.

مشكلة البحث:

تتطلب إشكالية البحث من سؤال محوري: كيف دبّر السلطان مودود بن مسعود أمر الملك بين عامي 432 و440هـ، وهو يواجه إرث آبائه وتحديات البقاء؟ ويتفرع عن هذا السؤال الرئيسي أسئلة فرعية محددة: ما طبيعة اضطراب الجند الذين قتلوا والده، وكيف استمال مودود قاداتهم وأخمد فتنتهم؟ وكيف تعامل مع زحف السلاجقة على خراسان، وما الذي حمله على الانسحاب من الأقاليم الغربية؟ وكيف استعان بالعلماء والفقهاء لتثبيت سلطانه؟ وكيف أثّرت سياسته في الخراج والإقطاع وأموال الدولة؟ وتكمن الإضافة العلمية في تقديم قراءة نقدية جديدة لسياسة مودود بوصفها تدبيراً للملك في زمن الفتنة، وليس انهياراً، معتمدة على المصادر الأولية لإعادة تقييم شخصيته بوصفه سلطاناً واجه تفكك البيت الغزنوي ودبره بحكمة.

السؤال الرئيسي:

كيف صاغ السلطان مودود بن مسعود سياسته الداخلية والخارجية في الفترة بين (432 - 440هـ) لمواجهة إرث أبيه وتحديات البقاء، وما مدى نجاح تلك السياسة في الحفاظ على كيان الدولة الغزنوية واستقرارها؟

الأسئلة الفرعية:

1. ما طبيعة التحديات الداخلية التي واجهها مودود عند توليه الحكم وكيف تعامل مع تمرد القادة الأتراك الذين تسببوا في مقتل أبيه؟
2. كيف أثر الزحف السلجوقي على الحدود الغربية وهل كانت سياسته دفاعية بحتة أم حملت بعض ملامح الهجوم المحدود؟
3. ما هو موقفه من النزاعات الأسرية التي أثارها عمه عبد الرشيد وأبناء عمومته وكيف حسمها؟
4. كيف وظف العلماء والفقهاء لتثبيت شرعيته وإلى أي حد كان الخطاب الديني حاضراً في تبرير قراراته؟
5. كيف أثرت سياسته على الأوضاع الاقتصادية كالغنائم والإقطاعات والخراج؟
6. ما هي الصورة التي خرج بها حكمه في مرآة المؤرخين وهل كانت سياسته امتداداً لإرث الغزنويين أم انقطاعاً عنه؟

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي بوصفه الإطار الأوسع، مع استثمار أدوات النقد لمرويات المصادر التي تناولت أخبار السلطان مودود، كتاريخ البيهقي وابن الأثير وابن الجوزي وابن مسكويه، كما يعتمد البحث على تتبع الأخبار المتناثرة وجمعها في سياق زمني متسلسل، ثم تحليلها تحليلاً سياسياً يراعي العلاقات السببية بين الأحداث، ويُستعان بالمقارنة بين الروايات المتضاربة للوصول إلى الترجيح بناءً على قرائن السياق، ويُولى البحث اهتماماً بالمنهج الوصفي عند عرض تفاصيل الوقائع الرئيسية تمهيداً لتحليلها على ألا يطغى الوصف، مع مراعاة الدقة وفهم المصطلحات السياسية كما كانت مستعملة في القرن الخامس الهجري.

المبحث الأول: بنية الإرث الغزنوي وأثره في رسم سياسة مودود

إن دراسة سياسة السلطان مودود⁽¹⁾ تستدعي بالضرورة تحليل الإرث المركب الذي تسلمه، إذ قامت الدولة على نظام الأقطاع وهيمنة الجند الأتراك، مما جعل ولاء القادة متذبذباً بين السلطان ومصالحهم، مع اتساع الرقعة وصعود الخطر السلجوقي وانقسام البيت الحاكم، مما أجبر مودود على التحول من التوسع إلى الانكماش والتركيز على حماية غزنة⁽²⁾، مكتفياً بغارات محدودة لتأمين موارد الجيش، لكنه ظل أسير نظام الأقطاع الذي حوّل القادة إلى أطراف متعددة الولاء. لعلّ أبرز ما ورثه مودود عن جده محمود بن سبكتكين (361-421هـ/971-1030م)⁽³⁾ هو ذلك النموذج الخاص في الحكم الذي جمع بين السطوة العسكرية والغطاء الديني، فقد أقام محمود دولته على ثلاث ركائز متشابكة: الجيش التركي، والغزوات الموسمية على بلاد الهند لجلب الأموال والعبيد والأحجار الكريمة، وإظهار نفسه كحامٍ للخلافة العباسية وهذا التالوث هو الذي منحه مكانة فريدة في التاريخ الإسلامي⁽⁴⁾، فكان أول من تلقب بالسلطان، سمّاه الخليفة القادر بالله بـيمين الدولة وأمين الملة، وخطب له على

(1) مودود الغزنوي (412-441هـ/1021-1049م): مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، تولى سلطنة غزنة سنة 432هـ/1040م بعد مقتل أبيه على يد ثوار الجيش، فعاد من حرب السلاجقة بخراسان، وقبض على عمه محمد وأبنائه وأعدمهم لاشتراكهم في قتل أبيه، ثم استقر في الحكم وافتتح حصوناً في الهند؛ ابن الوردي، عمر بن مظفر (ت: 749هـ/1349م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1996م، (ج1)، ص337.

(2) غزنة: مدينة عظيمة وولاية واسعة تقع في أقصى خراسان، وتشكّل الحد الفاصل بينها وبين الهند، وهي ذات خيرات وفيرة لكنّ بردها قارس جداً. وقد كانت طوال تاريخها معمورة بأهل العلم والدين، ونُسب إليها عدد لا يُحصى من العلماء، كما كانت موطناً لملوك بني محمود بن سبكتكين إلى أن انقرضوا؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: 626هـ/1229م)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ط2، 1995م، ج4، ص201.

(3) محمود بن سبكتكين: أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبي منصور سبكتكين، مؤسس السلطنة الغزنوية الفعلية وأشهر سلاطينها، تولى الحكم بعد وفاة والده سنة 387هـ بعد صراع مع أخيه إسماعيل، وتمكن من توحيد الدولة وفتح خراسان وسجستان، وامتدت فتوحاته إلى الهند حيث افتتح العديد من الحصون والقلاع، وكسر صنم سومنات الشهير سنة 416هـ، كما عرف بحسن سيرته وإحسانه إلى العلماء وتشييده للمدارس والمساجد، واستمر في الملك حتى وفاته بغزنة سنة 421هـ؛ ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت: 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ط1، 1900م، ج5، ص175-180.

(4) خليفة، حسن، الدولة العباسية قيامها وسقوطها، المطبعة الحديثة، القاهرة، ط1، 1931م، ص187-188.

المنابر⁽¹⁾، وذكرت المصادر أن محموداً حين غزا سومنات⁽²⁾ الشهيرة في الهند، لم يكن همه الغنيمة وحدها، بل كان يحرص على كسر الأصنام وإظهار شعار الجهاد، وأمر بإنشاء المساجد في المواقع التي افتتحها، وأرسل إلى الخليفة يخبره بالنصر⁽³⁾، وكتب الشعراء في مدحه أبياتاً تخلد تلك الغزوات، فمن ذلك قول بعضهم فيه:

أَظَلَّتْ شَمْسُ مَحْمُودٍ عَلَى أَنْجُمِ سَامَانَ
وَأَضْحَى آلُ بَهْرَامٍ عَبِيداً لِابْنِ خَاقَانَ⁽⁴⁾

وكان لهذا البعد الديني أثر كبير في تضخيم هيئته، حتى صار اسمه يذكر مع الفاتحين العظام، غير أن هذا الإرث المجيدي حمل خلفاءه توقعات لا تطاق، إذ صار الناس ينظرون إلى السلطان الغزنوي على أنه لا بد أن يكون غازياً منصوراً، فاتحاً مبيناً، وهذا ما واجه مودود بصعوبة بالغة، لأنه لم يعد بإمكانه أن يغزو الهند في كل عام كما كان جده يفعل⁽⁵⁾، فقد انشغل بالثورات الداخلية والزحف السلجوقي، كما أن خزانته لم تكن تسمح بتجهيز حملات كبيرة، فضلاً عن أن الجيش الذي كان يرافقه في تلك الحملات قد تغير ولاؤه.

ومن هنا يمكن إدراك أن إرث الجهاد المحمودي لم يكن نعمة لمودود بقدر ما كان نقمة، لأنه قيده بصورة مثالية للسلطان لا تتناسب مع واقع الدولة المتهاوي، فقد حاول مودود أن يحاكي جده

(1) ابن العمراني، محمد بن علي (ت: 580هـ/1184م)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تح: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1 2001م، ص184.

(2) سومنات: موضع على المحيط الهندي في شبه جزيرة كاثياوار بالكجرات، وصل إليها السلطان محمود الغزنوي وفتحها أوائل القرن الخامس الهجري، كان بها صنم كبير يتوجه إليه الهندوس؛ العمري، أحمد بن يحيى (ت: 749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1423هـ، ج3، ص42.

(3) الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1985م، ج17، ص485-488.

(4) ابن العماد، عبد الحي بن أحمد (ت: 1089هـ/1679م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1986م، ج4، ص470.

(5) الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1348م)، العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2009م، ج2، ص245.

في غزواته الهندية، فشن حملة على بعض مناطق ملتان⁽¹⁾ وسيستان⁽²⁾، غير أن تلك الحملات كانت محدودة الأثر، ولم تحقق فتوحات كبيرة، ومن ثم فإن إرث محمود من حيث البعد الديني والجهادي شكل عبئاً ثقیلاً على مودود، لأنه اضطر إلى التظاهر بمواصلة النهج مع عجزه عن بلوغ مداه، وقد تجلّى ذلك العجز في محاولته الثانية حين وجه جيشاً إلى تخوم الهند، فعاد الجيش ولم يُحقّق النصر المرجو، مما أثار حفيظة القادة الذين كانوا ينتظرون الغنائم، فكانت تلك الحملات سبباً في زيادة التوتر بينه وبين جنده، لا في تهدئته⁽³⁾.

أما الإرث الثاني الذي ورثه مودود عن أبيه مسعود⁽⁴⁾، فهو نظام الحكم فقد تولى الحكم بعد مقتل أبيه على يد ثوار الجيش، ولم يرث نظاماً سياسياً مستقراً بل ورث أزمة نظام، إذ كان مسعود قد ابتعد عن سياسة جده محمود في التوازن بين القادة، وأغرق الدولة في حروب أهلية مع السلاجقة حتى أصبح الجيش التركي عمود الملك⁽⁵⁾. كما أن مودود كان صغيراً حين تولى الحكم، مما جعله يفتقر إلى الخبرة الكافية في التعامل مع القادة الأتراك الذين توج تمردهم بمقتل أبيه، فأدرك أن الجيش لم يعد أداة مطيعة بل لاعباً مستقلاً في المعادلة السياسية، لذلك كانت أولى خطواته استرضاء الجيش وتقريب كلمته، عبر تولية بعض القادة على نواح مهمة ومنحهم الإقطاعات، وإثارة الخلافات بين كبارهم لإضعاف نفوذهم، ونجح في كسب بعضهم لكنه لم يستطع السيطرة الكاملة على الأمور، ويؤكد ابن

(1) ملتان: مدينة عظيمة منيعة في أقصى بلاد الهند، كانت دار حج الهنود وعبادتهم، وفيها قبة الصنم الكبير الذي يحجون إليه ويتقربون إليه بأموال طائلة، وصفت بأنها دار الملك ومجمع العسكر؛ القزويني، زكريا بن محمد (ت: 682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ط1، 1960م، ص121-123.

(2) سيستان: بلد جليل، له أكوار كثيرة، تضاهي مدينة خراسان، وهي منقطعة متصلة ببلاد السند، والطريق إليها في صحارى وقفار، وأول من نزلها من الولاة معن بن زائدة الشيباني؛ المنجم، إسحاق بن الحسين (ت: 625هـ/1228م)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ، ص80.

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، ط1، 1979م، ج4، ص506.

(4) مسعود الغزنوي (ت: 432هـ/1040م): مسعود بن محمود بن سبكتكين، تولى السلطنة سنة 422هـ/1030م بعد خلع الجند لأخيه محمد، وامتد ملكه إلى خراسان وغزنة والهند والسند والري وأصبهان، وافتتح قلاعاً في الهند، وقاّتل السلاجقة وأجلاهم عن خراسان، وعرف بالشجاعة والكرم وحب العلماء وله آثار عمرانية؛ البيهقي، ظهير الدين علي بن زيد (ت: 565هـ/1169م)، تاريخ بيهق، دار أقرأ، دمشق، ط1، 1425هـ، ص180.

(5) جوده، محمد صلاح، الدولة الغزنوية في المشرق الإسلامي، دار اسكرايب للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2025م، ص37.

الأثير أن مودوداً لم يستقر له ملك إلا بعد أن فرّق كلمة القادة بالاستئالة تارة وبالقمع تارة أخرى⁽¹⁾، وهو ما يدل على أن الجيش كان فاعلاً مستقلاً لا أداة طيعة، وأن ولاءه كان مرتبطاً بالمصلحة لا بالبيعة، كما ورث نزاعات أسرية، إذ كان مسعود قد صادر أملاك بعض إخوته وأبناء عمومته، مما خلق عداوات ظهرت بعد مصرعه، فتقدم عمه عبد الرشيد بن محمود (ت: 444هـ/1052م)⁽²⁾ مطالباً بالحكم مدعياً أحقيته على ابن أخيه الشاب، واستطاع الاستيلاء على بعض المدن وجمع جيش من الموالين، مما اضطر مودود لتوجيه حملة عسكرية ضده كلفته وقتاً وجهداً ومالاً، وألتهته عن مواجهة السلاجقة.

وهكذا كان الإرث الذي خلفه مسعود أشبه بميراث من الخصومات، إذ تحولت ولاية العهد والوزارة والأمراء الكبار إلى بنية متصدعة، جعلت مودود يواجه في آن واحد تمرد الجند، ونزاع الأسرة، وضعف الخبرة الشخصية، وهو ما حدد ملامح سياسته في سنوات حكمه السبع المضطربة، والجانب الثالث من الإرث الغزنوي هو البنية الاقتصادية والإقطاعية، إذ كان الاقتصاد الغزنوي في عهد محمود يقوم على ركيزتين أساسيتين هما الغنائم⁽³⁾ الهندية والخراج⁽⁴⁾ الوارد من الأقاليم الزراعية كخراسان

(1) ابن الأثير، علي بن محمد (ت: 630هـ/1232م) الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997م، ج8، ص79.

(2) عبد الرشيد بن محمود بن سبكتين: من ملوك الدولة الغزنوية، حبسه ابن أخيه السلطان مودود في قلعة ميدين بطريق بست، وبعد وفاة مودود ببيع بالخلافة ولقب بشمس الدين أو جمال الدولة، لكنه كان ضعيفاً قليل الحيلة فلم يطل عهده، إذ قتله رئيس حبابه؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص80.

(3) الغنائم: جمع غنيمة وهي مأخوذة من الغنم وتعني الفوز والظفر بالشيء، وهي ما أخذ من مال عند مقاتلة ومحاربة الأعداء على سبيل الانتصار والغلبة بقتال وركوب خيل ونحوها، وقد شرعها الله عز وجل وخص بها أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: 711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ١٤١٤هـ، ج12، ص446؛ التيناوي، مها محمد علي، ما ملكت أيماكم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2011م، ص148-149.

(4) الخراج: نوع من الضرائب السنوية التي تُفرض على الأراضي، خاصة الأراضي التي تم فتحها بالقوة، وتُجمع لصالح بيت مال المسلمين وتُصرف على مصالحهم العامة، ويختلف هذا النظام الضريبي عن الزكاة التي تُفرض على الأفراد والمال، إذ إن الخراج ضريبة مالية على الأرض نفسها، وقد أسس الخليفة عمر بن الخطاب نظام الخراج كاجتهاد إداري لتنظيم جباية الأموال من الأراضي التي لم تقسم بين الفاتحين، كأرض العراق والشام ومصر؛ الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت: ٨١٦هـ/1413م)، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ، ص98؛ النيجيري، عبدالله أبوبكر أحمد، مفهوم الخراج في الفقه الإسلامي، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي، العدد23، 2021م، ص842-845.

والري وأصبهان، وكان هذا النظام يتيح للسلطان توزيع الأموال على القادة والجند لضمان ولائهم⁽¹⁾، لكنه كان هشاً بطبيعته لاعتماده على التوسع المستمر، فإذا توقف الفتح أو تراجعت الغنائم واجهت الدولة أزمة مالية حادة، وهذا ما حدث في عهد مودود، إذ استولى السلاجقة على معظم الأقاليم الغربية المنتجة للخراج كخراسان وبلخ⁽²⁾ ومرو⁽³⁾، وتوقفت الغزوات الهندية الكبيرة لانشغال الجيش بالحروب الأهلية والدفاع عن الحدود، فأصبحت الخزائن شبه خاوية، ولجأ مودود إلى سياسة تقشفية لم تألفها الدولة، فأقل العطايا والهبات للقادة والعلماء، لسد نفقات الجيش، وهكذا تحول الإرث الاقتصادي القائم على الوفرة إلى عائق أمام سياساته التقشفية⁽⁴⁾، ويؤكد هذا ما أورده البيهقي من أن خراج خراسان كان يُدرّ على الدولة أموالاً طائلة قبل الزحف السلجوقي، وهذا يدل على أن الاقتصاد الغزنوي كان مرهوناً بالفتح والخراج، وأن أي انقطاع فيهما كان ينعكس مباشرة على استقرار الدولة⁽⁵⁾.

أما الإرث الإداري فكان على جانب كبير من الأهمية، إذ أن الدولة الغزنوية قد ورثت نظاماً ديوانياً متطوراً من السامانيين والبويهيين، يتضمن دواوين للجيش والخراج والإنشاء والرسائل، وكانت هذه الدواوين تدير شؤون الدولة بدقة، ولها سجلات ودفاتر تحفظ أسماء الجند ومقدار أعطياتهم، وتحصي الأموال الواردة والصادرة⁽⁶⁾، فبعد أن استقر مودود في غزنة قام بالإبقاء على كثير من

(1) درويش، عبد الستار مطلق، السلطان محمود الغزنوي سيرته ودوره السياسي والعسكري في خراسان وشبه القارة الهندية 361-421هـ، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2009م، ص146-147.

(2) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، من أجل المدن بها، وأكثرها غلة، وقد افتتحها الأحنف بن قيس في أيام عثمان بن عفان، وينسب إليها خلق كثير، منهم الحسن بن شجاع، المحدث المشهور؛ الدينوري، أحمد بن داود (ت: ٢٨٢هـ/894م)، الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1960م، ص20.

(3) مرو: مدينة كبيرة بناها ذو القرنين، وفيها أبراج كثيرة وكانت مقر الأكاسرة، وليس في خراسان كلها مدينة لها حسن سوقها، وخارجها يؤخذ على المياه، يرتفع منها القطن الجيد، والثياب الحرير. ينظر: مجهول (ت: ٣٧٢هـ/983م)، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2002م، ص118.

(4) الأصفهاني، عماد الدين، تاريخ دولة آل سلجوق، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2022م، ص11؛ الشيلالي، أسامة سعد علي، الحياة الاقتصادية في الدولة الغزنوية (351هـ-582هـ/962م-1186م)، المجلة الليبية العالمية، العدد64، 2022م، ص1-19.

(5) البيهقي، محمد بن الحسين (ت: 470هـ/1077م)، تاريخ البيهقي، تر: يحيى الخشاب، صادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1999م، ص491-495.

(6) الغويل، حنان العجيل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، مجلة أبحاث بكلية الآداب جامعة سرت، العدد15، العدد1، 2023م، ص71-86.

الوزراء والكتاب الذين كانوا يعملون في عهد أبيه، ومنهم بعض الذين شاركوا في دواوين محمود، فكانوا بمثابة الذاكرة الإدارية للدولة، وهذا يدل على أن مودود أدرك أهمية الاستمرارية الإدارية، فحاول استغلال تلك الخبرة في تدبير أموره، ومع ذلك فإن هذه الميزة الإدارية لم تكن كافية لإنقاذ الدولة من أزمتها، لأن الإدارة وحدها لا تستطيع تعويض غياب الجيوش أو نقص الأموال فالإرث الإداري من جهة يمنح الدولة الاستمرارية وال ضبط، ومن جهة أخرى يكشف عن حجم التراجع المالي بوضوح، ويضع السلطان أمام خيارات لا مفر منها.

كما لا بد من الإشارة إلى الإرث الجغرافي، وهو اتساع الرقعة التي كانت تحت سيطرة الغزنويين، والتي كانت تمتد من تخوم الهند شرقاً إلى أصفهان والري غرباً، ومن كاشغر شمالاً إلى بحر العرب جنوباً، وهذه المساحة الشاسعة كانت في وقت الازدهار مصدر قوة، لأنها كانت تؤمن الكثير من المدن الغنية والطرق التجارية⁽¹⁾، ولكنها في وقت الضعف تحولت إلى عبء ثقل، إذ أصبح الدفاع عن كل تلك الأطراف مستحلباً، خاصة مع وجود العدو السلجوقي في الغرب، والثورات الداخلية في الوسط، ويمكن القول إن السلطان مودود أدرك استحالة الحفاظ على تلك الإمبراطورية بكاملها، فاتخذ قراراً استراتيجياً بالانسحاب من بعض الأقاليم والتركيز على قلب الدولة، وهو ما تجلى في تخليه عن الدفاع عن أصفهان والري أمام السلاجقة، وركز جهوده على غزنة وبخارى⁽²⁾، وهذا القرار كان خروجاً صريحاً عن إرث التوسع الذي أسسه محمود واستمر به مسعود، ولكنه كان قراراً عقلانياً في سياق المرحلة، لأن استمرار المحاولة للاحتفاظ بكل شبر كان سيؤدي إلى خسارة الجميع.

المبحث الثاني: التحديات الداخلية والخارجية في عصر الفتنة واستراتيجيات المواجهة

تولى مودود بن مسعود الحكم في ظرف صعب، إذ كانت الدولة الغزنوية تعاني من تصدع داخلي واضح، إذ واجه تحديات متعددة في وقت واحد تمثلت بتمرد القادة الأتراك، وزحف السلاجقة على الأقاليم الغربية، وخلافات أسرية داخل البيت الغزنوي، فوفاة والده كانت مفاجئة ولم يتمكن من الاستعداد لتلك الأزمات مسبقاً. لذلك كانت سياساته قائمة على ردود فعل سريعة أكثر منها خطأً مدروسة، لكنه أظهر بعض الوعي السياسي في اختياره لأقل الخيارات ضرراً، فقد واجه السلطان

(1) الغويل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، ص 71-86.

(2) محمد، نورا عنتر، سلطة الشوانكاريين السياسية نشأة الإمارة وتطورها وسقوطها، مجلة الدراسات العربية، المجلد 51، العدد 5، 2025م، ص 3085-3104.

مودود بن مسعود تحدياً داخلياً هائلاً تمثل في مقتل والده على يد عمه محمد وابن عمه أحمد، فذكرت المصادر أنه تم الاتفاق بينهم على قتل مسعود ليصفو لهم الملك فقتلوه⁽¹⁾، مما أوجد فراغاً في السلطة وهزّ أركان الدولة، وتضطرب الروايات في تحديد المسؤول عن مقتل مسعود؛ فبينما يُحمّل ابن الأثير عمّه محمداً وابن عمه أحمد تبعة التدبير، تُشير روايات أخرى إلى أن الجند أنفسهم كانوا المحرّضين حين امتنع مسعود عن عطاياهم، وهذا الاضطراب في الإسناد يكشف عن أزمة أعمق من مجرد جريمة قتل؛ فهو تصدّع في ولاء الجند الذي كان عمود الملك الغزنوي. وترجيح كون القتل نتيجة تمرد عسكري لا مؤامرة أسرية بحثة يجد سنداً في تتابع الأحداث، إذ لم يستقر لمودود ملك إلا بعد استمالة القادة وتقريب كلمتهم، مما يدل على أن الجند كانوا الفاعل الحقيقي في المعادلة السياسية، لا أداة طيعة بيد الأسرة الحاكمة يذكر ذلك ابن الأثير بالقول: "فلما قتل الملك مسعود وصل الخبر إلى ابنه مودود، وهو بخراسان، فعاد مجدداً في عساكره إلى غزنة ليسترد الملك ويؤدب المعتدين، وبعد معركة فاصلة تصاف هو وعمه محمد، ثم انهزم محمد وعسكره وقبض عليه وعلى ولده أحمد، وأنوشتكين الخصي البلخي، وابن علي خويشاوند، فقتلهم وقتل أولاد عمه جميعهم"⁽²⁾، مما مكّنه من إعادة الاستقرار إلى مملكته، ولكن التحديات لم تتوقف عند هذا الحد، بل واجه مودود تهديداً آخر من أخيه مجدود⁽³⁾، إذ أن أباه كان قد سيره إلى الهند سنة 426هـ/1034م، فأظهر مجدود الخلاف على أخيه بسيطرته على ملتان ولهور وجمع العساكر، فاضطر مودود إلى ندب جيش ليمنعوه ويقاقلوه⁽⁴⁾، غير أن القدر تدخل بحلّ تلك الأزمة، إذ توفي مجدود بلهاور⁽⁵⁾، مما أراح مودود من حرب أهلية وشيكة.

وهكذا، ورغم هذه التحديات الداخلية الموجهة التي بدأت بمقتل والده وانتهت بتمرد أخيه، وبرز تحدّي أسري أخطر، تمثل في مطالبة عمه عبد الرشيد بن محمود بالسلطة، وكان هذا الأخير قد

(1) الحسني، عبد الحي بن فخر الدين (ت: 1341هـ/1923م)، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ج1، ص74.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص18.

(3) مجدود بن مسعود الغزنوي (ت: 435هـ/1043م): أمير من الأسرة الغزنوية، ولد ونشأ في بلاط والده بغزنة، وقد ولّاه والده على لاهور وما فتحه محمود في الهند سنة 426هـ، فأحسن السيرة في ولايته، توفي في لاهور في عهد أخيه السلطان مودود بن مسعود، بعد أن أظهر الخلاف على أخيه؛ الحسني، نزهة الخواطر ج1، ص69.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص19.

(5) لهاور: أو لهور بضم أوله، وسكون ثانيه، والهاء، وآخره راء، مدينة عظيمة مشهورة من بلاد الهند؛ القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت: 739هـ/1338م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ، ج3، ص1212.

نجا من مقتلة مسعود واختبأ فترة، ثم ما لبث أن خرج وأعلن نفسه سلطاناً في بعض النواحي، وجمع حوله جيشاً من الأتراك والعرب والفرس⁽¹⁾، وقد أيدته بعض الأسر الغزنوية التي كانت ترى في عبد الرشيد الكبير السن والأكثر خبرة أفضل من ابن أخيه الشاب، واندلعت بينهما حرب أهلية استمرت أشهراً، وقد استعان كل منهما ببعض القبائل والولاة المخلصين، وتذكر المصادر أن عبد الرشيد استولى على مدينة كابل وما حولها، وقطع الخطبة باسم مودود في بعض المساجد، فقد طلب من الخليفة القائم بأمر الله (ت: 467هـ/1075م)⁽²⁾، أن يلقيه بسيف الله، فلقبه الأخير بجمال الدولة وكمال الملة وجلال الأمة شمس دين الله ومجد عباد الله، فهذا التحدي كان أخطر من تحدٍ عسكري عادي، لأنه يمسّ بشرعية الحكم ذاتها، ويقسم البيت الغزنوي إلى شطرين متقاتلين، وتضطرب روايات الزحف السلجوقي بين مصادر متأخرة كابن الأثير وابن خلدون، ومصادر معاصرة كالبيهقي؛ إذ تغلب على الأولى نزعة تعظيم السلاجقة، بينما تكشف قراءة أدق أنهم كانوا قبائل متنافرة استغلت فراغ خراسان، وبناءً على ذلك لم يكن انسحاب مودود من الأقاليم الغربية جبنًا، بل تقديراً لموازين القوى إذ أدرك أن جيشاً منهاكاً بالفتن لا يقوى على مواجهة زحف متعدد الجبهات، فاختار تركيز قوته في قلب الدولة على أن يخسرها كلها، ويؤكد هذا الترجيح استمرار الدولة الغزنوية بعده قرابة قرن، وهو ما لا يتأتى لو كان انسحابه انهياراً.

وكان مودود في موقف صعب، إذ إن قتاله لعمه قد يصوره في أعين الناس كمعتدٍ على حرمة القرابة، وتركه قد يضيع ملكه، لكن مودوداً اختار الحسم، فالتقى بجيش عمه في معركة طاحنة عند سفح جبال غزنة، وقد انتهت بانتصار مودود وأسر عمه عبد الرشيد، وهنا اختلفت الروايات، فبعضها يقول إنه عفا عنه وسجنه، وبعضها يقول إنه قتله، ولكن الراجح أنه قتله أو أودع السجن حتى وفاته⁽³⁾، وتكشف روايات النزاع بين مودود وعمه عبد الرشيد عن تناقض بين المصادر؛

(1) ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد (ت: 723هـ/1323م)، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تح: محمد الكاظم، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ط1، 1416هـ، ج4، ص349.

(2) القائم بأمر الله: عبد الله بن أحمد القادر بالله بن المقتدر العباسي، أحد الخلفاء العباسيين في العراق، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 422هـ/1031م، بعهد منه، وكان ورعاً، عادلاً، وفي أيامه كانت فتنة البساسيري؛ الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت: 463هـ/1070م)، تاريخ بغداد، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ج11، ص47.

(3) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت: 733هـ/1333م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1423هـ، ج26، ص76-78.

فبعضها يصوّر عبد الرشيد ملكاً مبيعاً في بغداد، وبعضها يجعله ثائراً خارجاً على ابن أخيه، وآخر يذكر أنه قُتل في السجن بعد أن أُمن، وهذا التضارب يستدعي نقداً يوازن بين الروايات في ضوء مصالح روايتها، والأرجح أن عبد الرشيد كان يمثل شرعية خلافة بغداد التي سعى مودود إلى انتزاعها، فكان الصراع صراع شرعيتين لا مجرد خلاف أسري، ويؤكد هذا أن مودوداً لم يقتل عمه انتقاماً، بل لأنه أدرك أن بقاءه مرهون بإزالة كل منافس للسلطة، حتى لو كان من أهل بيته، وهو ما يفسر عزله اللاحقة واعتماده على مواليين لا قرابة، وهذا القرار وإن كان قد حقق لمودود السيطرة على الملك وحيداً، إلا أنه زاد من عزلة الأسرة الحاكمة حوله، إذ أصبح لا يثق بأحد من أقاربه، وهم بدورهم أصبحوا لا يثقون به، مما جعله يعتمد على غرباء من القادة والوزراء، وهؤلاء لم يكونوا في الغالب أوفياء بالدرجة الكافية، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم كوكلاء لا كشركاء، ومن ثم فإن هذا التحدي الأسري أوقعه في فخ الانفراد بالملك دون أن يحيط نفسه ببطانة قوية من أهل بيته، أما خارجياً، فكان الخطر السلجوقي هو الأكبر والأعظم، إذ كان السلاجقة قد بسطوا نفوذهم على معظم خراسان بعد هزيمة مسعود في معركة دندانقان سنة 431هـ/1040م⁽¹⁾، واستولوا على مدن كبرى كمر وبلخ ونيسابور.

وبعد وفاة مسعود واندلاع الفتن الداخلية، وجد السلاجقة الفرصة سانحة للتوسع، فزحفوا نحو مدن الجبال كالري وأصفهان وهمدان، وهددوا قلب الدولة الغزنوية في غزنة وبخارى، بل إن طغرلبيك السلجوقي (ت: 455هـ/1063م)⁽²⁾ كان يعد العدة لغزو غزنة ذاتها، مما أثار هلع أهلها، وحاول مودود مواجهة هذا الخطر باستراتيجيتين: عسكرية تمثلت في إعادة تنظيم جيشه وتوجيه حملة نحو مرو، لكنها فشلت فشلاً ذريعاً بسبب تكتيكات السلاجقة السريعة، مما زاد من إحباط قادته، ودبلوماسية

(1) معركة دندانقان: جرت بالقرب من مدينة مرو، بين السلاجقة بقيادة طغرل بك وأخيه جغري بك، والغزنويين بقيادة السلطان مسعود بن محمود، انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للغزنويين، مما أدى إلى فقدانهم لملك خراسان وبلاد ما وراء النهر، ومهد لقيام الدولة السلجوقية كقوة كبرى في المشرق الإسلامي؛ الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1348م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1993م، ج30، ص381.

(2) طغرلبيك: محمد بن ميكائيل بن سلجوق، أول ملوك الدولة السلجوقية، تولى الملك سنة 429هـ/1038م، وتميز بالحلم، وهو الذي ردّ ملك بني العباس بعد أن اضمحلت دعوتهم في العراق، وأعاد الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد، وقتل البساسيري، وأزال دولة بني بويه، وتزوج من ابنة الخليفة السبكي، عبد الوهاب بن تقي (ت: 771هـ/1370م)، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1413هـ، ج5، ص248.

تمثلت في مراسلة الخليفة العباسي القائم بأمر الله في بغداد ومحاولة استمالته ضد السلاجقة، لكن تلك المراسلات لم تحقق نتائج ملموسة، لأن الخليفة كان مشغولاً بصراعاته الداخلية مع البويهيين، ولم يكن يملك جيوشاً ليرسلها لنجدة الغزنويين، وبسبب وهن الجيش الغزنوي وضعف الدبلوماسية، اضطر مودود إلى الانسحاب من معظم الأقاليم الغربية والتركيز على حماية غزنة والهند⁽¹⁾.

واجه مودود مشكلة بنيوية في جيشه التركي، الذي كان قوامه جنوداً مرتزقة تربطهم بالسلطان مصلحة مادية لا ولاء دينياً أو قومياً، إذ أن ذلك الجيش كان يتألف من محاربين جدد ينتظمون بين أونة وأخرى، وتبعاً لسير المعارك وطلباً للارتزاق والمغانم، مما يؤكد أن الرابطة بين الجند والسلطان كانت قائمة على العطاء المادي لا على الولاء الثابت، فقد ورث مودود جيشاً منقسماً على نفسه، تتناحر فيه فصائل القادة الذين أظهرُوا ولاءً ثم استقلالية، مما أثار ريبة السلطان، فحاول معالجة هذا الخل بسياسة التوزيع المتوازن للنفوذ، فكان يولي ويعزل ويحرّض القادة بعضهم على بعض، لكنه بالغ في تلك السياسة حتى زادت التوجس وعدم الاستقرار، وهو ما يعكس وعيه بخطورة الوضع. غير أن المشكلة كانت بنيوية؛ إذ تضاعفت الغنائم وتأخرت العطايا في عصره، فانحل عقد الجيش الذي يقوم على المصلحة المادية، وأضاع مودود وقته وجهده في إرضاء القادة وإخضاعهم، مما استنزف طاقته وأضعف الدولة في مواجهة أعدائها الخارجيين، دون أن يتمكن من إعادة اللحمة المفقودة لجيشه⁽²⁾.

وبالتالي يمكن القول أن حكم استمر مودود سبع سنوات اتسمت بعدم الاستقرار، إذ عانى من تحدٍ عميق ناتج عن مقتل والده مسعود على يد جنده، مما جعله يتخذ قرارات متسارعة، فزادت عزلة السلطان وترىص الأعداء به، ورغم ذكائه السياسي وحزمه العسكري، لم يستطع تكوين بطانة ثابتة أو جيشاً مخلصاً، إذ ظل يخوض معارك في حلبة مغلقة، وكل جبهة يفتحها تغلق أخرى، مما جعل سنوات حكمه أقرب لسلسلة من الأزمات المتلاحقة، والحقيقة أن التحديات المتشابكة كانت تفوق طاقته، فالإرث الثقيل بالتناقضات، والموارد المحدودة، والجيش المتردد بين الطاعة والتمرد، شكلت

(1) أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت: 732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، د.ت، ج2، ص169-170.

(2) محمد، سوادى عبد؛ عليوي، ميسون خلف، الجيش الغزنوي طبيعته وتنظيماته، مجلة آداب البصرة، العدد56، 2011م، ص155-180.

مزيجاً استنزف جهده لكنه مع ذلك استطاع تأخير السقوط سبع سنوات، وهو إنجاز يحسب له في ظل تلك الظروف العصيبة.

المبحث الثالث: وسائل التثبيت الشرعي وتدبير الملك في ظل الانحسار

اعتمد مودود بن مسعود في تثبيت حكمه على مزيج من الوسائل الشرعية والسياسية، فاستمد شرعيته من نسبه الغزنوي وتوكيده على كونه حفيد الغازي محمود، واستمال العلماء والفقهاء ليكونوا سنداً له، فظهر كسياسي ماهر أكثر منه قائداً عسكرياً، لكن القيود التي حالت دون استكمال هذه السياسات، والتناقضات الناتجة عن تطبيقها في زمن الانحسار، حالت دون أن يتمكن من تحقيق استقرار دائم لملكه، فأولى وسائل التثبيت الشرعي التي اعتمدها مودود، وأكثرها ظهوراً هي توكيده على نسبه فهو ابن السلطان مسعود وحفيد السلطان محمود الغزنوي الذي قضى على دولة بني سامان⁽¹⁾، فقد ربط مودود شرعيته بإرث جده محمود، مستثمراً هيبة المؤسس في مجتمع يقدر الأنساب، لكن هذا الربط حملته أعباء توقعات كبيرة، إذ كان الناس يقارنونه بمحمود، وعندما فشل في مواجهة السلاجقة وتراجع عن بعض الفتوحات، تحول النسب من مصدر شرعية إلى أداة نقد، فاتهم بالضعف والخيانة، وقد أدرك مودود هذا المأزق، فحاول تخفيف حدته بخلق مشروعية جديدة مستقلة عن النسب، وهي استمالة العلماء والفقهاء والقضاة، وإضفاء صبغة دينية على سلطانه، فقد كان العلماء في ذلك العصر يمثلون ضمير المجتمع، وهم الذين يشرعون الطاعة، وكان لهم تأثير كبير في الرعية، خاصة في المدن الكبرى كغزنة وبخارى وبلخ⁽²⁾.

وبذل مودود جهداً في التقرب من العلماء، فخصص لهم الأوقاف، واستشارهم في أموره، وأفتوه بقتل عمه عبد الرشيد بوصفه باغياً، مما وفر غطاءً شرعياً لأفعاله وجعل مخالفه خارجين عن الدين، لكن هذا التحالف كان مكلفاً، إذ طالب العلماء بالعدل ورفضوا بعض إجراءاته كجمع الضرائب

(1) مقدم، سهام، مطبوعة بيداغوجية في مقياس المشرق الإسلامي ما بين القرنين 8-15 الميلادي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة البليدة، الجزائر، 2025م، ص23.

(2) بطاينة، محمد ضيف الله، الحركة العلمية في عصر الدولة الغزنوية (351-582هـ/962-1186م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 2006م، ص55-68.

بقسوة، مما وضعه في مأزق بين حاجته المالية وإرضائهم، وهكذا كانت العلاقة مع العلماء تبادلية غير مستقرة، مما قيد حركته في أوقات الأزمات وكشف حدود هذه الوسيلة الشرعية⁽¹⁾.

كما اعتمد مودود على وسيلة الألقاب والخطب والمظاهر السلطانية، وهي وسيلة قد تبدو شكلية، ولكنها في الواقع كانت جوهرية في ذلك العصر، حيث كان السلطان يقاس بهاء بلاطه، وكثرة حجابيه، وفخامة ألقابه، وطول خطبه، وقد ورث مودود عن أسلافه نظاماً دقيقاً للألقاب، كلقب "يمين الدولة" و"عضد الملة" و"سلطان الغزاة والمجاهدين"⁽²⁾.

حرص مودود على إضافة ألقاب كـ"ناصر الحق" و"منقذ الدين" و"شهاب الدولة"، وأمر بتداولها في الخطبة والرسائل، كما ضرب السكة باسمه في السنة الثالثة من حكمه لتأكيد نفوذه. غير أن هذه المظاهر ظلت هشّة لعدم استنادها إلى قوة مادية، وعانى من فجوة صارخة بين ألقابه العظيمة وضعفه الفعلي، خصوصاً مع تسرب أخبار هزائمه، وقد بالغ في المظاهر في أوقات الضعف لتعويض عجزه المادي بهيبة معنوية، لكنه كان يدرك أن ذلك لا يكفي، فظل يبحث عن وسائل أكثر فعالية لتدبير ملكه. ورغم محاولاته، ظلت هذه المظاهر قاصرة عن سد الفجوة بين الشكل والمضمون، مما هدد هيئته وزاد من هشاشة حكمه⁽³⁾.

والى جانب الوسائل الدينية والشكلية، اعتمد مودود على سياسة إدارية محكمة في تدبير الملك، تقوم على التوزيع الذكي للمناصب والإقطاعات، والموازنة بين ولاية الأمصار وقادة الأجناد، وقد كانت هذه السياسة من تراث الدولة الغزنوية، لكن مودوداً أضاف إليها بعداً جديداً، وهو التركيز على كبار الموظفين المدنيين من الفرس والكتاب، لأنهم كانوا أقل تمرداً من القادة الأتراك، وكانوا يحتاجون إلى السلطان لحماية مكانتهم، فقام بتولية عبد الرزاق بن أحمد الميمندي في العديد من المناصب الإدارية كما بمهارته القتالية فأرسله مودود إلى سجستان لاسترجاعها من السلاجقة⁽⁴⁾، أثارت سياسة مودود في تقريب الفرس على حساب الأتراك حفيظة القادة، بينما احتاج مودود لفرس الإدارة وأتراك

(1) الغويل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، ص 71-86.

(2) الحراني، هلال بن المحسن (ت: 448هـ/1056م)، رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1986م، ص 186-187.

(3) الغويل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، ص 71-86.

(4) محمد، بدر عبد الرحمن، رسوم الغزنويين ونظمهم الاجتماعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1987م، ص 91.

الحرب، فحاول موازنة صعوبة بين الجانبين بالهبات والإقطاعات، غير أن هذا التوازن لم يستقر وكشفت هذه الإشكالية عن عيب بنيوي في الدولة تمثل في الازدواجية بين المدنيين والعسكريين، وكل منهما يطمح في السيطرة، وفي زمن الضعف ضعف الحكم واشتدت الخصومات مما أدى إلى شلل القرار، وظل مودود رغم دهائه يقدم تنازلات متضاربة، مما زاد من هشاشة الدولة في مواجهة التحديات، واستمر هذا الصراع الإداري دون حل حاسم، مما أضعف الدولة وعجل بانهيارها، وفي الختام، يمكن القول إن وسائل التثبيت التي اعتمدها مودود كانت محدودة الأثر إذ لم تدم طويلاً، لكنه مع ذلك أبدى حنكة سياسية مكنته من إبقاء اسمه على المنابر والحفاظ على غزنة وبخارى، مانعاً الانهيار الكامل للدولة في زمن الفتن، وكان أبرز إنجازاته أنه نقل الدولة من مرحلة التوسع إلى مرحلة البقاء، فأعاد تعريف هوية الملك من الغزو إلى الدفاع، ومن كثرة الفتوح إلى ثبات العاصمة، وهو تحول فعلي في الممارسات وإن لم يكن واعياً في الخطاب، وقد مهد هذا التحول الطريق لخلفائه لتقبل واقع الحال والعمل في حدود الإمكان إذ لم يستطع السلاطين الغزنويين من بعده إعادة مجد دولتهم واستقلالها. وهكذا نجح مودود في تثبيت حكمه عبر موازنة دقيقة بين ما يملك وما لا يملك⁽¹⁾.

الخاتمة:

في ختام البحث حول غزنة في عصر الفتنة: سياسة السلطان مودود بن مسعود بين إرث الأب وتحديات البقاء، فقد تم التوصل إلى مجموعة من النتائج كان من أبرزها:

- أوضحت الدراسة أن مودوداً ورث عن أبيه مسعود دولة منهكة الجسد، لا دولة قوية كما يصورها بعض المؤرخين، فقد كان الإرث الذي تسلمه مليئاً بالتناقضات بين هبة الاسم ووهن البنين، إذ إن مسعوداً ترك لابنه جيشاً متمرداً، وخزانة شبه خاوية، وعدواً سلجوقياً على الأبواب، فلم يكن مودود وريث ملك مستقر، بل كان وريث أزمة مركبة.

- كشفت الدراسة عن أن البنية الاقتصادية الغزنوية القائمة على الغنائم والخراج كانت هشة بطبيعتها، فلما انقطعت الغزوات الكبرى وفقدت الأقاليم الغربية المنتجة للخراج، انهارت موارد الدولة، وكانت تلك إشارة على انتهاء عصر الوفرة وبداية عصر العسر، وهو ما فكك ولاءات الجند الذين كانت تربطهم بالسلطان مصالحهم المادية فحسب.

(1) الغويل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، ص73.

- بيّنت الدراسة أن النزاع الأسري مع عمه عبد الرشيد كان من أخطر التحديات التي واجهها مودود، لأنه قسم البيت الغزنوي إلى شطرين متقاتلين، وأضعف موقف الدولة أمام أعدائها الخارجيين، ورغم انتصار مودود في تلك المواجهة، إلا أنها زادت من عزلته، إذ أصبح لا يثق بأقاربه، وهم بدورهم أصبحوا لا يثقون به، مما جعله يعتمد على غرباء من الوزراء والقادة لم يكونوا أوفياء بالدرجة الكافية.

- توصلت الدراسة إلى أن مواجهة مودود للخطر السلجوقي كانت غير متكافئة، إذ إن جيشه كان منهكاً بالحروب الأهلية، والسلاجقة كانوا أسرع حركة وأكثر انضباطاً، مما جعل حملاته العسكرية في خراسان تفشل فشلاً ذريعاً، ودبلوماسيته مع الخليفة العباسي لم تحقق نتائج ملموسة، فكان الانسحاب من الأقاليم الغربية قراراً حتمياً فرضته طبيعة المرحلة، وإن أثار حفيظة الكثير من الأمراء الذين اتهموه بالجن.

- أظهرت الدراسة أن وسائل التثبيت الشرعي التي اعتمدها مودود، كالاستناد إلى نسب جده محمود الغزنوي واستمالة العلماء والألقاب السلطانية، كانت وسائل ناجحة جزئياً في منحه شرعية مؤقتة، لكنها ظلت هشة لأنها لم تستند إلى قوة مادية، وقد تحولت تلك الوسائل نفسها إلى أداة نقد ضده عندما قصر عن بلوغ ما بلغه جده، مما عكس تناقضاً بين المظهر والجوهر.

- كشفت الدراسة عن أثر الصراع بين العنصر الفارسي والعنصر التركي في بلاط مودود، حيث كان وزيره الفارسي يميل إلى سياسة التقشف والانكماش، بينما كان القادة الأتراك يميلون إلى الغزو والغنائم، وتأرجح مودود بين الفريقين أضعف حسمه وشل حركته، وجعله يتخذ قرارات غير مرضية للطرفين، مما يبين كيف أن الانقسامات داخل البطانة الحاكمة كانت عاملاً إضافياً في إعاقة تدبير الملك.

- خلصت الدراسة إلى أن مودوداً استطاع رغم قصر مدة حكمه أن يحول الدولة الغزنوية من إمبراطورية مترامية الأطراف إلى مملكة إقليمية مركزها غزنة وبخارى، وهو تحول جوهري في هوية الدولة، لم يكن انهزاماً بقدر ما كان وعياً بحقيقة المرحلة، وقد مهد هذا التحول الطريق لخلفائه لتقبل واقع الحال، مما أحر سقوط الدولة قرابة القرن، وهذا يعد أبرز إنجازاته السياسية رغم كل ما لحق سياسته من نقد وتجريح.

المصادر والمراجع

1. ابن الأثير، علي بن محمد (ت: 630هـ/1232م) الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997م.
2. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد (ت: 1089هـ/1679م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1986م.
3. ابن العمراني، محمد بن علي (ت: 580هـ/1184م)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تح: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1 2001م.
4. ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد (ت: 723هـ/1323م)، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تح: محمد الكاظم، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ط1، 1416هـ.
5. ابن الوردي، عمر بن مظفر (ت: 749هـ/1349م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1996م.
6. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، ط1، 1979م.
7. ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت: 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ط1، 1900م.
8. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: 711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
9. أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت: 732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، د.ت.
10. الأصفهاني، عماد الدين، تاريخ دولة آل سلجوق، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2022م.
11. النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت: 733هـ/1333م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1423هـ.
12. بطاينة، محمد ضيف الله، الحركة العلمية في عصر الدولة الغزنوية (351-582هـ/962-1186م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 2006م.

13. البيهقي، ظهير الدين علي بن زيد (ت: 565هـ/1169م)، تاريخ بيهق، دار اقرأ، دمشق، ط1، 1425هـ.
14. البيهقي، محمد بن الحسين (ت: 470هـ/1077م)، تاريخ البيهقي، تر: يحيى الخشاب، صادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1999م.
15. التيناوي، مها محمد علي، ما ملكت أيمانكم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2011م.
16. الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت: ٨١٦هـ/1413م)، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ.
17. جوده، محمد صلاح، الدولة الغزنوية في المشرق الإسلامي، دار اسكرايب للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2025م.
18. الحرائي، هلال بن المحسن (ت: 448هـ/1056م)، رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1986م.
19. الحسني، عبد الحي بن فخر الدين (ت: 1341هـ/1923م)، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.
20. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: 626هـ/1229م)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ط2، ١٩٩٥م.
21. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت: 463هـ/1070م)، تاريخ بغداد، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.
22. خليفة، حسن، الدولة العباسية قيامها وسقوطها، المطبعة الحديثة، القاهرة، ط1، 1931م.
23. درويش، عبد الستار مطلق، السلطان محمود الغزنوي سيرته ودوره السياسي والعسكري في خراسان وشبه القارة الهندية 361-421هـ، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2009م.
24. الدينوري، أحمد بن داود (ت: ٢٨٢هـ/894م)، الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1960م.
25. الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، ١٩٨٥م.
26. الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1348م)، العبر في خبر من غير، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1431هـ.

27. الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1348م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1993م.
28. السبكي، عبد الوهاب بن نقي (ت: 771هـ/1370م)، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1413هـ.
29. الشيلابي، أسامة سعد علي، الحياة الاقتصادية في الدولة الغزنوية (351هـ-582هـ/962م-1186م)، المجلة الليبية العالمية، العدد64، 2022م.
30. العمري، أحمد بن يحيى (ت: 749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1423هـ.
31. الغويل، حنان العجيل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، مجلة أبحاث بكلية الآداب جامعة سرت، العدد15، العدد1، 2023م.
32. القزويني، زكريا بن محمد (ت: 682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ط1، 1960م.
33. القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت: 739هـ/1338م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجبل، بيروت، ط1، 1412هـ.
34. مجهول (ت: 372هـ/983م)، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2002م.
35. محمد، بدر عبد الرحمن، رسوم الغزنويين ونظمهم الاجتماعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1987م.
36. محمد، سوادى عبد؛ عليوي، ميسون خلف، الجيش الغزنوي طبيعته وتنظيماته، مجلة آداب البصرة، العدد56، 2011م.
37. محمد، نورا عنتر، سلطة الشوانكاريين السياسية نشأة الإمارة وتطورها وسقوطها، مجلة الدراسات الدراسات العربية، المجلد51، العدد5، 2025م، ص3085-3104.
38. مقدم، سهام، مطبوعة بيداغوجية في مقياس المشرق الإسلامي ما بين القرنين 8-15 الميلادي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة البليدة، الجزائر، 2025م.
39. المنجم، إسحاق بن الحسين (ت: قبل 4هـ/625م)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ.

40. النيجيري، عبدالله أبوبكر أحمد، مفهوم الخراج في الفقه الإسلامي، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي، العدد 23، 2021م.

أثر الحروب الداخلية والخارجية على حركة التجارة الداخلية في مصر والشام خلال العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)

بحث مُقدّم من الطالبة:

سناء محمود فياض بلال

إشراف الأستاذ الدكتور:

خليل الحسين

1448هـ / 2026م

مقدمة:

شكّل العصر المملوكي مرحلة تاريخية متميزة في تاريخ الشرق الأدنى العربي الإسلامي، فقد تداخلت فيه عناصر القوة العسكرية مع الازدهار الاقتصادي الناجم عن التحكم في طرق التجارة العالمية. نجد أن هذا الواقع السياسي واجه سلسلة من الهزات العنيفة طوال

العصر المملوكي تمثلت في جبهتين، جبهة داخلية من الاضطرابات والتمردات المستمرة وأيضاً ثورات العربان التي هددت الامن، وجبهة خارجية في مواجهة مصيرية مع قوى كبرى كالمغول والصليبيين ثم البرتغاليين والعثمانيين، لم يكن هذا المشهد العسكري والسياسي بمعزل عن الوضع المعيشي إذ انعكس إلى صميم الحياة الاقتصادية، وتمثل في انكماش حركة التجارة الداخلية وتخريب الأسواق المحلية واضطراب في حركة القوافل وهو ما تحاول الدراسة رصده وتحليله بناءً على المعطيات التاريخية.

الإشكالية:

تكمن مشكلة الدراسة في محاولة تحديد مدى عمق التأثير الذي خلفته الاضطرابات الداخلية والحروب الخارجية على استقرار الاقتصاد التجاري الداخلي في العصر المملوكي، وقد ظهرت هذه الإشكالية في عدد من التساؤلات التالية:

- 1- كيف أدت الاضطرابات الداخلية والتمردات في تدمير بنية الأسواق وطرق القوافل التجارية؟
- 2- ما هي الآثار الاقتصادية المباشرة التي خلفتها الحروب الخارجية على خطوط الامداد السلعي وحركة الأسواق في الداخل؟
- 3- إلى أي مدى تسببت الإجراءات التي اتخذها السلاطين لتمويل الحروب والتمردات في تدهور النظام النقدي؟

أهمية البحث:

تتبع أهمية البحث في رفد المكتبة التاريخية بدراسة متخصصة تربط التاريخ العسكري بالأنثروبولوجيا الاقتصادية وتاريخ الأسواق، بعيداً عن السرد السياسي البحت للأحداث، وفي

تقديم نموذج تحليلي لكيفية تأثير الأزمات الأمنية والسياسية سواء كانت تمردات داخلية أم تهديدات خارجية على الأنظمة الاقتصادية والمالية للدول في العصور الوسطى، وإيضاح العلاقة الطردية بين الاستقرار السياسي والنمو التجاري.

أهداف البحث:

يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف التالية: بما أن البحث هو محاولة لفك الروابط الداخلية والخارجية ومعرفة تأثيرها على الأسواق، فقد تحتم رصد مظاهر التخريب والاضطراب التي أصابت الأسواق والمراكز التجارية الداخلية نتيجة التمردات وثورات العربان، إضافة إلى تتبع مسارات القوافل التجارية الداخلية وبيان حجم المخاطر التي تعرضت لها نتيجة تراخي القبضة الأمنية أثناء الحروب، أيضاً تحليل السياسات المالية السلطانية المتخذة وقت الأزمات من احتكار وتغيير عيار العملة والمصادرات وأثر هذه السياسات على التجار المحليين، وأخيراً الموازنة والربط التكاملي بين حجم الضرر الناتج عن الاضطرابات الداخلية والضرر الناتج عن الاضطرابات والتهديدات الخارجية ومعرفة مدى تأثيرها على حركة الاسواق.

منهجية البحث:

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي والنقدي وذلك من خلال جمع المادة التاريخية واستخراج النصوص الاقتصادية الواردة في مصادر العصر المملوكي وتحليل ونقد وتفكيك هذه النصوص وربط الحوادث العسكرية بالظواهر الاقتصادية المصاحبة لها لفهم آليات التأثير والتأثر.

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات الأدبية الحديثة التي تناولت التاريخ المملوكي وعلاقاته، غير أن هذه الدراسات من قبل الباحثين المعاصرين تباينت في معالجتها للمتغيرات السياسية والاقتصادية

وهو ما يقتضي تصنيفها ومراجعتها لتحديد الفجوة البحثية التي تسدها الدراسة الحالية ومن ضمن هذه الدراسات دراسة للكاتبه غيثاء نافع في كتابها العلاقات العثمانية المملوكية الذي تحدثت فيه عن مسار العلاقات بين القوتين وتحولها من الطور الدبلوماسي إلى الطور الصدامي وقد قدمت دراستها صورة وافية لفهم المناخ العسكري قبيل المعارك الحاسمة بين الطرفين وتمكن البحث من ربط هذا الصدام وإدراك أثره على انكماش حركة الأسواق، كما أن المؤلف نعيم فهمي قدم في كتابه طرق التجارة الدولية الذي ركز فيه على البنية الجغرافية والملاحية لشبكات التجارة وتوزيعها في العصر المملوكي وقد أفادت هذه الدراسة البحث في رصد الخلل الهيكلي الداخلي الذي أصاب الطرق والمحطات نتيجة للتمردات الداخلية والتهديدات الخارجية، أيضاً دراسة قدمتها الكاتبة نادية مصطفى بعنوان العصر المملوكي ضمن سلسلة العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي وفيها رؤية تحليلية شاملة لمكانة الدولة المملوكية في النظام الدولي والتحديات الجيوسياسية والاقتصادية التي واجهتها الدولة وقد قدمت نظرة وافية في مدى معرفة الاضطرابات الناجمة عن هذه العلاقات والتي تعد المتغير المستقل الأساسي المفسر للآزمات النقدية والكساد في الأسواق الداخلية. أما الدراسة التي قدمها الكاتب الباز العريني في كتابه المغول في تتبعها التمدد المغولي في المشرق الإسلامي والمواجهات الكبرى مع المماليك ساعدت البحث في تحليل النتائج الاقتصادية الكارثية في بلاد الشام وكيف انعكس ذلك سلباً على حركة الإمداد للداخل المصري، ومن أهم هذه الدراسات على الاطلاق مؤلفات البروفسور سعيد عاشور في كتبه: العصر المملوكي والمجتمع المصري وأضواء جديدة ومصر والشام، فقد امتازت هذه الدراسات بالعمق والتحليل في كافة النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وأفادت البحث في معرفة الأثر النوعي بين التمرد الداخلي والتهديد الخارجي على القوة الشرائية للتجار.

يتضح من خلال العرض النقدي والتحليلي للدراسات السابقة وجود تباين في اتجاهين الأول: ركز على البعد العسكري والسياسي الصرف بينما الاتجاه الثاني: ركز على البنية

الجغرافية والهيكلية للتجارة الخارجية، ومن هنا تتبلور الفجوة البحثية فقد أغلقت أغلب هذه الدراسات أثر الحروب على الأسواق المحلية كما لم تقم أي منها في الموازنة بين أثر الاضطرابات الداخلية وأثر الحروب الخارجية في تدمير البنية الاقتصادية، وقد عنيت هذه الدراسة في تقديم إضافة علمية جديدة تمثلت في الربط التكاملي السببي وذلك بجعل الحرب والاضطراب الأمني متغيراً مستقلاً ودراسة انعكاسه على حركة الأسواق كمتغير ثابت وتتبع هذا الأثر مادياً ونقدياً على المجتمع المملوكي إضافة إلى تقديم موازنة تحليلية تثبت كيف أن الاضطرابات الداخلية وتحديداً ثورات العريان أشد فتكاً بالتجارة الداخلية من الحروب الخارجية، ومما قدمه البحث صورة واضحة عن الوسائل الاقتصادية القسرية التي لجأت إليها الدولة من إفساد للعملة واحتكار السلع وكيف تحولت هذه السياسات الدفاعية إلى سلاح فتك بالتجارة الداخلية قبل السقوط السياسي للدولة.

ومما سبق يمكن رصد أوجه التشابه والاختلاف بين هذه الدراسة والدراسات السابقة على النحو الآتي:

أوجه التشابه: تلتقي الدراسة الحالية مع الطروحات السابقة في اتخاذ العصر المملوكي إطاراً زمنياً وموضوعياً لها، والاعتماد على نصوص المصادر التاريخية والنقدية ذاتها، فضلاً عن تقاطعها في تحليل البعدين العسكري والسياسي.

أوجه الاختلاف: تتمايز هذه الدراسة عن سابقتها في نقل مركز الثقل التحليلي؛ فبينما ركزت الأدبيات السابقة على العلاقات الدبلوماسية والتجارة الخارجية، تتفرد هذه الدراسة بنشء العمق الداخلي ورصد أثر الاضطرابات وأعمال التخريب المحلية على حركة الاسواق اليومية والقوة الشرائية للتجار

أولاً: الاضطرابات الداخلية في البلاد:

تميزت الحياة الاجتماعية في عصر المماليك بطابع خاص فقد شكلت المماليك التي دخلت وحكمت البلاد وهي غريبة بالأساس عنه وعن عاداته وتقاليده ولم يتأثر هؤلاء المماليك بعادات أهل البلاد التي حكموها فقد كانوا بمعزل عنهم ما دعاهم إلى الإكثار من شراء المماليك لتكون لهم الغلبة والحكم دوماً، وأغلب الوافدين كانوا من أصول متعددة من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ماوراء النهر فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد والبلاد الأوروبية اللذين فرضوا وجودهم بعاداتهم وطريقة عيشهم في المأكّل والملبس⁽¹⁾، وهذا لا يلغي ما أثرت به الحروب الصليبية في توجيه المجتمع جراء نمو التجارة التي جنوا منها الأموال الطائلة ما دفع سلاطين المماليك لاحتكار بعض التوابل وتشغيل أموالهم بالتجارة التي جمعوا منها ثروات جمّة⁽²⁾ ومن الدلائل على ذلك عند وفاة السلطان برقوق ترك في الخزانة أكثر من ألف ألف دينار من الذهب ومن الغلال والفراء مثله⁽³⁾، ومن هذان المؤشران تبين أول شرارة كانت للثورات الداخلية والحروب الخارجية.

1- الثورات والتمردات:

ساد لدى المماليك اعتقاد عميق بأنهم متساوون وما يميز أحدهم عن الآخر تحليه بالشجاعة والذكاء والمهارة والمقدرة ومن هذا المنطلق فإن جميع المماليك كان لهم يقين تام بحقهم الشرعي في السلطة المعزز له عدم وجود نظام وراثي ولا قاعدة ثابتة تلغي هذا اليقين في اختيار السلطان⁽⁴⁾، وأدى ذلك بدوره إلى تطلع كبار الأمراء إلى هذا الحق وأولهم كان

السلطان سيف الدين قطز (657-658هـ/1259-1260م) ⁽⁵⁾ ما كان ذلك سبباً في كثير من الثورات والفتن داخل البلاد الحقيقة التي حكمت في تاريخ هذه الدولة ⁽⁶⁾ وجعلت أحوالها في اضطراب يرافق موت السلطان أو مرضه أو هزيمة جنوده وما صاحبها من أذى للناس ونهب للمحاصيل وامتناع البيع وارتفاع الأسعار ⁽⁷⁾، والأشد سوءاً منها تولي سلطان جديد الحكم فيظهر منافسوه عدائهم وثورتهم ضده مما يهيئ لتوتر واضطراب وقلق اعتادت عليه البلاد، ومن هذه الأحوال جميعاً وجدت طوائف المماليك بيئة للفتن والهيجان الذي كان يتم التخطيط له في اجتماعات ليلية وفق عصابات سرية ومنها يعثون في الأرض الفساد بعد انتشارهم في الأسواق والطرق ونهبهم للحوانيت وخطف للعمائم وانتزاع الخيول من أصحابها حتى أن أذاهم وصل في أحيان إلى تعذيبهم على النساء في بيوتهن ⁽⁸⁾.

رافقت حالة الفوضى حياة الدولة المملوكية بكل أحوالها إلى آخر عصر المماليك وذلك في تعاقب السلاطين على الحكم في مدة قصيرة وانتهاء أمرهم إما بالقتل أو السجن أو الخنق مما جعل تولي منصب السلطنة أمراً مرفوضاً لدى كثير من الأمراء لتربطه بكثرة الدماء المباحة ⁽⁹⁾، وقد كان تأثير هذه الأوضاع جلياً على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي في عدم الاستقرار جراء ما صاحب هذه الفتن من إغلاق للأسواق وإغلاق التجار حوانيتهم وإغلاق الأبواب التي تفصل أحياء المدن، وما عانى منه الناس من جوع وفوضى وتعطيل لأحوال البلاد ككل ⁽¹⁰⁾.

2- ثورات العربان:

الأعراب قبائل عربية متعددة الأصول والأماكن انتشرت في العصر المملوكي بكثرة، ولم يقبلوا الرضوخ والخضوع لدولة المماليك إذ أنهم ينظرون إليهم نظرة العبيد⁽¹¹⁾.

ومن حجم الإنكار لهم أن أجمعوا أمرهم وأقاموا حاكماً منهم عليهم بذريعة أنهم أهل البلاد وأصحاب الحق بها وعلى هذا الحال ظل وضع العربان والمماليك في صدام مستمر وعلى فترات إلى نهاية هذه الدولة فقد عاثوا فساداً وإخلالاً بالأمن باعتدائهم على الناس والعباد في النهب والسلب⁽¹²⁾، كان من أهم هذه القبائل في مصر قبيلة بني ثعلب (الجعافرة) وهي من أقوى القبائل في صعيد مصر، وأول من واجه المماليك في بداية دولتهم، أيضاً من القبائل في الصعيد قبيلة هواره وفي بلاد أسوان قبائل بنو هلال أما في الجيزة والبهنسا فكانت قبائل لواتة وفي الشرقية والأسكندرية بنو جذام وبأخميم بنو جهينة وغيرها من القبائل الكثيرة⁽¹³⁾، أما في بلاد الشام فأشهر القبائل بنو ربيعة ومنهم آل الفضل في حمص وآل علي في مرج دمشق وغطتها وفي حوران بنو زبيد وبنو كلاب في أطراف حلب والروم أما في الجزيرة آل بشار وفي حماه بنو عقبة وغيرها من القبائل⁽¹⁴⁾ وقد كان أول صدام من بني ثعلب والمماليك في عهد المعز أيبك انتهى بهزيمة العربان في عام (651هـ/1253م)، ومن تمردهم في عام (699هـ/1300م) استغلوا فرصة غزو غازان وامتنعوا عن دفع الخراج وأعلنوا الثورة ما زاد من شوكتهم في الصعيد⁽¹⁵⁾ إلا أن افتقارهم للنظم والمهارة الحربية أمام المماليك لم يمكنهم من

الصمود طويلاً، ففي عهد الظاهر بيبرس نهب عربان الصعيد البلاد وكانت أعدادهم ثلاثة عشر ألفاً فجرد السلطان منتي فارس لمواجهتهم فكسر شوكتهم ونكّل بهم⁽¹⁶⁾، بل إن الأمر لم يقف على هذا إذ أن السلطان بيبرس الجاشنكير⁽¹⁷⁾ أصلح بينهم في الاختلاف الذي حصل سنة (700هـ/1301م) بين عرب البحيرة الذي أفنى خلقاً كثيراً فأجمع السلطان على إحضارهم بالأمان وتحديد قواعدهم وتجريدتهم من الجمال والأغنام وإقامة الصلح بينهم، ولم يمنهم هذا من العودة إلى فسادهم في الوجه القبلي وقطعهم للطرقاوات واقتحامهم المدن وأخذ تجارتها إضافة إلى الغرامة التي وضعوها على كل شخص إلى أن جرد إليهم السلطان العسكر، فقتلوا وأسروا وحصلوا على أموال ومواشي لا حصر لها وتركوا بلاد الصعيد خاوية إلا من النساء والأطفال⁽¹⁸⁾. ومن تهديدهم للاقتصاد أنهم في أحيان كثيرة يمتنعون عن دفع الخراج والضرائب كما حدث في عهد السلطان الناصر محمد سنة (713هـ/1313م) إضافة إلى نهبهم للغلال وسرقة المواشي، ومن عظيم طغيانهم أنهم أغاروا في سنة (801هـ/1398م) على المدن الكبرى، الإسكندرية، والقاهرة، ومن شدته أنهم فرضوا على تجارها أموالاً كما الضريبة التي تجبها الدولة من أهل الذمة، وخطفوا كل ما نالته أيديهم بما في ذلك عمائم الناس وكسوتهم⁽¹⁹⁾.

إلا أن هذا حالهم المستمر ففي سنة (825هـ/1422م) كثر فسادهم وقطعهم الطرقاوات وإحراقهم البلاد وجعلها خراب، لا زرع فيها ولا أغنام إلى أن حُمِلت إليها المؤن من القاهرة⁽²⁰⁾، غير أن عاصمة البلاد نفسها لم تنج منهم ومن شرهم فقد أغار العربان على أطراف القاهرة

نهبوا الأمراء والفقهاء والتجار في الأسواق ولم يدعوا لفضله خيلاً ولا لتاجر قماش ولا بضائع حتى امتنع البيع وارتفعت الأسعار وما كان من السلطان إلا أن قرب إليه مشايخ العريان وزاد في عطايه لهم ليؤمن شرهم ويدفع بلاهم وعبثهم في الأمن والطرق⁽²¹⁾ ومع ذلك لم يهدأ لهم بال حتى نهاية عصر سلاطين المماليك، فعندما ضعف شأنها في أواخر أيامها أخذوا يرددون: "أن مصر ما بقي بها من الجند إلى قليلاً وزاد طمعهم في حق الترك" فما كان من السلطان قايتباي إلا أن جرد جنده سنة (893هـ/1488م) يتجولون بسيوفهم على الخيول ردعاً لأذاهم في كل يوم أحد وأربعاء⁽²²⁾.

ومع ذلك فإن شوكة العريان لم تنثن وبالرغم من أن حركاتهم بدأت في شكلها السياسي في حق الحكم وإنكارهم للمماليك إلا أنها اتخذت صورتها الاقتصادية فيما بعد من فساد بأشكاله وذلك بنهب الغلال وسلب المواشي وخطف العمائم إلى أن وصل بهم الحال لعدم دفع الضرائب والخراج المستحقة عليهم وظلوا كذلك طوال عصر المماليك سبباً واضحاً للفتنة وعدم الاستقرار⁽²³⁾.

هذا من جانب ومن جانب آخر فقد كان لسيطرتهم وتواجدهم على طرق الحج والتجارة الأثر الكبير على الواقع التجاري إذ أمدَّ هؤلاء البدو في بلاد الشام كل من المماليك والمغول بالاحتياجات الحربية، ولعدم ضمان مكرهم فقد قربتهم السلطة المملوكية قدر الإمكان وعفت عن أمرائهم الهاربين، وبناء على المصلحة الخاصة للعريان فقد شكلوا جبهة داخلية تعين السلطة المملوكية على الأعداء وبالمقابل حصلوا على أقطاعات ومنح وهدايا وتحسنت تجارتهم وأهمها تجارة الخيول، وأوكلت إليهم الدولة المملوكية مهام عدّة كانوا على درجة من الثقة بها

ضد الخطر المغولي، وكان ينبع ذلك من مصلحة خاصة بأن الضرر يعم على الجميع ولا يستثني أحد، وقد وصل العربان في بلاد الشام إلى درجة عالية من الغنى جراء وقوفهم إلى جانب المماليك وحصولهم على المنح وازدهار تجارتهم⁽²⁴⁾. ومن ذلك يتبين أن العلاقة ما بين الدولة المملوكية والعربان لم تكن صدامياً بل كانت نفعية، فالسلطين استخدموا العربان كقوات غير نظامية لحماية الطرق مقابل إقطاعيات، ولكنها كانت تتقلب إلى ثورات بمجرد شعور العربان بضعف السلطة أو زيادة الضرائب.

وتؤكد المصادر المملوكية المعاصرة هذه الفرضية؛ حيث يذكر المقرئ في كتاب السلوك أن أعمال قطع الطرق من قبل العربان أدت مباشرة إلى تفشي الخوف بين التجار وامتناع الجالب عن سوق البضائع للأسواق الحاضرة⁽²⁵⁾

ويتضح من مقارنة هذه الحالة بالحروب الخارجية أن الأخيرة كانت تدور في جبهات حدودية محددة وتغور نائية، بينما ضربت ثورات العربان الحواضر وقلب المسارات التجارية الداخلية، وهو ما جعل أثرها الهيكلي على اقتصاد الاسواق اليومية أشد فتكاً واستدامة⁽²⁶⁾. كما يظهر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة عند رصده لمصادرة حركة الأموال والغلاء المصاحب لتلك الاضطرابات والخطوط التجارية المتعطلة جراء تجريد حملات القمع المتلاحقة⁽²⁷⁾

ثانياً: الحروب:

كانت طبيعة الحكم المملوكي طبيعة عسكرية فنشأتهم وتأسيسهم وأساس قيامهم كانت الحرب ومع التحديات التي واجهها المماليك عدت الحرب أساس السياسة وقوامها والمتحكم في طبيعة الحكم إلى حد بعيد واتبع المماليك خلال حكمهم سياسة حربية مستمدة من سياسة حكام

مصر التي بدأت بالظهور منذ عصر الفاطميين ومن ثم استمر الأيوبيون على هذا النهج ولم يحد المماليك عنهم فلم يكن قصدهم سوى اتخاذ مصر قاعدة أصلية في الدفاع عن النهج الإسلامي خاصة أن المماليك كانوا حديثي العهد في إسلامهم ولم يجدوا بداً من السعي والنضال في سبيل الإسلام وكيانه، واتخاذهم مصر قاعدة للدفاع عن هذا الكيان من خطر الصليبيين الذين لم يستطع الأيوبيون أن يقطعوا دابرهم وطردهم المماليك من الشرق كله، والخطر الأكبر الذي تمثل بالمغول الذين اجتاحتهم العالم من آسيا إلى أوروبا وفي طريقه إلى إفريقيا والمحيط الأطلسي فهزمهم المماليك شرَّ هزيمة وأوقفوا توغلهم بعيداً عن إفريقيا وقد كان لهذه السياسة وقع على الاقتصاد المملوكي بين نفع وضرر في فترات متباعدة ومنها:

1- الحرب مع الفرنجة الصليبيين:

لقد كانت الحروب الصليبية أداة للرعب والتخريب أينما حلت وخاصة في بلاد الشام وحيثما وقعت حلَّ القحط والفساد⁽²⁸⁾، ونتيجة للضعف والتفكك الذي حل بالصليبيين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي وخسارتهم للحصون والممتلكات حافظوا قدر الإمكان على ثلاث مدن رئيسية أنطاكية وطرابلس وعكا وغيرها من المدن. إلى أن أخذ راية الجهاد ضدهم الظاهر بيبرس البندقداري، واستولى على عدد كبير من المدن والمعازل الصليبية وتوجّه باستيلائه على أنطاكية سنة (667هـ/1268م).

إذ لم يتهاون المماليك في الحرب ضدهم وإسقاط المدن والحصون واستعادتها⁽²⁹⁾، ومن بعد أنطاكية كانت مدينة طرابلس في سنة (688هـ/1289م) التي سقطت بين يدي السلطان المنصور قلاوون (689-693هـ/1290-1293م) ثم تلتها مدينة بيروت وغيرها من المدن الساحلية، إذ لم يترك المماليك الوضع يسير وفقاً لأهواء الصليبيين بل عملوا على استعادة كل

ما تم استلابه وانتزاعه منهم بالقوة واغتنام الفرص في هذا المسعى ومنه الصراع القائم بين الصليبيين أنفسهم الذي قاده السلطان خليل بن قلاوون⁽³⁰⁾ لاستعادة مدينتي عكا وصور في سنة (690هـ/1291م) وتنظيف الساحل الشامي منهم. وعلى الرغم من حدة هذه الصدمات العسكرية واستعادة الحواضر الساحلية، إلا أن الأثر الأعظم امتد إلى البنية الاقتصادية من خلال سياسات الحصار التجاري التي فرضها الغرب، والتي واجهتها الدولة المملوكية بحذر لحماية قوافلها وأسواقها ، ونتيجةً لاستمرار هذا الاستهداف التجاري، ما كان من الملك لوزجنان إلا أن أعد في سنة (767هـ/1365م) حملة على الإسكندرية اجتاحت البيوت والمساجد والخانات والأسواق والمتاجر وعاثوا فساداً بالبلاد والعباد وأخذوا معهم قدراً كبيراً من البضائع والأسرى ولم يكتف الصليبيون بهذا بل اتخذوا من قبرص مركزاً لشن هجماتهم على التجار الأوروبيين اللذين وصلوا تعاملهم مع مصر والشام وظل الوضع هكذا إلى أن وصل إلى الحكم السلطان الأشرف برسباي (825-841هـ/1422-1438م) الذي أخذ على عاتقه وضع حد لملوك قبرص والقضاء على القرصنة فأرسل ثلاث حملات في سنة (827هـ/1424م)⁽³¹⁾ وفي سنة (828هـ/1425م) وسنة (829هـ/1426م) استطاع من خلالها أن ينزل الهزيمة بملك قبرص ويحتل الجزيرة ويأسر حتى ملكها جانوس، في موقعة خيروكيتا⁽³²⁾، وقد تكوّن بسبب هذه الحروب اتصال تجاري خطه السفن المحملة بالجنود والعائدة ببضائع الشرق المختلفة التي أدت إلى ازدهار أوروبا وعلى رأس مدنها جنوة وبيزا والبندقية ومرسيلية⁽³³⁾، فقد أكدت المعاهدات التي أبرمت بين الطرفين على أمن التجار في البلاد وتمتعهم بالحرية الشخصية والتجارية إضافةً إلى تأمين التاجر على حياته وماله وتجارته في حياته والتأمين على ممتلكاته بعد وفاته فيها، وقد أشارت المصادر إلى عقد سلاطين

المماليك الكثير من الاتفاقيات التجارية مع حكام الفرنج في الشام لزيادة التبادل التجاري وتنظيم العلاقات بين الطرفين والمبالغة بالاهتمام في توفير جميع سبل الراحة لهم⁽³⁴⁾، وبالتالي أدت هذه المعاهدات والامتيازات التي منحت لها إلى تطور العلاقات التجارية بين مصر وتجار المتوسط غير المسلمين وأرست عنصراً هاماً في معاهداتها إعطائها الحق بإقامة فندق للتجار وذلك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ومن أهم بنود هذه المعاهدات أنها لا تضر الإسلام والمسلمين، إضافةً إلى شروط التجار وضعت حدود الأعمال التي تحت القوانين الإسلامية ومن أهم هذه المعاهدات التي عقدت مع البندقية في القرن الثالث عشر ومن بعدها ست معاهدات في القرن الرابع عشر وثلاثة في القرن الخامس عشر، وما يدل ذلك إلا على ازدهار التجاري في تلك الفترة التي لم تؤثر عليه الحرب بين الدولتين، ولم تكن الميزات الفندقية والمعاهدات البندقية سوى أداة سلمية لإبعاد الخطر الصليبي وتحويله من الإسكندرية إلى القسطنطينية ولا ننسى دور التجار المسيحيين وخاصةً الجنوبيين في توفير العناصر الأساسية من بشرية ومعدات ومعادن للدولة المملوكية لمواجهة العدوان الصليبي متحدين بذلك وأمر البابا، فقد كانت الأداة الاقتصادية ذات وزن كبير في إدارة العلاقات، فبعد الهجوم على الإسكندرية سارعت كل من البندقية وجنوة والجمهورية الإيطالية الأخرى لتؤكد عدم اشتراكها وما دفعها إلى ذلك أن الامتيازات لرعاياها لم تكن ثابتة ولا مطلقة تتأثر بالعلاقات الدولية وفي الحرب تغلق الفنادق ويسجن القناصل فكان ذلك كافياً للوساطة لدى السلطة المملوكية في إعادة الامتيازات وانتظام التجارة معهم⁽³⁵⁾.

2-الحرب مع المغول:

شكل الغزو المغولي للخلافة العباسية في بغداد وسقوطها سنة (656هـ/1258م) نقطة تحول في المنطقة ككل، ومصدر تهديد للعالم العربي والإسلامي الذي غلب عليه التجزئة والضياع، فقد كانت سيطرة المغول قاسية على العرب المسلمين في بلاد الشام وأشد وقعاً من المد الصليبي إذ أنهم عاثوا فساداً من تخريب وتدمير ونهب كونهم أناس لا حضارة لهم⁽³⁶⁾، إلى أن اصطدموا بالقوة المملوكية التي استطاعت إيقاف هذا الزحف قبل امتداده لمصر في معركة عين جالوت سنة (658هـ/1260م) التي كانت المفصل الذي غير التاريخ العربي الإسلامي وحفظ مصر وحرر بلاد الشام تحت سلطة الدولة

المملوكية⁽³⁷⁾، إلا أن هذا الخطر عاد إلى بلاد الشام بين الحين والآخر آملين في امتلاكها ولكن حنكة وشجاعة السلطان الظاهر بيبرس وخلفائه ردت محاولاتهم خائبة⁽³⁸⁾، فقد ظهرت بسالته في معركة الأبلستين عام (675هـ/1277م) إذ استتجد أمراء السلاجقة بالظاهر بيبرس لتخليصهم من المغول في بلاد الروم الذين تزايدت أطماعهم في كل من مصر وبلاد الشام، وانتهت هذه المعركة بدخول بيبرس قيسارية وهزيمة للمغول، وتمت الخطبة باسمه⁽³⁹⁾، ولم تنتهي أطماعهم عند هذه الهزيمة فقد استمر خلفاء بيبرس على نهجه وانتصر السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عليهم في معركة حمص الثانية عام (680هـ/1280م) وثبت أركان الدولة المملوكية وأوقف محاولات المغول في السيطرة على بلاد الشام⁽⁴⁰⁾، وعلى نفس الخطأ أكمل السلطان محمد بن قلاوون مسيرته في الوقوف بوجه أطماع المغول كما حدث في معركة حمص الثالثة عام (699هـ/1299م) فقد كانت هذه المعركة فاصلة في تاريخ المماليك

أمام المغول في بلاد الشام والتي سمحت لهم بالدخول إلى دمشق⁽⁴¹⁾، إلا ان تواجدهم بها لم يدم طويلاً فقد عمل السلطان محمد بن قلاوون على تدمير الجيش المغولي وسطرّ نهاية أمل المغول في غزو مصر وبلاد الشام في معركة شقحب عام (702هـ/1303م) التي عززت مكانة السلطان محمد بن قلاوون بصفته حامٍ للعالم العربي الإسلامي⁽⁴²⁾، وقد تكفل هذا النصر العظيم في صلح عام (723هـ/1323م) الذي أنهى الحروب والنزاعات بين المماليك والمغول وكان سبب رضوخ المغول لهذا الصلح الهزيمة التي حلت بهم وإسلام بعض سلاطينهم إضافةً إلى أوضاعهم الداخلية المتوترة⁽⁴³⁾، غير أن هذه الهجمات التي توالى على الأراضي العربية الإسلامية من قبل المغول كان لها وقعها على الحياة العامة والتجارة على وجه الخصوص، فقد أثرت الحملات المغولية بشكل سلبي على التجارة الداخلية في مراكزها الأساسية كحلب ودمشق وحماه، إلا أن الخط التجاري من العراق إلى عكا لم يتأثر بها⁽⁴⁴⁾، فعند توجه غازان من حمص إلى دمشق تعطلت الأحوال وأصاب تجارها وأهلها الويلات، اللذين خرجوا من المدينة إلى الجبال ومصر وفرض على من بقي غرامات لا طائل لها، كل سوق بحسب تجارته⁽⁴⁵⁾، ولم يكتف بذلك من نهب وسلب إنما زاد الوضع سوءاً في الأسواق من تعطل الحركة وقلة البيع والشراء وخسارة الأموال الداعمة للتجار إلى أن نادى نائب دمشق بعد خروج غازان إلى فتح تجارها دكاكينهم⁽⁴⁶⁾، ولم يقف الضرر على حملة غازان إنما كان للبلاد نصيب آخر من حملة

تيمور لنك⁽⁴⁷⁾ وكانت حلب أول المدن وأكثرها دماراً وخراب، فقد تعرض سكانها للقتل والتهجير والنهب واندثرت أسواقها التجارية ومعالمها من بعد إنهاكها شهراً كاملاً، ومن بعدها توجه إلى دمشق وتعطلت أحوالها وبطلت الأسواق وغرم التجار والناس أموال كبيرة⁽⁴⁸⁾، ولم ينته الوضع على مصادرة أموال التجار ونهب الأسواق أنما أضرمت النار بها وبذلك ما ذكره الصيرفي بقوله: "ولم تزل النار تأكل ما يليها، وتقني ما يشعل ويقلها، إلى أن شملت على دورها ومدارسها، وعملت على أسواقها ومجالسها، فكانت تكون كنار القيامة وقودها الناس والحجارة"⁽⁴⁹⁾. وقد زاد من جورهم اعتدائهم على القوافل التجارية الذي أضعف المراكز التجارية وعطل الطرق القادمة من شرق آسيا إلى البحر المتوسط ومن الشمال إلى مصر⁽⁵⁰⁾، وبازدياد هجماتهم اتجهت الانظار عن حلب مركز التجارة إلى أرمينية التي ساعدها على الازدهار تحريم البابوية التعامل مع التجار العرب المسلمين بأراضيها وعدم تزويدهم بالسلع، ومصادرة سفنهم وبضائعهم، أضاف إلى ذلك تأمين المغول لطرق التجارة وتشجيعها داخل بلادهم في عهد غازان وتخفيض الضرائب ناهيك عن غزوات المغول للمناطق المجاورة لأراضيهم والتي فتحت طريقاً آخر للتجارة وقللت من أهمية بلاد الشام⁽⁵¹⁾.

وقد أثرت الحروب بين المغول أنفسهم على تنشيط تجارة الرقيق في بلاد الشام ومصر وعصر سلاطين المماليك للتجار بالاتصالات وعقد المعاهدات لجلب العبيد⁽⁵²⁾، وفي الجانب الآخر من تأثير الحروب بين المماليك والمغول أنه في فترات الهدوء اتسع النشاط التجاري بين

القارتين الأوروبية والآسيوية وتشكل طريقين، الأول يسير من البحر الاسود والثاني من خليج الإسكندرونة⁽⁵³⁾ إلى تبريز⁽⁵⁴⁾ وهرمز⁽⁵⁵⁾ الذي برزت أهميته في جذب التجار المسيحيين عن طريق حلب وشمال بلاد ما بين النهرين والذي كان له دوره الكبير في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وذلك لتحول التجار إليه بدلاً من العبور في أراضي سوريا ومصر تجنباً للمكوس الباهظة التي فرضتها الدولة المملوكية، وقد نشأت الكثير من المستعمرات والمراكز التجارية في غرب آسيا والتي استوطنتها الجاليات الإسلامية في موانئها بقصد التجارة، وقد أدى التبادل التجاري بين شرق آسيا وغربها إلى انتشار المنتجات وأهمها الحديد الخام والمنسوجات الحريرية المنقوشة⁽⁵⁶⁾.

3- الحروب مع الدول المجاورة:

أ- الحرب مع البرتغال:

شكلت البرتغال قوة بحرية في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي⁽⁵⁷⁾، وبعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح في عام (904هـ/1498م) الذي شكل المحور في تغير القوى على أرض الواقع. وأنشأت عقب وصولها إلى الهند مراكز تجارية مسلحة واحتكروا تجارة الشرق ببسط نفوذهم العسكري والتجاري على سواحل البلاد، وقد كانت غاية البرتغاليون واضحة في فتح أسواق جديدة والتخلص من الرسوم الجمركية التي فرضتها الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام، وضرب احتكار البندقية والبحث أكثر في استحوادهم على معلومات جغرافية

إضافية وأهميتها في النهضة الأوروبية، ناهيك عن إكمالهم خطا الصليبيين في ضرب المسلمين وإعادة الروح المسيحية، ولا سهو عن غايتهم الأسمى في القضاء على الدولة المملوكية وتدمير بحريتها التجارية⁽⁵⁸⁾، فقد ألحقت العسكرية البرتغالية بالغ الضرر بها من نهب وسلب وتدمير ما أثر على تجارة التوابل والسلع في مصر والشام التي نهضت ونشطت على حسابها التجارة البرتغالية في الهند، وقد أدرك السلطان قانصوه الغوري مدى القوة التي وصلت إليها البرتغال ومدى تأثيرها على البلاد، فأرسل أسطولاً في سنة (910هـ/1504م) حمل معه أمراء هنود ومسلمين إلى الحج إضافةً إلى السلع الهندية والتوابل إلا أن هذه السفن قد تعرضت لها السفن البرتغالية، رداً على هذا الفعل أرسل السلطان الغوري أسطولاً آخر في عام (913هـ/1507م)⁽⁵⁹⁾، استطاع من خلاله قتل القائد البرتغالي وإلحاق الهزيمة بهم، إلا أنه خلال استراحة الأسطولين المملوكي والهندي في جزيرة ديو⁽⁶⁰⁾ استغل القائد البرتغالي الوضع وقام بتدميرهم في سنة (914هـ/1509) الهزيمة التي أفقدت السلطان الغوري مصادره المالية وأضعفت كيان الدولة المملوكية وقللت وصول السلع الشرقية إلى مصر وبلاد الشام وما يرافقها من عدم وصول التجار الأجانب⁽⁶¹⁾، وحرمت السلطان المملوكي من ثلثا الربح عن كل رحلة عدا عشرين بالمئة من قيمة الصادر والوارد وفقدت بذلك مصر والبلاد العربية والشرق الأوسط مورداً عظيماً بمرور تجارة الهند في جدة واليمن عن طريق البحر الأحمر إلى أوروبا⁽⁶²⁾، وقد كان تعامل الداخل مع هذه المتغيرات عكسياً وزاد الأمر سوءاً بأخذ نائب جدة من تجار الهند العشر المثل عشرة أمثال، فامتعت التجار من دخوله، كذلك الحال مع مينائي الإسكندرية ودمياط من كثرة الظلم والجور الذي تعرض له التجار، فقلت بذلك السلع والأصناف التي تأتي

إلى البلاد منهم ما أضر بالتجارة الداخلية والأسواق ولم يسلم تجار البلاد من جور السلطان الذي جدد المكوس وصادر أموالهم وقرر على بيع الغلال قدراً معلوماً على كل أردب وقد كانت جميع البضائع في أيامه غالية جداً نتيجةً لما سبق وللزغل والغش الذي طال العملات المالية⁽⁶³⁾.

ب- الحرب مع العثمانيين:

أدى توسع الدولة العثمانية في الجزيرة الفراتية وامتداده في بلاد الشام والعراق والبحر المتوسط والأناضول ليصل إلى المحيط الهندي إلى تحول الإمارات الفاصلة بين الدولتين لساحات صراع خاصةً أن العثمانيين سيطروا على طريق التجارة وعلى المواد الخام وعملوا على إضعاف طاقة الممالك العسكرية عبر قلة شراء العبيد من أسواق البحر الأسود ونقلها إلى مصر، نشبت على إثر هذه المتغيرات صدامات بين الدولتين ما بين (888-890هـ/1483-1485م) استطاع السلطان خلالها الدفاع عن أراضيهِ من الاعتداءات العثمانية والحاق الهزيمة بها ثلاث مرات ما بين أعوام (891-896هـ/1486-1491م) الذي بحلولة عقدت اتفاقية سلام بين الطرفين⁽⁶⁴⁾، غير أن هذه الأحوال التي تعرضت لها البلاد أثرت على أوضاعها وأصبحت سيئة فأنهكت مدينة حلب من كثرة الضرائب وأخذ أموال التجار في كل تجريدة على عدو ووقع على كاهل مدينة دمشق تحمل عبئ فساد الجنود المماليك العائدين من الحملة العسكرية الأخيرة، فكان لهم اليد الطولى في نهب وسرقة ودمار وفساد، وقد تداعى النظام الداخلي وأصبح المماليك الجلبان عنواناً للشر والعدوان ضد أهالي البلاد ناهيك عن الحرب مع العثمانيين التي أرهقت خزينة الدولة وأثرت على اقتصادها، فقد أصاب التجارة انهيار ملحوظ نتيجة تكاليف الحملات العسكرية وجور العثمانيين في فرض الضرائب من حدود بلاد الشام

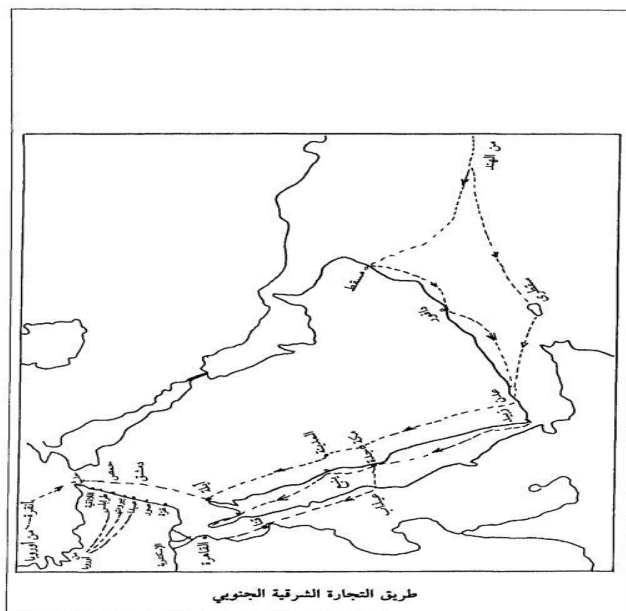
على الحاصلات والمنسوجات والماليك، وعلى الرغم من انهيار الاقتصاد المملوكي إلا أن السلطان قايتباي أخذ يجمع الاموال من الأوقاف لتهدئة الجلبان فقطع بذلك الأرزاق عن عامة الناس واضطربت الأحوال وزادت سوءاً وآلت إلى الخراب وكان المحرك له قلة النظام في الجباية بالدولة⁽⁶⁵⁾، ولم تكن هذه المناوشات التي حصلت بين الدولتين إلا تمهيداً لشيء حتمي وضحت معالمه عندما امتدت حدود الدولة العثمانية إلى أطراف الدولة المملوكية، وأظهرت الدولة العثمانية رغبتها في التوسع وتأمين أطراف حدودها، وحصل الالتقاء الحاسم بينهما في معركة مرج دابق سنة (922هـ/1516م)⁽⁶⁶⁾.

التي سطرت بين طياتها هزيمة المماليك وجعلت أوضاع البلاد في اضطراب متزايد، فقام البدو بنهب القرى وقتل الفلاحين وعدد لا يحصى من التجار والجند رافقه غضب المماليك الجدد اللذين لم يكونوا ضلعين في القتال وعمدوا إلى حرق الأسواق التجارية لاسيما التي وجدوا بها رعايا أجنبية ومنها أسواق الروم بحجة أنهم أعوان للعثمانيين، وصل الضرر الكبير بسكان القاهرة بعد أن علموا بامتداد الزحف العثماني من بلاد الشام إلى مصر ورست مراكب عدة لهم في ثغر الإسكندرية⁽⁶⁷⁾، وبعد مقتل السلطان الغوري استلم السلطان الأشرف طومان باي⁽⁶⁸⁾ الحكم في وضع لا يحسد عليه كانت الدولة في أقصى درجات انحلالها وتهالكها، فقد عم الفساد واستشرى في كيانها ولم يعد هناك أمل في إعادة الحياة لها والذي تمثل في معركة الريدانية سنة (922هـ/1517م) وبخبر التحام الجيشين في هذا الموقع لجّت التجار في دعر تنقل أموالها وامتعتها من الدكاكين في الأسواق ونقل الناس قماشهم إلى الترب والزوايا والمزارات وبيوت العوام علّها تسلم إلا أنه عندما دخل العثمانيون البلاد وتم لهم النصر قاموا بنهب الغلال

والقمح من الطواحين وارتفع الخبز من الأسواق ولم تسلم الجوامع والمدارس والمزارات من بطشهم⁽⁶⁹⁾، غير أن السلطان طومان باي لم يستسلم وظل يقاوم العثمانيين في جهد مستميت ضدهم ويقاوم بشكل حرب عصابات من أجل شل حركتهم إلى أن وثق بمن هم ليسوا أهلاً للثقة وألقي القبض عليه وشنق على باب زويلة⁽⁷⁰⁾، وهكذا انتهى حكم دولة المماليك بعد صراع دام ثمانية أشهر من الاحتضار، وتغير بهذا الحدث خارطة الشرق الأدنى الإسلامي من جنورها⁽⁷¹⁾.

خاتمة:

توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج التي تلخص أثر الحروب والتمردات على التجارة الداخلية، فقد أثبتت أن الاضطرابات الداخلية وفي مقدمتها ثورات العربان كان لها وقعها التخريبي على حركة الأسواق وذلك في قطع الطرق ونهب السفن مما رفع كلفة السلع ونشر حالة من انعدام الأمن التجاري، كما ساهمت الحروب الخارجية في تمزيق الشريان التجاري المتبادل، فقد دمر الغزو المغولي الحواجز التجارية في بلاد الشام وشلت الغارات الصليبية الموانئ في المتوسط في حين تمكن المد البرتغالي من خنق التجارة وتجفيف منابع السلع في الأسواق، مما دفع السلطة المملوكية لوسائل اقتصادية قسرية لتمويل الجيش وذلك في فرض المكوس الجائرة واحتكار السلع الأساسية إضافة إلى إفساد عيار العملة مما أحدث تضخم جامح قضى على القوة الشرائية والتاجر المحلي معاً، غير أن هذا الانهيار التجاري الداخلي في أواخر العصر المملوكي لم يكن وليد عامل خارجي مفاجئ بل نتيجة تراكمية لبيئة داخلية هشمته التمردات وثورات العربان عجزت معها الدولة عن حماية أسواقها وقوافلها.





● نقلًا عن الحركة العالمية ... لعبد عاشور *

(73)

الهوامش:

1. مبارك (علي باشا): الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر، ط1، 1888م، ص52.
2. عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة، القاهرة، 1992م، ص9.
3. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص84.
4. عاشور: العصر المماليكي، ص336.
5. سيف الدين قطز: الملك المظفر قطز بن عبد الله سيف الدين المقري، السلطان الثالث من ملوك الترك، خلع المنصور علي بن أيبك من السلطنة واستلم سنة (657هـ) قتل

- سنة (658هـ). الصفدي (خليل بن أيبك ت764هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2000م، ج24، ص189؛ ابن إياس (محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، دار إحياء الكتب العلمية، 1972م، ج1، ق1، ص303-308.
6. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص68.
7. ابن إياس: بدائع الزهور، ج2، ص335.
8. عاشور: العصر المماليكي، ص336.
9. ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص332-364.
10. عاشور: العصر المماليكي، ص337.
11. القلقشندي (أحمد بن علي ت756هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب الخديوية، القاهرة، 1914م، ج4، ص68؛ المقرئ: البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تر: فوستنفلد، ف، دراسات غوتنغن، فاندنهورك، 1847م، ص4-10.
12. عاشور: المجتمع المصري، ص61.
13. المقرئ: البيان والإعراب، ص17، 24، 36.
14. القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص203، 243.
15. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م، ص326.
16. ابن عبد الظاهر (محي الدين ت692هـ): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: الخويطر، الرياض، ط1، 1976م، ص51.
17. السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير السلطان الحادي عشر من سلاطين المماليك تولى السلطنة بعد السلطان محمد بن قلاوون سنة (708هـ) إلى أن توفي سنة (709هـ). ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص48-51.

18. المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ج2، ص346؛ العيني (محمود بن أحمد ت855هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان حوادث سنة 699-707هـ، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية، دم، 1992م، ص177، 174، 122.
19. عاشور: المجتمع المصري، ص61.
20. المقرئزي: السلوك، ج7، ص53.
21. ابن إياس: بدائع الزهور، ج2، ص342، 335، 324.
22. ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص253.
23. عاشور: العصر المماليكي، ص329، 330.
24. إسماعيل (اكتمال): الحملات المغولية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية على بلاد الشام، دار رسلان، دمشق، 2008م، ص243-247.
25. المقرئزي: السلوك، ج2، ص347.
26. المقرئزي: البيان والأعراب، ج51، ص47.
27. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص118-122.
28. المطوي (محمد العروسي): الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، دم، 1982م، ص169.
29. الحسين (خليل): العصر العباسي الرابع تاريخ المماليك، منشورات جامعة حمص، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2017م، ص116-117.
30. عاشور: أضواء جديدة، ص50-57.
31. المطوي: الحروب الصليبية، ص164-165.
32. علي (علي السيد): العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الإسكندرية، ط1، 1996م، ص54-79-80.

33. مصطفى(نادية محمود): العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1996م، ص49-51.
34. مصطفى: العصر المملوكي، ص17.
35. الصلابي(علي محمد): دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2009م، ص406.
36. ابن طولون(محمد بن علي ت 953هـ): اعلام الوري بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق والشام الكبرى، تح: عبد العزيز خطاب، مطبعة جامعة عين شمس، 1973م، ص8؛ الصياد(فؤاد عبد المعطي): المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ج1، ص320.
37. المقريزي: السلوك، ج2، ص105-107.
38. المقريزي: السلوك، ج2، ص142-150.
39. المقريزي: السلوك، ج2، ص317-324.
40. ابن كثير(إسماعيل بن عمر ت774هـ): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط7، 1988م، ج14، ص23-26.
41. ابن آبيك الدواداري(أبي بكر بن عبد الله ت736هـ): كنز الدرر وجامع الغرر، تح: هانس رويمر، المعهد الألماني، القاهرة، 1960م، ج9، ص308-315.
42. العريني(الباز): المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص262-300.
43. ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص9-16.
44. ابن آبيك: كنز الدرر، ج9، ص31، 32.
45. تيمور لنك: قائد عسكري مغولي تركي، ومؤسس الإمبراطورية التيمورية، سعى لإعادة إحياء إمبراطورية جنكيز خان تحت راية الإسلام، اجتاحت جيوشه آسيا الوسطى وإيران والعراق والشام وصولاً إلى الأناضول والهند ولد سنة(736هـ) وتوفي سنة(807هـ). عبد

- الحكيم(منصور): تيمور لذك إمبراطور على صهوة جواد، دار الفكر العربي، دمشق، د.ت، ص54، 191.
46. ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص598-613.
47. الصيرفي(علي بن داود ت 825هـ): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، 1971م، ج2، ص90.
48. ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص83.
49. إسماعيل(اكتمال): الحملات المغولية، ص352.
50. الفلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص72-74.
51. خليج الاسكندرونة: يقع بالقرب من مدينة أنطاكية على ساحل البحر المتوسط يربط سويس وحلب. أبي الفداء: تقويم البلدان، ص255.
52. تبريز: هي أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عظيمة وقاعدة مملكة التتار وبها يجتمع التجار من كل مكان. أبي الفداء: تقويم البلدان، ص401.
53. هرمز: مدينة وميناء شهير يقع على البر الرئيسي في منطقة كرمان هرمز القديمة، وهي ميناء بلاد الهند والسند ومجمع للتجار من كل مكان. أبي الفداء: تقويم البلدان، ص339.
54. حمدي(حافظ أحمد): الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1949م، ص299-303.
55. مصطفى: العصر المملوكي، ص139، 138.
56. طقوش: تاريخ الممالك، ص550-552.
57. الزبيدي: العصر المملوكي، ص186-188.
58. جزيرة ديو: تقع في بحر الهند المعروف ببحر العرب قبالة مدينة كبايت في إقليم تجرات بالهند من جهة الجنوب، وهي منطقة استراتيجية تربط طرق التجارة البحرية في المحيط الهندي. أبي الفداء: تقويم البلدان، ص354.

59. البهجي(إيناس حسني): دولة المماليك البداية والنهاية، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، 2015م، ص316.
60. حسين(عبد الله): المسألة الهندية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، د.ت، ص101.
61. ابن إياس: بدائع الزهور، ج5، ص89، 90.
62. طقوش: تاريخ المماليك، ص 485-491.
63. نافع(عيثاء أحمد): العلاقات العثمانية المملوكية، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005م، ص147، 148.
64. معركة مرج دابق: هي مواجهة حاسمة وقعت في عام(922هـ/1516م) في شمال حلب بين الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول والدولة المملوكية بقيادة السلطان قانصوه الغوري، انتهت بانتصار العثمانيين وهزيمة المماليك ومقتل السلطان المملوكي وذلك بسبب استعمل العثمانيين وسائل دفاعية حديثة وبسبب أيضاً حدوث الانقسامات والخيانات في صفوف المماليك. طقوش: تاريخ المماليك، ص497-502؛ فهمي(نعيم زكي): طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1973م، ص33، 32.
65. ابن إياس : بدائع الزهور، ج5، ص79-82.
66. طومان باي: السلطان الأشرف أبو النصر طومان باي، هو آخر سلاطين دولة المماليك تولى الحكم بعد مقتل السلطان قانصوه الغوري سنة(922هـ)، وتوفي سنة(923هـ).
- ابن إياس: بدائع الزهور، ج5، ص177؛ ابن العماد: شذرات الذهب، مج10، ص161؛ عيسى(صلاح): رجال مرج دابق قصة الفتح العثماني لمصر والشام، دار الكرامة، مصر، ط1، 2021م، ص226.
67. ابن إياس: بدائع الزهور، ج5، ص139-152-156-162.
68. باب زويلة: وضعه القائد جوهر الصقلي عند بناء القاهرة، وكان عبارة عن بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح والباب الحالي هو الذي بناه أمير الجيوش

بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله سنة 484هـ. المقرئ (أحمد بن علي ت 845هـ):
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي،
القاهرة، ط1، 1997م، ج2، ص98.

69. نافع: العلاقات العثمانية المملوكية، ص222، 223.

70. طقوش: تاريخ المماليك، ص550-552.

71. حمدي (حافظ أحمد): الدولة الخوارزمية والمغول، ص350.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. ابن إياس (محمد بن أحمد ت 930هـ): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى،
دار إحياء الكتب العلمية، 1972م، ج3، 2، 1.
2. ابن تغري بردي (يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، بيروت،
ط1، 1992م، ج7.
3. الصفي (خليل بن أيوب ت 764هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي
مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2000م، ج24.
4. الصيرفي (علي بن داود ت 825هـ): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح:
حسن حبشي، دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، 1971م، ج1.
5. ابن طولون (محمد بن علي ت 953هـ): اعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق
والشام الكبرى، تح: عبد العزيز خطاب، مطبعة جامعة عين شمس، 1973م.
6. ابن عبد الظاهر (محي الدين ت 692هـ): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح:
الخويطر، الرياض، ط1، 1976م.
7. ابن العماد (أحمد بن محمد ت 1089هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب دار
المسيرة، بيروت، ط2، 1979م، ج7.

8. العيني(محمود بن أحمد ت855هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان حوادث سنة 699-707هـ، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية، دم، 1992م.
9. أبي الفداء(إسماعيل بن علي ت732هـ): تقويم البلدان ، دار صادر،(د.ت).
10. القلقشندي(أحمد بن علي ت 756هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب الخديوية، القاهرة، 1914م، ج4،3.
11. ابن كثير(إسماعيل بن عمر ت774هـ): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط7، 1988م، ج14.
12. المقرئ(أحمد بن علي ت 845هـ): البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تر: فوستفالد، ف، دراسات غوتغن، فاندنهورك، 1847م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تح:محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ج2-7.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم ،مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1997م، ج2.
13. ابن أبيك الدواداري(أبي بكر بن عبد الله ت 736هـ): كنز الدرر وجامع الغرر، تح: هانس رويمر، المعهد الألماني، القاهرة، 1960م، ج9.
- ثانياً: المراجع:
1. إسماعيل(اكتمال): الحملات المغولية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية على بلاد الشام، دار رسلان، دمشق، 2008م.
2. البهجي(إيناس حسني): دولة المماليك البداية والنهاية، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، 2015م.

3. الحسين (خليل): العصر العباسي الرابع تاريخ المماليك، منشورات جامعة حمص، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2017م.
4. حسين (عبد الله): المسألة الهندية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، د.ت.
5. حمدي (حافظ أحمد): الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1949م.
6. الزيدي (مفيد): العصر المملوكي، دار أسامة، 2009م.
7. الصلابي (علي محمد): دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2009م.
8. الصياد (فؤاد عبد المعطي): المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ج1.
9. طقوش (محمد سهيل): تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط1، 1997م.
10. عاشور (سعيد عبد الفتاح): المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة، القاهرة، 1992م.
- العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 1976م.
- أصواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964م.
- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م.
11. عبد الحكيم (منصور): تيمور لنك إمبراطور على صهوة جواد، دار الفكر العربي، دمشق، د.ت.
12. عطاء (زبيدة): بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، دار العلم العربي، القاهرة، ط1، 2013م.
13. العريني (الباز): المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
14. علي (علي السيد): العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الإسكندرية، ط1، 1996م.

15. عيسى(صلاح): رجال مرج دابق قصة الفتح العثماني لمصر والشام، دار الكرامة، مصر، ط1، 2021م.
 16. فهمي(نعيم زكي): طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1973م.
 17. مبارك(علي باشا): الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر، ط1، 1888م.
 18. مصطفى(نادية محمود): العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1996م.
 19. المطوي(محمد العروسي): الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، د.م، 1982م.
 20. نافع(غيثاء أحمد): العلاقات العثمانية المملوكية، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005م.
- ثالثاً : الملاحق

الأسرى في العهد العثماني بين (1519-1830م)

(دراسة مقارنة بين الجزائر وإيطاليا)

د. علي إبراهيم*

-ملخص-

شكل البحر المتوسط خلال العهد العثماني فضاء للصراع والتفاعل بين ضفتيه الشمالية والجنوبية ، حيث امتزجت التجارة بالحرب ، والتحالف بالمواجهة والأسر بالتبادل وقد مثل الأسرى ظاهرة مركزية في هذه العلاقات المتشابكة ، إذ لم يكونوا مجرد ضحايا للعمليات العسكرية بل أصبحوا فاعلين في شبكات دبلوماسية واقتصادية وثقافية معقدة ، وتعد المقارنة بين تجربتي الجزائر وإيطاليا في التعامل مع الأسرى خلال الحقبة العثمانية مجالاً خصباً لاستكشاف تنوع هذه الظاهرة، وتعقيداتها نظراً لموقع الجزائر كإيالة عثمانية في المغرب الأوسط، وموقع إيطاليا كمجموعة من الدول والإمارات المتنافسة على الضفتين الشمالية والشرقية للمتوسط، ويسعى هذا البحث إلى تجاوز السرد التقليدي الذي يختزل الأسرى ضمن إطار الجهاد البحري أو القرصنة والانتقال إلى تحليل بنيوي ومقارن يستجلي أوجه الشبه والاختلاف في أنظمة الأسر وظروف الاحتجاز وآليات الفداء والتبادل.

* أستاذ مساعد -قسم التاريخ -اختصاص تاريخ حديث ومعاصر - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة اللاذقية - اللاذقية -سورية.

الأسرى في العهد العثماني بين (1519-1830م)

(دراسة مقارنة بين الجزائر وإيطاليا)

الكلمات المفتاحية : الأسرى ، العهد العثماني ، الجزائر ، إيطاليا ، السجون

(Prisoners of War in the Ottoman Era (1519–1830)

(A Comparative Study between Algeria and Italy)

***Dr. Ali Ibrahim**

–Abstract–

During the Ottoman era, the Mediterranean served as a theater of both conflict and interaction between its northern and southern shores—a realm where trade mingled with warfare, alliances with confrontation, and captivity with exchange. Captives were central figures in these intricate dynamics; far from being mere casualties of military operations, they became active participants in complex diplomatic, economic, and cultural networks. Comparing the experiences of Algiers and Italy regarding captives during the Ottoman period offers a fertile ground for exploring the diversity and complexity of this phenomenon. This is particularly significant given Algiers' position as an Ottoman **eyalet** (province) in the central Maghreb, contrasted with Italy's

*Associate Professor – Department of History – Specialization in Modern and Contemporary History– Faculty of Arts and Humanities – Latakia University – Latakia – Syria.

status as a collection of competing states and principalities spanning the northern and eastern Mediterranean shores. This research seeks to move beyond the traditional narrative that reduces the issue of captives to the frameworks of maritime *jihad* or piracy, shifting instead toward a structural and comparative analysis that elucidates the similarities and differences in captivity systems, detention conditions, and the mechanisms of ransom and exchange.

Keywords: prisoners, Ottoman era, Algeria, Italy, prisons

مقدمة :

قضية الأسر والرق قديمة قدم التاريخ فخلال فترات التاريخ الإنساني التي اتسمت بالصراع بين القبائل أو الدول كانت قضية الأسرى تشكل نواة العلاقات بين هذه الأطراف، فيما يصبح هؤلاء الأسرى عبيداً يسخرون لخدمة الأقوياء أو يتم افتدائهم بدفع مبالغ مالية أو عن طريق التبادل .

شكل البحر المتوسط خلال العصر الحديث المبكر مسرحاً لصراع وجودي متعدد الأبعاد بين العالمين الإسلامي والمسيحي تجاوز حدود المواجهات العسكرية المباشرة ليشمل شبكة معقدة من الأسر والاسترقاء والافتداء ولم يكن وقوع آلاف البشر في الأسر على ضفتي المتوسط ظاهرة هامشية بل مثل آلية اقتصادية واجتماعية وسياسية راسخة أعادت تشكيل العلاقات بين الدول والمجتمعات المتوسطية .

تعد إبالة الجزائر العثمانية بحكم موقعها الاستراتيجي وقوتها البحرية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين من أبرز الفاعلين في هذا النظام إذ استقبلت أعداداً ضخمة من الأسرى المسيحيين الأوروبيين .

أما المدن الإيطالية فقد عرفت بدورها لا سيما جنوة وليفورنو ونابولي وروما حضوراً متزايداً لأسرى المسلمين من شمال إفريقيا والمناطق العثمانية عمل معظمهم في تجذيف السفن الحربية أو في أعمال حرفية مختلفة.

أهمية وسبب اختيار البحث :

تتبع أهمية هذا البحث من كونه يعالج إحدى القضايا الإنسانية والتاريخية المعقدة في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال الحقبة الحديثة المبكرة من خلال مقارنة مبتكرة بين نموذجين قلما يتم الجمع بينهما بهذه الطريقة، حيث تتدر الدراسات التي تقارن بشكل مباشر ومنهجي بين أوضاع الأسرى في الضفة الجنوبية للمتوسط والضفة الشمالية فمعظم الدراسات السابقة ركزت إما على الجهاد البحري من منظور عثماني أو على القرصنة من منظور أوروبي إيطالي فجاء البحث متجاوزاً لتلك النظرة الأحادية ليقدم صورة متكاملة ، كما يكسر البحث الصورة النمطية السائدة في الغرب عن البرابرة المسلمين الوحشيين مقابل الضحايا المسيحيين وفي المقابل يتجاوز السردية الإسلامية التي قد تركز على الحروب الصليبية والعدوان الأوروبي عبر المقارنة، وبالتالي يمكن فهم الظاهرة كجزء من صراع حضاري واقتصادي متبادل حيث كان الطرفان فاعلين ومتأثرين في آن واحد .

أما من الناحية الزمنية فقد شكلت سنة 1519م نقطة تحول حاسمة حيث دخلت الجزائر رسمياً تحت راية الدولة العثمانية واستمر هذا الارتباط السياسي والإداري بشكل متواصل حتى سنة 1830م وهو العام الذي شهد سقوط الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي هذا الامتداد الزمني لأكثر من ثلاثة قرون يمنح القارئ إطاراً تاريخياً متماسكاً لدراسة تطور ظاهرة الأسر دون انقطاع على عكس الفترات السابقة التي كانت تتسم بالتشردم السياسي كما أن تلك الفترة شكلت ذروة النشاط البحري لكلا الطرفين الجزائري والإيطالي .

إشكالية البحث :

ينطلق البحث للإجابة عن إشكالية رئيسية تتجلى في تفسير الازدواجية في ظاهرة الأسر بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد العثماني، وإلى أي مدى تكشف المقارنة بين التجريبتين عن وجود نظام متوسطي موحد لإدارة الأسرى يتجاوز الاختلافات الدينية والقانونية والحضارية بين الصفتين ؟

تدرج تحت هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية على النحو التالي :

1- إلى أي مدى يمكن اعتبار عمليات الأسر والسبي في المتوسط صناعة، أو اقتصاداً منظماً متبادلاً بين الصفتين وليس مجرد نتيجة ثانوية للحروب والقرصنة ؟

2- كيف كانت تمارس الشعائر الدينية من قبل الأسرى في كل من المجتمعين وهل كان التسامح الديني يمنح استراتيجية لتثبيط الهروب، والحفاظ على سلعة الأسير أم نابعاً من قناعة دينية ؟

3- بمقارنة الظاهرتين ما هي العوامل التي جعلت اعتناق الإسلام من قبل الأسرى المسيحيين في الجزائر أكثر شيوعاً، وقبولاً من اعتناق المسيحية من قبل الأسرى المسلمين في إيطاليا وهل كان ذلك خياراً حراً أم استراتيجية للبقاء والترقي الاجتماعي ؟

4- ما هي الطرق التي كان يتم فيها الحصول على الأسرى وما هي أهم أماكن إقامتهم في كلا البلدين ؟

الحدود الزمنية والمكانية :

الحد الزمني : يتناول البحث الفترة الممتدة من (1519-1830).

الحد المكاني : السواحل الشمالية والجنوبية للبحر المتوسط والمناطق المحيطة بها .

مصطلحات البحث :

الأسير : هو الفرد الذي تم احتجازه قسراً خلال صراع مسلح أو عملية قرصنة وجرّد من حريته وحقوقه المدنية وتحول إلى سلعة أو ورقة ضغط ويتجاوز هذا التعريف المفهوم العسكري الضيق ليشمل المدنيين الذين تم أسرهم في غارات بحرية وساحلية.

العثمانيين : هم سلالة تركية إسلامية حكمت إمبراطورية واسعة لأكثر من 600 عام من (1299-1923م) ينتسبون إلى عثمان بن أرطغرل زعيم قبيلة قاياي التركمانية وسعوا إمارتهم بالغزو والفتوحات حتى تحولت إلى واحدة من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ .

منهج البحث :

تم الاعتماد في هذا البحث على المنهج التاريخي المقارن الذي يقوم على مقارنة مجتمعات أو ظواهر أو مؤسسات بهدف تحديد أوجه الشبه والاختلاف، و سيجاول من خلاله على وضع الأسرى في كل من الجزائر وإيطاليا من طرق وصولهم إلى أماكن إقامتهم وطبيعة معاملتهم .

1- مفهوم الأسر والأسرى :

قبل أن نخوض في إعطاء تعريف لأسير الحرب فإننا نحاول تعريف هذا الأخير لغة أولاً ثم تعريفه اصطلاحاً ثانياً .

1- لغة :

لكل كلمة اشتقاق لغوي ومدلول وكذلك كلمة الأسر فقد كان لها مدلولاتها الخاصة كالسبي والرق والفداء والأسر هو الحبس والشد والأخذ والخلق والأسر⁽¹⁾ وفي هذا يقول ابن منظور: "أسره يأسره أسراً وإسارة بالإسار، وهو القيد ويكون الحبل الكثاف ومنه يسمى الأسير وكانوا يقتادونه بالقد فسمي كل أخيد أسير"⁽²⁾، وكما جاء في القاموس المحيط الأسير هو الأخيد المقيد والمسجون⁽³⁾.

كما يعرف الأسير على أنه الذي قبض عليه، وذهبوا به محروساً ينتشرون في حاجاتهم ويذهبون إلى العمل الذي كلفوهم به وهم يباعون في الأسواق⁽⁴⁾، كما يمكن نعتهم بالعبيد وهم الذين تم أسرهم مع أمتعتهم البحرية أو أثناء غاراتهم على شواطئ البحر المتوسط كإسبانيا وإيطاليا⁽⁵⁾.

أيضاً يمكن القول الأسير جمعها أسرى أو أسارى وأسراء وهو المقبوض عليه أما مصدر كلمة أسير فهو الفعل أسر بمعنى أمسك، وأخذ وقيد وهو القيد الذي يشد به الأسير والأسير في الفقه الإسلامي والشرعية ذلك المقاتل في صفوف الأعداء، والذي تم القبض عليه في أرض العدو⁽⁶⁾.

ويقال أسرت الرجل أسراً وإساراً فهو أسير ومأسور والجمع أسرى وأسارى ويقال أيضاً أسرت الرجل أسراً أو إساراً، وهو بذلك يعني كل محبوس في قيد أو سجن أسير، ويقال أيضاً أسره أسراً أي قبض عليه

(1) عامر ، عبد اللطيف .(1982). أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ص78.

(2) ابن منظور ، لسان العرب ، ص78.

(3) الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد (ت817هـ/1415م). (2008). القاموس المحيط ، دار الحديث ، القاهرة ، ص54.

(4) عبد القادر ، نور الدين .(2006). صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها ~ إلى انتهاء العهد التركي ، دار الحضارة ، الجزائر ، ص64.

(5) السليماني ، أحمد .(1989). تاريخ مدينة الجزائر، ديوان المطبوعات ، الجزائر ، ص38.

(6) نعاس ، نوري .(2025). أحكام الأسير وفق المنظور الحضاري الإسلامي ، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية ، الجزائر ، م18، ع4، ص4.

وتعني أيضاً أسلم نفسه أسيراً⁽¹⁾، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: "ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً"⁽²⁾.

وذهب الرازي لما سبق في تعريف الأسير فقال: "جمع أسير وهو مأخوذ من الإِسار وهو العقد الذي يشد به كالحبل أو السلسلة، فيقال أسره يأسره أسراً أي شده بالإِسار لئلا يفلت وسمي كل أخيد أسيراً وإن لم يؤسر"⁽³⁾.

-اصطلاحاً

تعود جذور مصطلح الأسر إلى اللغة اللاتينية (capere)، والتي تعني يأخذ أي أنه من يقع في يد قوم بينهم، وبين قومه عداوة يتوقع منها قيام حرب مسلحة، ويشترط في هذا الأسير انتماءه إلى أعداء أسرته وقد يكون من المحاربين وقد لا يكون كذلك⁽⁴⁾.

يعرف الماوردي الأسرى بأنهم الرجال المقاتلون من الكفار إذا ظفر المسلمون بأسراهم أحياء أو بعد انتهائهم أو قبل بدئها⁽⁵⁾، كما يمكن تعريفهم على أنهم مجموعة من الأفراد رجال ونساء وأطفال يتحولون

⁽¹⁾ محمود، محمد حنفي. (2006). جرائم الحرب أمام القضاء الجنائي الدولي، دار النهضة العربية، مصر، ص207.

⁽²⁾ سعد الله، أبو القاسم. (د.ت). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ص154.

⁽³⁾ الرازي، أبو عبد الله محمد زين الدين بن أبي بكر عبد القادر (ت666هـ/1268م). (1995). مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ج1، ص7.

⁽⁴⁾ قرياش، بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830). (2016). أطروحة دكتوراه منشورة، جامعة معسكر، الجزائر، ص50.

⁽⁵⁾ الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ/1059م). (1989). الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة، ج1، ص207.

إلى عبيد يباعون، ويشترون مثل السلع في الأسواق بالمدن الكبرى وينتمون إلى عائلات، ومجتمعات متباينة الجنسيات.⁽¹⁾

هو كل محبوس في قيد أو سجن أسر حتى ولو لم يشد بالقيود والمقصود بأسير الحرب هو تعويق الشخص المقاتل، والحد من حريته بإبقائه مشلول الحركة حتى لا يعود ثانية إلى مواصلة القتال في ساحة المعارك، ولا يفك أسره حتى انتهاء الحرب.⁽²⁾

وفي القاموس الفقهي ورد تعريف الأسير على النحو التالي: "الأسير المأخوذ من الحرب يستوي فيه المذكر والمؤنث، ويقال رجل أسير لأنه فعلياً بمعنى المفعول ما دام جارياً على الاسم فيقال رجل أسير وامرأة أسير فالمذكر، والمؤنث فيه سواء".⁽³⁾

أما الأساتذة اللاهوتيين⁽⁴⁾ فيعرفون الأسرى من خلال الكتاب المقدس بقولهم: "أنها مأخوذة من الإنسان الذي يؤخذ أسيراً في الحروب وتجرد منه حريته مع تعريضه للتعذيب".⁽⁵⁾

2- طرق الوقوع في الأسر لكل من الجزائريين والإيطاليين :

1-القرصنة :

⁽¹⁾ عمورة ، عمور .(2006). الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى 1962م الجزائر خاصة، دار المعرفة ، الجزائر ، ص229.

⁽²⁾ البستاني ، فؤاد إكرام .(1986). منجد الطلاب ، دار المشرق ،بيروت ،ص8.

⁽³⁾ المرشدي ، الحارث بن غازي .(1432). الوجيز في أحكام الأسير المسلم ، دار الملاحم ، السعودية ، ص13.

⁽⁴⁾ لقب ارتبط عند اليهود والنصارى بالعالم العارف بالعقائد المتعلقة بالله وهو علم يبحث عن وجود الله وذاته وصفاته ويقوم عندهم مقام علم الكلام عند المسلمين . أحمد . مصطفى أحمد .(2004). الموسوعة الجغرافية ، دار العلوم ، القاهرة ، ج3 ، ص378.

⁽⁵⁾ أحلام ، لغريب .(2018). أسرى الحروب الصليبية دراسة تاريخية (491-687هـ/1098-1191م)،رسالة ماستر منشورة ، جامعة قلمة ، الجزائر ، ص15.

تعتبر القرصنة محور مهم بين الجزائر والدول الأوروبية في العلاقات خلال القرنين 16 و 17 اعتبرا القرن الذهبي للقرصنة البحرية وتعتبر المصدر الأول لظهور الأسرى في الجزائر⁽¹⁾، هذا وقد وصفت القرصنة في بداية القرن السادس عشر بأنها استراتيجية تهتم بشن الحملات ، ولذلك ارتبطت القرصنة بتلك الحروب التي قامت في أوروبا، ثم اتسع نطاقها مع ظهور الدولة العثمانية على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وبذلك اتخذت القرصنة منحى آخر منفصل عن الحروب مما أدى إلى اتساع هذه الظاهرة ، وتطور عملياتها وتعدد اتجاهاتها وبالأخص خلال القرن السابع عشر الميلادي الذي أطلق عليه قرن القرصنة⁽²⁾ حيث كان البحارة يقتادون أعداداً هائلة من الأسرى الأوربيين إلى مدينة الجزائر فالمصادر الأوروبية تشير إليهم بأنهم كانوا عبيداً وأرقاء في كامل الأراضي العثمانية بينما تعتبرهم الجزائر أسرى حرب⁽³⁾.

في الطرف المقابل كانت ثمة عدة عوامل ساعدت على ظهور عمليات القرصنة من جانب الإيطاليين والبنديقية وجنوة بصورة خاصة كان في مقدمتها طبيعة العلاقات التي جمعتهم مع الممالك وما تخللها من توتر لا سيما خلال عهد السلطان إينال⁽⁴⁾ الذي اتبع سياسة التضيق على التجار الأجانب بمن فيهم الإيطاليون لا سيما الفترة التي أعقبت سقوط القسطنطينية سنة (857هـ/1453م)، وبلغ ذلك التوتر

⁽¹⁾ مروش ، المنور .(2009). دراسات عن الجزائر في العهد العثماني العملة -الأسعار - المداخل ، دار القصبية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ج1، ص98.

⁽²⁾ سعود ، إبراهيم .(2011). القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية نموذجاً ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، الجزائر ، ع11، ص149.

⁽³⁾ هلايلي ، حنفي .(2007). بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني ، دار الهدى للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص64.

⁽⁴⁾ السلطان إينال : الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أبنال العلاني الظاهري ثم الناصري وهو السلطان السادس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والثاني عشر من الجراكسة وأولادهم ، تسلطن بعد خلع الملك المنصور عثمان في صبيحة يوم الإثنين ثامن شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، وأصل الملك جركسي جلبه خواجه علاء الدين إلى مصر فاشتراه الملك الظاهر برفوق ودام إينال في الرق حتى أعتقه الملك الناصر فرج وجعله في أواخر دولته خاصكياً .ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن (ت874هـ/1470م). (1997). مورد اللطافة في من ولي السلطة والخلافة ، تحقيق : نبيل محمد عبد العزيز أحمد ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ج2، ص168

ذروته سنة(889هـ/ 1511) عندما أقدم المماليك على أسر اثنين من البنادقة كان يحملان خطاباً إلى قنصل البندقية في الشام والإسكندرية من الشاه الصفوي حيث تأكد الغوري⁽¹⁾ من وجود اتصالات بين البندقية والصفويين⁽²⁾، ومن الأسباب التي دفعت الإيطاليين للتوجه نحو الحوض الغربي للمتوسط مسألة اكتشاف رأس الرجاء الصالح فشككت تلك المنطقة مجالاً حيوياً لهم⁽³⁾.

وفي السياق ذاته عمل البنادقة على كسب ثقة العثمانيين والأوربيين بشكل عام فقد رأى فيهم العثمانيون أنه من الضروري إقامة علاقة جوار حسنة معهم ليتمكنوا من مجابهة الخطر القادم من الشرق (الصفويين)، كما أن البنادقة من وجهة نظر الأوربيين متمرسون في شؤون البحر والتجارة ولا يمكن الاستغناء عنهم مستغلين قدم علاقاتهم بالمغرب والمشرق⁽⁴⁾.

ظهر الدور الحقيقي للبندقية في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للمتوسط عندما شرع السلطان العثماني سليمان القانوني⁽⁵⁾ في توجيه ضربات قوية إلى السواحل الإيطالية الخاضعة للملك

(1) قانصوه الغوري (850-922هـ/1446-1516م): هو الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري الجركسي الأصل وهو آخر سلاطين الدولة المملوكية البرجية عين في عدة وظائف ثم أصبح ملكاً على مصر والشام فيما بين (906-922هـ/1501-1516م) وظل سلطاناً على دولة المماليك إلى أن قتل في معركة مرج دابق شمال حلب بعد هزيمته أمام القوات التركية بقيادة سليم الأول . عبد المنعم ، صبحي . (1994). الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين ،العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ،ص60-62.

(2) أوزتونا ، يلماز.(1988). تاريخ الدول العثمانية، مؤسسة فيصل للتمويل ، تركيا، ص233.

(3) فهم ، نعيم زكي .(1973). طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، المكتبة العربية ، القاهرة ، ص132.

(4) الشيخ ، عبد الرحمن عبد الله .(1986). دور المسلمين في تشكيل اقتصاد إمبراطوريتي جنوة والبندقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، المجلة التاريخية المغاربية للعهد الحديث والمعاصر ، تونس ، ع43، ص159.

(5) سليمان القانوني(926-973هـ/1520-1566م) : هو عاشر سلاطين آل عثمان ولد في طرابزون سنة(1494م) وجلس على العرش بعد وفاة والده سليم عام(926هـ/ 1520م) تسلم زمام السلطة ووضع لها عدة قوانين في الإدارة لذلك لقب بالقانوني ومن أبرز الانتصارات التي حققها السيطرة على بلغراد عام(899هـ/ 1521م)، وسيطر على رودس عام(928هـ/ 1522م)، وانتصر في معركة موهاكس على المجر عام(903هـ/ 1525م)، ثم حاصر فيينا وأقام عدة تحالفات مع أوروبا خاصة فرنسا وتوفي سنة(973هـ/ 1566م) . طوباش، نوري.(2016). العثمانيون رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، دار الأرقم، استانبول، ص197.

الإسباني شارل الخامس⁽¹⁾، وعلى الرغم من الامتيازات المتعددة التي منحها العثمانيون للبنادقة فإن الشواهد التاريخية أثبتت ضلوعهم في ذلك الصراع وقوفاً إلى جانب الإسبان كوجود 80 سفينة بندقية ضمن الأسطول الإسباني بقيادة أندري دوريا² (3) لمهاجمة السواحل المغربية بالعموم (4).

أما بالنسبة لجنوة فقد كانت تتمتع بحضور هام متميز في الحوض الغربي للبحر المتوسط منذ العصور الوسطى فقد ربطها مع بلاد المغرب معاهدات واتفاقيات مكنتها من ممارسة التجارة البحرية وعندما تطلع البرتغاليون إلى السيطرة على الطرق التجارية تمهيداً لاحتكارها فارتموا بأحضان الإسبان بقصد الحماية مما أتاح لهم فرصة ممارسة القرصنة فضلاً عن استمرار إسبانيا في مخططاتها التوسعية للسيطرة على المغرب فقدم الجنويون لهم كل العون والمساعدة كي يضمّنوا لأنفسهم الاستمرار في تحقيق المكاسب

(1) شارل الخامس : هو ابن فيليب لويو ولي عهد إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ووالدته إيزابيلا ، ولد في شمال غرب أمريكا سنة 1500 بفرح محمود في يوم عيد القديس متياس وهو أكبر أبناء فيليب الجميل وهو بذلك ينتمي إلى عائلة آل هابسبورج النمساوية نسبة إلى جده مكسمليان الأول عمد في كنيسة سان جان وهناك تم اختيار اسم تشارلز وإطلاقه عليه تخليداً لذكرى جده الأكبر تشارلز دوق بورغندي نشأ تحت رعاية عمته مارغريت النمساوية في مالينيس حيث موطن طفولته وصل إلى حكم إسبانيا سنة 1518م ومن ثم إمبراطور الإمبراطورية المقدسة سنة 1519م وخلال شتاء عام 1557م كان تشارلز يعاني من عدة نوبات مرضية خطيرة توفي سنة 1558م بعد معاناة مع نوبات النقرس وإصابته بمرض الملاريا ودفن تحت المذبح في كنيسة مدينة يوستي .عامر ، عيدة إغيل .(2024). الإمبراطور شارل الخامس 1519-1556م المسار والأعمال ، رسالة ماجستير منشورة ،جامعة تيزي وزو ،ص43-16

(2) رجل حرب من جنوة يعد من أميرالات البحار الكبار في القرن 16م خدم بسفنه البابا إينوسونو والعديد من الأمراء ليعين بعدها على رأس الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط في عهد فرانسوا الأول وبعد خلافات مع الملك الفرنسي انتقل إلى خدمة شارلكان سنة 1528م فأصبح أهم أميرال بحري إسباني في البحر المتوسط بهذه الصفة قاد وشارك في العديد من الحملات على بلدان المغرب وبعد وفاته سنة 1560م استمرت عائلته في خدمة ملوك إسبانيا خلال القرن 16م . عباد ، صالح .(2012).الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830م)، دار هومة ، الجزائر ،ص58.

(3) عرف عن آل دوريا عداءهم الشديد للمغرب بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة فقد قاد أفراد من هذه العائلة حملات عديدة على الجزائر . الجبالي ، عبد الرحمن بن محمد .(2009). تاريخ الجزائر العام ، دار الأمة الجزائرية ، الجزائر ،ص37.

(4) العقاد ، صلاح .(1980).المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،ص9-15.

من جراء ممارسة القرصنة فساعدوا في احتلال جبل⁽¹⁾ سنة(891هـ / 1513م) ليتمكن الأخوة بربروسا⁽²⁾ من افتكاكها من أيدي القراصنة الجنوبيين عام(919هـ / 1514).⁽³⁾

وبالتالي يمكن القول أن الإسبان لم يجدوا بداً من استيعاب القراصنة الجنوبيين والسماح لهم باستخدام موانئهم نظراً لأن حاجتهم لهم كانت ضرورية وملحة ومما زاد في أهمية اعتماد الملك الإسباني شارل الخامس على جنوة أن مسرح الأحداث التي كان يدور عليه الصراع ضد العثمانيين كان يقتضي ضرورة امتلاكه لأسطول ضخم كان الجنوبيون يشكلون العمود الفقري لبناء الأسطول.⁽⁴⁾

2- الغارات البحرية والحربية :

لم تكن القرصنة المجال الوحيد للحصول على الأسرى بل أدت الغارات الأوروبية الكثيرة ضد الجزائر والقرصنة الكثيفة التي مورست ضد سواحلها إلى قيام البحرية الجزائرية بدورها بعمليات حربية ضد أوكار أولئك القراصنة والعمل على تحرير أسراهم كما نفذت البحرية الجزائرية عمليات هجومية اعترضت

(1) جبل : هو أحد أهم مراسي مدينة ميلة بل لكل المناطق المجاورة على ضفة البحر المتوسط .ميلودي ، زهرة .(د.ت)، دور المراسي في نشاط التجارة الساحلية وأثره على التجارة المتوسطية بالمغرب الأوسط من القرن 4/10م إلى 6/12م،مجلة جامعة عبد الحميد مهري ، قسنطينة ، ص30.

(2) المقصود بهم عروج واسمه الحقيقي أروج وهو تركي معناه رمضان لأن الأتراك كانوا يسمون أبنائهم ببعض شهور السنة الهجرية ولا يلفظ الأتراك حرف العين و عروج يحتل المرتبة الثانية بين أخوته بعد أخيه إسحاق أما التاريخ المرجح لولادته فهو 1470م وهو أصغر من أخيه إسحاق بسنتين وأكبر من خير الدين بسنتين وعرفوا باسم بربروسا بسبب لحيتهم الشقراء أما البحارة الأتراك فيدعونه بابا عروج احتراماً له أما خير الدين فاسمه خضر واشتهر بلقب بربروس وأطلق عليه السلطان سليم الأول لقب خير الدين ولد سنة 1472م بعد أخيه عروج بسنتين عمل بالتجارة مع أخيه عروج مطلع شبابه وانتهى به المطاف في تونس توفي ودُفِن في تربة ساحل بشكتاش باستنبول .بن أشهنو ، عبد الحميد .(1972).دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر ، دار الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر ،ص38-39؛درج ، محمد .(2012) . الدخول العثماني للجزائر ودور الأخوة بربروس 1512-1543م، شركة الأصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر ،ص162-153.

(3) سعود ، إبراهيم .(2007).لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني ، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية ، ع7، ص206.

(4) الضياف ، أحمد .(1976).إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الدار التونسية للنشر ، تونس ج2،ص18.

السفن الأوروبية المختلفة، حيث كانت معظم الشواطئ الأوروبية وجزرها هدفاً للبحارة الجزائريين، وتم التركيز على السواحل الإسبانية، والبرتغالية والفرنسية والإيطالية وسواحل جنوة ومالطة⁽¹⁾ حيث كان جل القراصنة الأوروبيون يتركزون ويعدون الهجمات على الجزائر⁽²⁾.

يذكر ألونزو دو كونتيراس وهو أحد صيادي العبيد في اعترافاته أنه كان ينهب سواحل المغرب والشرق الأوسط، ويفتخر بذلك قائلاً: "لقد حصلنا على الكثير من الغنائم لدرجة يصعب حصرها، وعاد الجميع أثرياء وقد قمنا بسرقات لا تصدق في البحر والبر".⁽³⁾

كان الخوف الأكبر الذي يواجه البحارة والركاب هو الخطف في عرض البحر حيث كان الإنسان هو من يشكل أخطر تهديد للإنسان فمواجهة غير متوقعة واعتداء ناجح كانا كافيين لإنهاء الحرية وبداية حياة مليئة بالعذاب والجحيم فقد كانت القرصنة الأوروبية نشطة للغاية، حيث كانوا يجوبون البحر المتوسط والأطلسي باستمرار، وكانت اعتداءاتهم على السفن الجزائرية في البحر كثيرة لا تعد ولا تحصى وكانت ممارسة اختطاف المسلمين في السواحل والبحار تتم إما من قبل قراصنة يعملون لحسابهم الخاص، أو من قبل أساطيل بأوامر رسمية، وكانت حالة الحرب مع الجزائر⁽⁴⁾ تبرر هذه الأعمال..⁽⁵⁾

⁽¹⁾ لشهب، سيف الدين. (2020). الأعمال الأدبية للأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني -ديسرفانتس نموذجاً، رسالة ماجستير منشورة، جامعة محمد بوضياف، ص17.

⁽²⁾ الصالح، صبحي. (1986). الحماية من القرصنة في نظر الشريعة الإسلامية أعمال أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، الدورة 9، ص185.

⁽³⁾ P.hubac.(1949). Les barbaresques.collections histories dquatre mer.berger levraut.paris.p161-162.

⁽⁴⁾ كانت الجزائر في حالة شبه حرب دائمة مع مختلف القوى المسيحية منذ إلحاقها بالدولة العثمانية رسمياً سنة 1520م وكان حكامها حريصون على تقوية دفاعاتها وقدراتها الحربية ودائماً على أهبة الاستعداد للتصدي للغارات الأوروبية المسيحية. دوغرامون، دالما. (2024). تاريخ الجزائر تحت الحكم التركي، تر: لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، ص120.

⁽⁵⁾ Melhamissi.moulay.(1986).les capitfs algeriens et Europe chretienne(1518-1830).edition enal.alger.p81.

3-أوضاع الأسرى في كل من الجزائر وإيطاليا :

1-في الجزائر :

حظي الأسرى بحماية من طرف السلطات العثمانية أثناء أسرهم وذلك خشية من أذى وسوء معاملة الأهالي، حيث أنهم كانوا على أنواع من نبلاء ومالكين وضباط السفن وتجار مسافرين برجوازيين بالإضافة إلى رجال البحر العاديين والفلاحين والفقراء (1).

لقد كانت الحالة الاجتماعية التي كان يتمتع بها الأسير في بلاده هي أكبر عامل في تحديد نوع المعاملة التي سيحظى بها في الجزائر حيث كانت الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها هؤلاء غير محددة لأنهم في أعالي البحار كانوا مثل الموتى تماماً لا يفرق بين إنسان وآخر لا من حيث الجنس ولا السن، ولا من حيث المكانة الاجتماعية فقد اختلف وضعهم من أسير إلى آخر فكل منهم مصيره مرتبط بسلوكه وحرفته والذي كان أحسن بكثير من وضع الأسرى المسلمين في الدول الأوروبية (2)، لقد كان هناك اختلافات في الروايات وشهادات الأسرى فمنهم من قال أنهم عوملوا معاملة سيئة بينما قال البعض الآخر أنهم عوملوا بطريقة حسنة وهو الرأي الذي يجمع عليه الأغلبية فأصحاب الرأي الأول يرجعون سوء تلك المعاملة إلى عدة أمور منها لا السيد السيئ والعمل الذي كلف به (3).

(1) شالر ، وليان .(د.ت). مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)،ص99.

(2) شويثام ،أزريقي .(2005). المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1514-1830م)، أطروحة دكتوراه، الجزائر ، ص 141.

(3) حشايشي ، هبة .(2018). الأسرى والسجون في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية (1519-1830م)، رسالة ماجستير ، جامعة 8،الجزائر ،ص34.

على الرغم من كثرة الكتابات التاريخية الأوروبية التي أبعدت صفة الإنسانية عن معاملة الأسير خلال العهد العثماني، حيث كان أغلب من أرخ لتلك الفترة هم التجار ورجال الدين ومذكرات الأسرى إلا أن ذلك لا ينفي وجود روايات تاريخية تبطل ما جاء به هؤلاء من ادعاء. (1)

فعلى سبيل المثال أشار توماس سميث للمعاملة الحسنة التي لقيها فوق السفينة الجزائرية التي أسرته في مياه البحر الأبيض المتوسط حيث قال: " فخلال فترة تواجدنا على متن السفينة عوملنا بطريقة حضارية كذلك التي توقعناها وأطعمنا من نفس الطعام الذي أكله الجزائريون ". (2)

يعتبر الجانب الصحي والديني من أهم الجوانب التي تعبر عن حالة الأسير الاجتماعية وتعكس واقعه حيث أنشأت المنظمة الدينية للثالوث المقدس مجموعة من المستشفيات في السجون خلال النصف الثاني من القرن 17م، وبتشجيع من السلطة الجزائرية وأول مستشفى أقامته المنظمة كان سنة 1551م في السجن الكبير (3)، وكانت تتم معالجة الأسرى فيه على اختلاف مذاهبهم (4)، وبالتالي فقد قدم هذا المستشفى خدمات جليلة في مجال العناية بصحة الأسرى الجسدية والنفسية. (5)

أما لو تم الاتجاه إلى الشق الروحي والديني فقد عرفت الجزائر بحرية ممارسة المعتقدات للأسرى وإنشاء الكنائس ومن أشهرها كنيسة سجن الباستارد والتي حملت اسم سانت ماري وكذلك وجدت أخرى داخل

(1) مشوشة ، سمير . (2018). الموارد البحرية للجزائر العثمانية خلال القرن 11-12هـ/17-18م ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، ص154.

(2) قرياش ، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، ص221.

(3) تابليت ، علي . (2014). بحوث في التاريخ الفترة العثمانية ، منشورات ثالة ، الجزائر ، ص136.

(4) كاتكارت ، مذكرات أسير الداوي كاتكارت قنصل أمريكا في المغرب ، ص102.

(5) وولف ، الجزائر وأوروبا ، ص296.

المستشفيات⁽¹⁾، كما كان هناك حرية لممارسة الطقوس والاحتفالات الدينية المسيحية بمختلف مذاهبها كعيد الميلاد وعيد الفصح وغيرها.⁽²⁾

كما كان هناك الكثير من الأسرى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام وقد حملوا اسم الأعلاج وكان يسميهم الأوروبيون المرتدين⁽³⁾، أما عن الدوافع والأسباب فقد تنوعت فقد كان أحدها الرغبة في التخلص من الأعمال الشاقة التي كانوا يقومون بها في حياة العبودية، وكذلك الإغراءات المقدمة من قبل المسلمين مقابل ذلك فضلاً عن ضعف الإيمان وعدم تحملهم لحياة الشقاء وكذلك الهروب من العقاب وسداد الديون المترتبة عليهم⁽⁴⁾، ولم تكن تلك الأسباب الوحيدة بل كانت رغبتهم في الدخول ضمن السلك الحكومي والترقي في المناصب العليا بالدولة من ضمنها أيضاً⁽⁵⁾

-في إيطاليا :

وفي الطرف الآخر فقد وصف ابن جبير الأسرى المسلمون في إيطاليا ووضعهم الصعب ومعاملتهم السيئة والفجائع التي يعانون منها بقوله : " يرسفون في القيود و يصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد والأسيرات المسلمات كذلك في أسواقهم خلاخيل الحديد فتفطر لهم الأفتدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً " .⁽⁶⁾

(¹) اخلف ، زينب .(2023).الممارسة الدينية والطقوس الاحتفالية للأسرى المسيحيين بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية ، مجلة عصور جديدة ،الجزائر ، م13، ع2، ص432.

(²) William.blake(1860).the history of slavery and the slave trade ohio.muller.p80

(³) محمة ،عائشة .(2018). الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس والسابع عشر للميلاد، رسالة ماجستير ، المركز الجامعي ، غرداية ،ص37

(⁴) خشمون ، حفيظة .(2006). مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية ، رسالة ماجستير ، قسنطينة ،ص104

(⁵) سينسر ، ولیم .(2006). الجزائر في عهد رياس البحر ، تح : عبد القادر زبايدية ، دار القصة ، الجزائر ،ص82

(⁶) ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد(ت614هـ/1217م) .رحلة ابن جبير ، دار القصة ، الجزائر ، ص230

وصفت حالة الأسرى المغاربة بشكل عام في إيطاليا بأنها تلين لها الصخور وتمزق فؤاد الكفور وترك الدموع في مدامعها تفور والقلوب في الصدور تمور ⁽¹⁾ هذا وقد كانت العديد من رسائل الأرقاء المسلمين المرسلة من أوروبا المسيحية مثل إيطاليا كانت تشير إلى شيء واحد هو المعاناة والعذاب الشديد، والرغبة في الحرية والعودة إلى الأوطان والأهل ولعل هاجس العذاب وصور المآسي التي وجهها الأسرى أمام مرهبهم الذي شل قواهم بما يحمله من عذاب وما يريه من فظاعة القسوة عبر عنه الشاعر علي الرفيعي :

وهدرت بالألم الكمين بخاطري المتوجع

متأجج الأحقاد مجروح الإباء الأروع

رغم السلاسل في يدي والسوط يلهب أضلعي. ⁽²⁾

كما عبر الأسرى عن الظلم الذي تعرضوا له وهم يرسفون بالأغلال شددت أعماقهم بالسلاسل وطاف بهم زبانية العذاب مسافات طويلة والسياط من ورائهم والأغلال في رقابهم تشد بعضها إلى بعض، وقد عاشوا أيامهم السود تحت رحمة هذه الأغلال حياة موحدة وعذاب موحد ونوماً بقولاً وتحركاً وسكوناً. ⁽³⁾ وفي رسالة كتبها أسير من جنوة عبر فيها عن مأساته فهو في حاجة إلى رؤية النور ومداعبة النسيم ونعمة الضوء والهواء يرمز بهما إلى الحرية والحياة الطليقة، وما أشد ألم الأسير حين يفقدها في الحاليتين فقد أراد للهواء النقي أن يملأ رئتيه وللنور الساطع أن يدغدغ مقلتيه ويتغلغل في أعماقه. ⁽⁴⁾

⁽¹⁾ المكناسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان (ت1213هـ/1799م). (1965). الإكسير في فكاك الأسير ،

تح : محمد الفاسي ، المعهد الجامعي ، الرباط ، ص19

⁽²⁾ سالم ، المعوش . (2003). شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية ، بيروت ،

ص208

⁽³⁾ A.S.P.F.BARABARIA.LETTERE.DEI SCHIAVI MUSULMANI.V1.P207

⁽⁴⁾ PO.CIT.P636

أما بالنسبة لحضور المرض عند هؤلاء الأسرى فهو مكثف وهو أيضاً نفسي وجسدي والثاني بليغ الألم وأما الأول فهو متفاوت له علاقة بصلابة الإرادة وعمق الإيمان والموقف ومما ورد حول ذلك نص من رسالة لأحد الأسرى يقول: "الحمد لله الذي كتب على نفسه بالبقاء والقدم وعلى عباده بالفناء والعدم" (1)، وفي هذا المنحى لم يكن هناك أي اهتمام من قبل الإيطاليين بأسراهم بل كانوا يتركونهم يقاسون ألم المرض حتى إذا مانت هي الأمر بقرب الوفاة رموه في دار العجزة ليلقى حذفه هناك (2).

كان قتل الأسرى المسلمين في إيطاليا وأوروبا بشكل عام، من الأمور الطبيعية فقد عمد الأوربيون إلى قطع أنوف وآذان المسلمين الذين يقعون أسرى لديهم ويقتلونهم بعد تعريضهم لعذاب شديد إلى حد لا يمكن للعقل تصوره وإدراكه (3)، ومن الدلائل على ذلك إحدى رسائل الأسرى فورد فيها ما يلي: "إذا مات الواحد فينا يقعد ثلاثة أو أربعة أيام وبعد ما يغسلونه ويكفونونه ويدفونوه وعند مرور جنازة الميت في طريقها للدفن يتعرض لها أبناء النصارى بالسباب والبصق كما تتعرض ممتلكات الميت للسرقة علينا" (4).

أما عن التنصير القسري للأسرى المسلمين في إيطاليا فقد تم تأسيس بيت التنصير أو بيت التعميد سنة (912هـ / 1543م) لإضفاء الشرعية على هذا الهدف أصدر البابا بول الثالث (5) براءة بابوية تجيز تعميد هؤلاء الأسرى وقد تم نشرها في سجل القرارات البابوية بتاريخ (927هـ / 1549م) تحت عنوان "BANDA SOPRA ALTENER SCHIAVI SCHIAVE IN ROMA" (6).

(1) OP.CIT.P639

(2) op.cit.p700

(3) التر ، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص101.

(4) A.S.P.F.BARABARIA.LETTERE.DEI SCHIAVI MUSULMANI.V1.P207

(5) بول الثالث : ولد في روما سنة 1468م وتم تعيينه على رأس الكنيسة البابوية في الفاتيكان 1534م حتى وفاته 1549م ومن أبرز ما قام به بول الثالث هو تأسيس بيت التعميد للأسرى المسلمين .

ENCLOPEDIA.(1949).ITALIANA.VZZVI.ROMA.P235

(6) A.S.P.F.BARABARIA.LETTERE.DEI SCHIAVI MUSULMANI.V1.P207

4- عملية افتداء الأسرى في كلا البلدين :

تعتبر عملية نيل الحرية من أسمى الغايات الإنسانية ، وخلال العهد العثماني شهدت الجزائر مجموعة من الوسائل والطرق التي من خلالها يتم الإفراج عن الأسرى وهي على النحو التالي :

1-الافتداء الذاتي:

كان من أكثر الأنواع شيوعاً والمعمول به في الجزائر وقد وجد هذا النوع مع عمل خير الدين في البحر حيث كانت جربة التونسية مركزاً له وكان يأسر المسيحيين من الجزر ويوزعهم على خدمة الأجفان ويطلب منهم الفداء مقابل 1000دينار من النحاس لكل رأس ويطلق سراحهم (1).

والجدير بالذكر هنا أن خير الدين كان يسمح لهم بمزاولة مختلف الأعمال في مدينة الجزائر حتى يتمكنوا من جمع الفدية المطلوبة بل وهناك من جمع أموال طائلة نتيجة لتلك الأعمال ومن أبرز الأمثلة على ذلك الأسير تيدنا والذي تمكن من أعتاق نفسه من باي معسكر باعتباره وزيراً له (2).

2-الافتداء عن طريق المنظمات الدينية المسيحية

-منظمة الثالوث المقدس: تأسست على يد يوحنا دي ماتا عام 1198م ويرجع السبب في تأسيسها بسبب رؤية في منامه لعبيدين بدا له أنه يتبادل بهم وفسرها بأنها عملية افتداء وجعلها هدفه الرئيسي وأسس أديرة هذا النظام في فرنسا وانتشر إلى جميع البلدان المسيحية إيطاليا إسبانيا ألمانيا إنجلترا بمعدل

(1) خشمون ، مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني ،ص41.

(2) لوماسكاريناس ،جواو كرفا .(2023). مذكرات الأسير البرتغالي جواو كرفا لوماسكاريناس في مدينة الجزائر 1621-1627م ، تر : لخضر بوطبة ، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع ، الجزائر ،ص193.

250 فرع وكان نصف العدد في فرنسا ⁽¹⁾، وهي أول مؤسسة في أوروبا افتدت الجمعية في عامها الأول 86 أسيراً في السجون المغربية ⁽²⁾، وبدأت رحلاتها للجزائر منذ عام 1540 وفي رحلتها الثانية تفاوضت لافتداء 200 أسيراً ⁽³⁾.

-منظمة سيدة الرحمة : المؤسس الحقيقي لها القديس بيتر نولاسكو تأسست في سنة 1218م في برشلونة بمباركة من الملك جيمس الأول الأرغواني والبابا غريغوري سنة 1235م تم تنظيمها والاعتراف بها ⁽⁴⁾، وقامت بين سنتي 1516-1602م ب73 مهمة افتداء أعتقت 12500 أسير ⁽⁵⁾.

-منظمة اللازاري : تأسست من قبل فانسان دو بول خلال القرن 17م ومن أجل تنسيق جهود هذه المنظمة أنشأ جمعية القساوسة ووضعها تحت اسم التنظيم اللازاري سنة 1633م وكان يرسلهم للإقامة في شمال إفريقيا بجانب القناصل بصفتهم كهان الكنيسة للقيام ببعض المهام والالتزامات من أجل الأسرى ⁽⁶⁾.

3- الافتداء عن طريق المعاهدات الدولية ووساطة القناصل :

كانت مسألة الأسرى من أهم القضايا بين الجزائر والدول الأوروبية واحتوت أغلب المعاهدات والاتفاقيات في بنودها على ضرورة حمايتهم وتحريرهم إما عن طريق عملية تبادل أو الفداء وكان القناصل هم من يتولون عملية التفاوض ⁽⁷⁾.

(1)

(2) ماخوفسكي ، ص116.

(3) مروش ، المنور .(2009). دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة -الأساطير-الواقع ، دار القصة للنشر والتوزيع ، الجزائر ،ص206.

(4) قرياش ، الأسرى الأوربيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1671-1830م، ص190.

(5) مروش ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة -الأساطير-الواقع، ص206.

(6) مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، ص42.

(7) رحمونة ، بليل .(2011). القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564-1830م ، رسالة ماجستير منشورة ، جامعة وهران ،ص195.

4-التحرر عن طريق الهروب والفرار :

تعتبر هذه الطريقة الأسهل والأخطر فكثير ما يتعرض فيها الأسير للعقوبات في حال تم القبض عليه مجدداً أما عن طرق الفرار فقد كان لها سبيلان إما عن طريق البر أو عن طريق البحر إلى السفن الأجنبية الراسية هناك.⁽¹⁾

5-نتائج الأسر في كل من الجزائر وإيطاليا :

1-أسواق العبيد :

بعد أن تتم عملية أسر الأبرياء كانوا ينقلون إلى العديد من المراكز التجارية الكبرى والتي كانت متخصصة ببيع وشراء العبيد وقد شهدت السواحل الشمالية للبحر المتوسط والجزر الرئيسية التي كانت تحت سيطرة الأوروبيين انتشاراً واسعاً لتجارة العبيد وكان التجار والباعة لهذه السلع البشرية متعددين فمنهم التوسكانيون والمالطيون والجنويون، والبنادقة وقادة القرصنة وقادة الجيش ومغامرون إسبان فقد كانت الحروب والغارات الناجحة تجلب لهم ثروات طائلة.⁽²⁾

وعلى الرغم من انتشار أسواق العبيد في العديد من المناطق إلا أن أشهرها على الإطلاق كان على النحو التالي :

(¹) أوزغلة ، محمد عبد الكريم .(2012).شهادات الأسر ومشاهد الكتابة ميغل دي سيرفانتيس في الجزائر 1575-

1580م، دار القصة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص29.

(²) Op.cit.p67

-مالطا :

كان قناصل هذه الجزيرة يتمتعون بخصائص ائتمانية مفتوحة لإبرام الصفقات وخلال القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين وجدوا في تجارة الرقيق ما يكفي لتلبية احتياجات مجد سفنهم الحربية في بلدانهم، وإن لم يكن ذلك الأسر للمسلمين سيجلب مجد للسفن الأوروبية فإنه كان يمول خزينة جلال الملك المسيحي.⁽¹⁾

-البندقية :

كانت جمهورية البندقية تزود سوقها جيداً في القرن السادس عشر الميلادي فقد كتب سينيلاي إلى قنصله في هذه المدينة قائلاً: " لا يمكنك أن تعمل شيئاً أكثر فائدة لخدمة الملك من أن تعمل على إرسال أكبر عدد ممكن من الأتراك إلى مرسيليا ويجب عليك اغتنام كل الفرص لشرائهم.⁽²⁾

-نابولي :

تخبرنا بعض التحقيقات وإن كانت موجزة أنه في سنة(975هـ / 1568م) كان هناك أكثر من 75 أسيراً من أصل مغربي من بين 210 أسرى في أسواق البندقية، وبعد بضع سنوات سنة(953هـ / 1575م) كان 17 منهم من الجزائر و 15 من تونس من بين 455 أسيراً.⁽³⁾

-جنوة :

⁽¹⁾ cgazel.abla.(2013). captifs et capivite dans la regence d alger.o.p.u.alger.pw120

⁽²⁾ Letter du 16 decmbre.(1901). 1686.citepar founier.un march de turcs.bill historique et philologique.p572.

⁽³⁾les capitfs algeriens et Europe chretienne(1518-1830).p28.

لم تبق جنوة بعيدة عن هذا التيار فقد أصبحت واحدة من أهم المراكز لتجارة الرقيق وتجمعه فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه في سنة (1162هـ / 1749م) تم بيع 34 مسلماً فيها وكان متوسط سعر الواحد منهم 250 ليرة.⁽¹⁾

سوق ليفورنو :

كانت هذه المدينة من المراكز الإيطالية الأكثر ازدهاراً حيث كانت تتوقف فيها السفن عند عودتها من الغزوات القرصنية فيبيع القرصنة ما فيها بما في ذلك العبيد⁽²⁾ واستقطبت هذه الأخيرة القرصنة الأوروبيون فتحولت بذلك إلى عاصمة للقرصنة شأنها في ذلك شأن مالطة⁽³⁾ حيث ذكر بروديل أن خلال الربع الأول من القرن السابع عشر شهد تدفقاً يزيد على عشرة آلاف أسير على ليفورنو وحدها.⁽⁴⁾ أما في الجزائر فقد برزت تجارة الرقيق في الجنوب الجزائري منذ القرن السادس عشر الميلادي بسبب إقبال تجار الشمال على الأسواق التجارية في الجنوب الجزائري بهدف شراء العبيد، وقد تركزت هذه التجارة في عدة مدن جنوبية مثل منطقة توات ورقلة.⁽⁵⁾

(1) Op.cit.p29.

(2) Calogero.piazza.(1978).dati sulle navigazione stefaniana dal1678al1716.in a c l.p9-11

(3) Mathiex.jean.(1978).trafic et prix de l'homme en mediterranee au xvll et xviii siecles in annals e s c ix.p157.

(4) Braudel.fernand .(1956).leconomie de la mediterrane au xvii siecles in c t .p157-197.

(5) فرج ، فرج محمد .(1977).إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،ص15-16.

2- سجون⁽¹⁾ الأسرى في كل من الجزائر وإيطاليا :

في بداية القرن السادس عشر لم تكن هناك سجون للأسرى وفي حالة عدم وجود غرف لنوم الأسرى ينامون في الممرات، أو على السطوح⁽²⁾، لكن مع أواسط القرن السادس عشر الميلادي أصبح هناك سجون وأماكن خاصة بهم حيث أن وجودهم كان مقصوراً على المدينة فمنهم من كان يقيم في السجون التابعة للدولة، ومنهم من كان يعيش عند الخواص ومنهم من اندمج في المجتمع الجزائري بعد اعتناقه الإسلام، وأصبح لهم شقق تقع بالقرب من الخازن وهي عبارة عن غرف كبيرة يأكلون وينامون بها بالإضافة إلى مطبخ خاص.⁽³⁾

إن فهم منشآت ومراف الأسرى يساعد على فهم وضعيّة الأسير بنوع من الدقة والتنظيم ومن أشهر السجون التي وجدت في الجزائر ما يلي :

-سجن البابلك⁽⁴⁾ :

(1) إن كلمة سجن جاءت من الكلمة الإسبانية بانو وتعني الحمام في البداية حيث كان العبيد يسجنون في الحمامات خلال فترة الليل وبعد تزايد عددهم بينيت لهم عمارات خاصة عرفت باسم السجون . قرياش ، بلقاسم .(بانيوات الأسرى المسيحيين في الجزائر خلال العهد العثماني (1619-1830م)،ص133.

(2) مرجع نفسه ،ص13.

(3) ميترون ، جبريت.(2011). يوميات أسير في الجزائر (1814-1816م)، تر : محمد زروال ، دار هومة للنشر والتوزيع ، الجزائر ص58.

(4) بابلك : مصطلح تركي قديم أخذهُ الأتراك من المغول والسلاجقة ومصطلح بابلك أصلك بكلك وهو مشكل من مقطعين بك ولك فأما بيك وتلفظ باي في الأصل هو لقب أبناء السلاطين الحائزين على لقب الباشوية وذريتهم ويقصد في الجزائر حكومة الباي وإدارته . كعوان ، فارس .(2019). المصطلحات الإدارية العثمانية في الجزائر ، مجلة مدارات تاريخية ، سطيف ،ص132.

عرف باسم سجن الباشا أو سجن بربروس وكان عبارة عن مربع طوله 70 قدماً وعرضه 40 قدماً ويقع هذا السجن في طريق السوق الكبيرة الذي يمتد من بوابة عزون إلى بوابة الوادي (1).

يتكون السجن من ثلاثة طوابق وربما بلغ ارتفاع المبنى 50 قدماً وجميع الشقق فيه مبنية على أقواس لها نوافذ، وأما الطابق السفلي فلا توجد فيه تلك الفتحات، وقد حول إلى خانات يديرها المسيحيون يدفعون أجارها، ويحيط بالطابق الثاني والثالث ممر واقع يمكن الدخول منه إلى غرف طويلة ضيقة وهي الغرف التي ينام فيها العبيد، حيث ينامون في إطارات مربعة يقع الواحد فيها فوق الآخر أربعة طوابق (2).

-سجن الباستارد (الغالير):

يتموضع هذا السجن بشارع باب عزون ويبلغ طوله 18 متر وعرضه 9م وقد حمل هذا السجن اسم الغالير نظراً لأنه كان ينزل فيه في السابق العبيد الذين يجذفون في السفن وعندما أعيد بناءه احتفظ بذلك الاسم، أما عن مكوناته فقد احتوى عدة غرف كانت مخصصة للأسرى والذي أطلق عليهم عبيد المخزن، حيث أنهم كانوا تحت إشراف الدولة، وهو أقل مساحة من الأول ويضم كنيسة يحيي فيها الأسرى صلواتهم أيام الأحد، وفي المناسبات والأعياد الدينية المختلفة ويتراوح أعداد الأسرى فيه بين 400-500 أسير وكانوا يتمتعون بالحرية في حركتهم مقابل إجازات للغرف وهذا ما يجعل الطبقة الميسورة من العبيد يفضلون هذا السجن على الآخر (3).

(1) Don .peierre.(1989).gistoire de la barbarie et de ses corsairs edition piers recolet.parid.p233

(2) كانتارت ، جيمس ليندر.(1982). مذكرات أسير الداوي كانتارت قنصل أمريكا في المغرب ، تر : إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،ص57.

(3) النلي ، رفيق .(2022). السجون في مدينة الجزائر ، مجلة الجزائر للبحوث والدراسات ،الجزائر ،م8،ع3،ص86.

سمي على اسم الوالي صالح سيدي حمودة، ويعتبر أصغر السجون و أسوأها (1).

أما الأسرى الخواص فقد كانوا من نصيب الداي والأغوات² وكبار الرياس والرجال المهمين في الدولة وكذلك عامة الناس، وكان يتم الاستعانة بهم في الأشغال العامة وكانت وظائف هؤلاء الأسرى في بيوت مالكيهم عبارة عن بعض الأعمال البسيطة كغسل الملابس وتنظيف المنزل والطبخ وغيرها (3)، وبالنسبة لسجونهم كانت أقل تنظيماً ورقابة حيث كان البانيو مرقداً لهم وفي النهار يتدبر الأسير أمره مقابل أن يمنح سيده نسبة معينة من الدخل ومن أبرز السجون للخواص في الجزائر كان سجن علي بيتشين وسجن خير الدين (4).

وبالانتقال إلى إيطاليا فقد انتشرت سجون الأسرى هناك في نابولي وروما وجنوة وليفورنو فضلاً عن مجموعة من الجزر النائية التي كانت تستخدم كمنفى وهي على النحو التالي :

-سجون وحصن نابولي والتي تعتبر المركز الرئيسي لتجميع الأسرى الجزائريين في عمليات التبادل أو البيع ومن أشهرها كان قلعة نوفو وسجن الكارمين نزل بها آلاف الأسرى خاصة بعد معركة ليبانتو

(1) براهيم ، ناصر الدين .(2010). تاريخ مدينة الجزائر في العهد العثماني ، تر : علي تابليت ، منشورات ثالة ، الجزائر ،ص89.

(2) الأغا : كلمة فارسية استعملها العثمانيون كلقب شرفي معناها عظيم الأمر والرئيس وله معنى آخر كما يعرف أيضاً بأنه رئيس الجيوش البحرية الانتكشارية وفرسان المخزن والصباحية يتلقى أمره من الداي مباشرة مكلف بحفظ الأمن. الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ص159.

(3) وولف ، جون .(د.ت). الجزائر وأوروبا ، تر : أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،ص220.

(4) ستيفنز ، جيمس ويلسن .(2007). الأسرى الأمريكيان في الجزائر (1785-1797م)، تر : علي تابليت ، منشورات ثالة ، الجزائر ،ص216.

سنة (979هـ/1571م)⁽¹⁾ وقد وصفهم الرحالة المغربي أبو سالم العياشي في رحلته سنة 1662م بأنهم كانوا يعيشون في ظروف قاسية تحت الأرض.⁽²⁾

-سجن الكاستل سانت أنجلو -روما وهو عبارة عن سجن حصين كانت تحجز فيه الدولة البابوية الأسرى المسلمين ذوي المكانة الرفيعة أو القادة بغرض المفاوضة عليهم

(1) معركة ليبانتو: حدثت معركة ليبانتو البحرية بين الدولة العثمانية والأساطيل الصليبية على برزخ كورنث، بالقرب من ليبانتو وهو أحد الموانئ العثمانية في اليونان في 7 تشرين الأول /أكتوبر سنة (979هـ/1571م)، ففي الوقت الذي كانت فيه البحرية العثمانية تهاجم قبرص، كانت تدور مفاوضات في الدوائر الحكومية الأوروبية بين البابا بيوس الخامس، وملك إسبانيا فيليب الثاني، وجمهورية البندقية، هدفها تأليف عصبة مقدسة تتصدى لتقدم العثمانيين في أوروبا، فكانت الظروف السياسية تحث العصبة المقدسة على التحرك السريع ضد العثمانيين الذين تمكنوا من فت قبرص، وغزت مراكبهم جزيرتي كريت و زانطة وفتحت جيوشهم مدينتي دلسينو وأنتباري الواقعتين على البحر الأدرياتيكي، فقررت العصبة جمع قواتها ومنع تقدم العثمانيين في إيطاليا، واسترداد المواقع التي خسروها لا سيما في شمال إفريقيا واشتبك الاسطولان في معركة طاحنة، وتعرضت البحرية العثمانية لأضرار بالغة في هذه المعركة في عهد السلطان سليم الثاني وتعتبر أكبر هزيمة بحرية تعرضت لها الدولة العثمانية، وكانت النتائج فادحة فقد اسرت البحرية الصليبية مائة و ثلاثين سفينة عثمانية، وأحرقت وأغرقت ثلاثة وتسعين سفينة وغنمت ثلاثمائة مدفع وتكبد العثمانيون عشرون ألفاً بين قتيل وأثير، وقد ذكرت المصادر العثمانية هذه المعركة باسم (سكن)، وبيئت أن السبب الرئيسي لهذه الخسارة في هذه الحرب البحرية هو وجود عدد من القادة أمثال بيرتيف، وميزين زاده علي باشا، والذين كان قد تم إحضارهم إلى هذه المناصب من ميدان الإنكشارية، إلا أنهم غير مؤهلين من الناحية البحرية، بالإضافة إلى ذلك أن السفن العثمانية التي كانت في البحر بشكل مستمر، ولمدة سبعة أشهر اعتباراً من شهر آذار =/مارس كانت بحاجة إلى الصيانة والإصلاح، وأن طاقمها البحري كان متعباً، كما أن بعض أفرادهم تم تسريحهم، وآخرون كانوا مجازين، فتم تعزيز الطاقم البحري من قبل الفرسان من غير البحارة، وفي الحقيقة كانت خسارة العثمانيين خسارة معنوية، وليست مادية على الرغم من عدد القتلى، ويمكن عدها بداية التقهقر الذي حل بالدولة العثمانية، وزالت شهرتها بأنها دولة لا تقهر، وثبت فعلياً إمكانية قهرها . ديل، شارلز. البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة : أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، مصر، 1948م، ص155.

(2) العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد، ماء الموائد (الرحلة العياشية)، تحقيق : سعيد الفاظلي، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، ص200؛ سعيدوني ناصر الدين. (2009). الجزائر في التاريخ العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ص245.

-سجون جنوة والتي اشتهرت بكونها مركزاً لتجارة الأسرى عبر البحر المتوسط نزل الأسرى الجزائريون في الطوابق السفلية من مينائها القديم (1).

-سجون ليفورنو والتي كان تحت حكم دوقية توسكانيا وكانت مشهورة ب أعمال السخرة حيث كان الأسرى يستخدمون في التجذيف على السفن أو بناء الميناء (2).

أما بخصوص المعتقلات النائية فقد استخدمت في عزل الأسرى الذين يشكلون خطراً أو لمنع محاولات الفرار عبر البحر ومن أشهر تلك المواقع جزيرة بونزا وتتبع لمملكة نابولي ، وجزيرة سان ستيفانو قبالة سواحل نابولي إضافة إلى جزيرة ألبا والتي كانت تابعة لتوسكانيا (3).

الخاتمة :

يمكن القول أن ظاهرة الأسر لم تكن مجرد نتيجة عرضية للصراع العسكري بل كانت نظاماً متكاملًا تشابكت فيه الدوافع الدينية مع المصالح الاقتصادية والاجتماعية على صفتي المتوسط هذا وقد تقاسم الأسرى المصير الإنساني القاسي نفسه من معاناة الأسر ومرارة الغربة وألم الجسد والأمل المعلق بالحرية لكن المفارقة الجوهرية تجلت في الوظيفة التي أداها الأسير داخل كل مجتمع ففي الجزائر تحول الأسير الأوروبي إلى رأس مال بشري بحرك الاقتصاد ومصدر قوة تفاوضية ، بالمقابل كان الأسير الإيطالي يستدعى كرمز للمأساة وشاهد حي على الخطر العثماني مما غذى حملات التعبئة الدينية وهكذا تكشف هذه المقارنة أن البحر المتوسط بقدر ما كان ساحل صراع و جداراً فاصلاً كان فضاءً قسرياً للتماس والتفاعل الحضاري وتبقى قصة الأسرى بما تحمله من متناقضات مرآة تعكس وجهي ذلك

(1) التر ، عزيز سامح .(1986). موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص308.

(2) بلقاسم ، مولود قاسم .(2006). شخصية الجزائر الدولية وخيبتها العالمية قبل 1830م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص652.

(3) Gurdin.philippe.titre captfs en mediterranee(xvil-xvllle sicles.lieu.paris.p145

العصر وجه التعصب والقسوة ووجه التبادل الإنساني والثقافي الذي فرضته ضروريات الحياة متجاوزة حدود الدين والإمبراطوريات .

الاستنتاجات والتوصيات :

1-إن القرصنة أو الجهاد البحري الذي قامت به الجزائر ضد الدول الأوروبية جاء كرد فعل على الغارات الأوروبية على السواحل الجزائرية وقد صارت المصدر الأساسي والعمود الفقري لاقتصاد مدينة الجزائر ونتج عن هذا الجهاد البحري ما عرف بظاهرة الأسر فقام الجزائريون بعمليات مختلفة للأسر كالهجوم على السواحل الجنوبية لأوروبا واعتراض السفن في عرض البحر .

2-لم تكن ظاهرة الأسر مجرد عمل هامشي ، بل كانت جزءاً لا يتجزأ من اقتصاديات ومنظومات الحكم في كلال البلدين ففي الجزائر اتخذت شكل الجهاد البحري المقدس والمؤسس ضمن نظام الرياس بينما في إيطاليا اتخذت شكل الحرب الصليبية البحرية فالدراسة تقارن بين أسلمة القرصنة وتقديسها لتخلص إلى أنهما استراتيجيتان متطابقتان في الجوهر العملياتي والاقتصادي مختلفتان في الغلاف الأيديولوجي .

3-يجادل المقال بأن مصير الأسير اختلف جوهرياً بين الضفتين في الجزائر وجد دور الأسلمة كخيار ضاغط للخلاص بل ومسار للترقي الاجتماعي لبعض الأسرى في المقابل في إيطاليا ظل الأسير المسلم ضمن هوية دينية صلبة وكان الخلاص مرهوناً بشكل شبه حصري بدفع الفدية أو التبادل الدبلوماسي دون وجود حافز حقيقي لتغيير الدين .

4-يبرز المقال التناقض في البنية الاقتصادية في الجزائر كان اقتصاد الاختطاف البحري ركيزة أساسية للدولة والجيش حيث كان الأسرى سلعة وعملة للتفاوض أما في إيطاليا فرغم عمليات الأسر التي كانت تقوم بها أساطيل البنادقة كان الأسرى المسلمون يستخدمون أساساً كقوة عمل في التجذيف في السفن أو في الأشغال العامة ولم يكونوا محورياً اقتصادياً مستقلاً بل أداة حرب .

5-لقد تجاوز العمل القرصني المسيحي مطاردة السفن وأسر ركابها إلى القيام بغارات مريعة ضد سواحل المغرب الإسلامي ما أدى إلى وقوع عدد من سكان هذه السواحل في الأسر مما جعل عداد الأسرى المسلمون يرتفع بعشرات الآلاف في الضفة المسيحية وهكذا أصبح هؤلاء الأسرى يباعون في الأسواق الإيطالية وتحولوا إلى سلع رائجة تدر أرباحاً في عالم التجارة .

6-من خلال العرض السابق يمكن القول أن حال الأسرى لم يكن مختلفاً بصورة كبيرة من ناحية المأساة والمعاناة إلا أن القسم الأكبر منها قد وقع على المسلمين في إيطاليا لا سيما التنصير القسري الذي ألم بهم في حين حفلت كتب التاريخ بالمعاملة الحسنة من الناحية الدينية بحق الأسرى الأوروبيين بشكل عام.

المصادر والمراجع :

المصادر :

- 1-ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت614هـ/1217م).رحلة ابن جبير ، دار القصة ، الجزائر ،
 - 2- الرازي ،أبو عبد الله محمد زين الدين بن أبي بكر عبد القادر(ت666هـ/1268م).مختار الصحاح ، تح: محمود خاطر ، مكتبة لبنان ،بيروت ،ج1.
 - 3-الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد(ت817هـ/1415م) .(2008). القاموس المحيط ، دار الحديث ، القاهرة .
 - 4-الماوردي ،علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ/1059م). (1989). الأحكام السلطانية ،دار الحديث ، القاهرة ، ج1.
 - 5-المكناسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان(ت1213هـ/1799م) .(1965). الإكسير في فكاك الأسير ، تح : محمد الفاسي ، المعهد الجامعي ، الرباط .
- المراجع العربية :

- 1-أحمد . مصطفى أحمد .(2004). الموسوعة الجغرافية ، دار العلوم ، القاهرة ، ج 3 .
- 2-أوزتونا ، يلماز، تاريخ الدول العثمانية، ج1،مؤسسة فيصل للتمويل ، تركيا، 1988م.

- 3-براهمي ، ناصر الدين .(2010). تاريخ مدينة الجزائر في العهد العثماني ، تر : علي تابليت ، منشورات ثالة ، الجزائر .
- 4-البستاني ، فؤاد إكرام .(1986). منجد الطلاب ، دار المشرق ،بيروت .
- 5-بن أشهنو ، عبد الحميد .(1972).دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر ، دار الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر
- 6-تابليت ، علي .(2014) . بحوث في التاريخ الفترة العثمانية ، منشورات ثالة ، الجزائر .
- 7-دراج ، محمد .(2012) . الدخول العثماني للجزائر ودور الأخوة بربروس 1512-1543م، شركة الأصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر .
- 8-سالم ، المعوش .(2003). شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية ، بيروت .
- 9-السليمانى ، أحمد .(1989). تاريخ مدينة الجزائر، ديوان المطبوعات ، الجزائر .
- 10-طوباش، نوري.(2016). العثمانيون رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، دار الأرقم، استانبول.
- 11-عامر ، عبد اللطيف .(1982). أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة .
- 12-عباد ، صالح .(2012).الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830م)، دار هومة ، الجزائر .
- 13-عبد القادر ، نور الدين .(2006). صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي ، دار الحضارة ، الجزائر .
- 14-العقاد ، صلاح .(1980).المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ، مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة .
- 15-عمورة ، عمور .(2006). الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى 1962م الجزائر خاصة، دار المعرفة ، الجزائر .
- 16-فرج ، فرج محمد .(1977).إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .
- 17-فهيم ، نعيم زكي .(1973). طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، المكتبة العربية ، القاهرة .

- 18-محمود ، محمد حنفي .(2006). جرائم الحرب أمام القضاء الجنائي الدولي ، دار النهضة العربية ، مصر .
- 19-المرشدي ، الحارث بن غازي .(1432). الوجيز في أحكام الأسير المسلم ، دار الملاحم ، السعودية .
- 20-مروش ، المنور .(2009). دراسات عن الجزائر في العهد العثماني العملة -الأسعار - المداخل ، دار القصة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ج1.
- 21-مروش ، المنور .(2009). دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة -الأساطير-الواقع ، دار القصة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص206.
- 22-هلايلي ، حنفي .(2007). بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني ، دار الهدى للنشر والتوزيع ، الجزائر .
- المراجع المترجمة إلى العربية :**
- 1-دوغرامون ، دالما .(2024). تاريخ الجزائر تحت الحكم التركي ، تر : لخضر بوطبة ، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع ، الجزائر .
- 2-ديل ، شارلز .(1948). البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة : أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، مصر .
- 3-سبنسر ، وليم .(2006). الجزائر في عهد رياس البحر ، تح : عبد القادر زيايدية ، دار القصة ، الجزائر .
- 4-ستيفنز ، جيمس ويلسن .(2007). الأسرى الأمريكان في الجزائر (1785-1797م)، تر : علي تايلت ، منشورات تالة ، الجزائر .
- 5-كاثكارت ، جيمس ليندر .(1982). مذكرات أسير الداوي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب ، تر : إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .
- 6-لوماسكاريناس ،جواو كرفا .(2023). مذكرات الأسير البرتغالي جواو كرفا لوماسكاريناس في مدينة الجزائر 1621-1627م ، تر : لخضر بوطبة ، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع ، الجزائر .
- 7-ميترون ، جيريت .(2011). يوميات أسير في الجزائر (1814-1816م)، تر : محمد زروال ، دار هومة للنشر والتوزيع ، الجزائر .

8- وولف ، جون .(د.ت). الجزائر وأوروبا ، تر : أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر .

الرسائل والأطاريح الجامعية :

1- أحلام ، لغريب .(2018). أسرى الحروب الصليبية دراسة تاريخية (491-687هـ/1098-1191م)، رسالة ماستر منشورة ، جامعة قالمة ، الجزائر .

2- الجيلالي ، عبد الرحمن بن محمد .(2009). تاريخ الجزائر العام ، دار الأمة الجزائرية ، الجزائر .

3- حشايشي ، هبة .(2018). الأسرى والسجون في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية (1519-1830م)، رسالة ماجستير ، جامعة 8،الجزائر .

4- خشمون ، حفيظة .(2006). مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية ، رسالة ماجستير ، قسنطينة .

5- رحمونة ، بليل .(2011). القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564-1830م ، رسالة ماجستير منشورة ، جامعة وهران ، ص195.

6- شويتام ، أزريقي .(2005). المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1514-1830م)، أطروحة دكتوراه، الجزائر .

7- قرياش ، بلقاسم ، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830). أطروحة دكتوراه منشورة ، جامعة معسكر ، الجزائر .

8- لشهب ، سيف الدين .(2020). الأعمال الأدبية للأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني - ديسيرفانتس نموذجاً ، رسالة ماجستير منشورة ،جامعة محمد بوضياف.

9- محمة ، عائشة .(2018). الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس والسابع عشر للميلاد، رسالة ماجستير ، المركز الجامعي ، غرداية .

10- مشوشة ، سمير .(2018). الموارد البحرية للجزائر العثمانية خلال القرن 11-12هـ/17-18م ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة.

المجلات والدوريات :

- 1-اخلف ، زينب .(2023).الممارسة الدينية والطقوس الاحتفالية للأسرى المسيحيين بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية ، مجلة عصور جديدة ،الجزائر ، م13،ع2.
- 2-سعود ، إبراهيم .(2011). القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية نموذجاً ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، الجزائر ، ع11.
- 3-التلي ، رفيق .(2022). السجون في مدينة الجزائر ، مجلة الجزائر للبحوث والدراسات ،الجزائر ،م8،ع3.
- 4-سعود ، إبراهيم .(2007).لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني ، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية ، ع7.
- 5-الشيخ ، عبد الرحمن عبد الله .(1986). دور المسلمين في تشكيل اقتصاد إمبراطوريتي جنوة والبندقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، المجلة التاريخية المغاربية للعهد الحديث والمعاصر ، تونس ، ع43.
- 6-كعوان ، فارس .(2019). المصطلحات الإدارية العثمانية في الجزائر ، مجلة مدارات تاريخية ، سطيف .
- 7-نعاس ، نوري .(2025). أحكام الأسير وفق المنظور الحضاري الإسلامي ، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية ، الجزائر ، م18، ع4.

المراجع الأجنبية :

- (1)william.blake(1860).the history of slavery and the slave trade ohio.muller
- (2) melhamissi.moulay.(1986).les capitfs algeriens et europe chretienne(1518-1830).edition enal.alger.p81.
- (3)letter du 16 decmbre.(1901). 1686.citepar founier.un march de turcs.bill historique et philologique
- (4)calogero.piazza.(1978).dati sulle navigazione stefaniana dal1678al1716.in a c l

(5)mathiex.jean.(1978).trafic et prix de l'homme en mediterranee au xvll et xviii siecles in annals e s c ix.

(6)braudel.fernand .(1956).leconomie de la mediterrane au xvii siecles in c t .

(7)p.hubac.(1949). les barbaresques.collextions histories dqutre mer.berger levrault.paris

(8)don .peierre.(1989).gistoire de la barbarie et de ses corsairs edition piers recolet.parid

(9)enclopedia.(1949).italiana.vzzvi.roma.

(10)a.s.p.f.barabaria.lettere.dei schiavi musulmani.v1

علي بن عدلان (٥٨٣-١١٨٧/هـ-١٢٦٨ م) وإسهاماته في مجال علم التعمية

الباحثة: مرح عبد الرحمن السعيد

الدكتور المشرف: خليل الحسين

ملخص

لكل أمة من الأمم تراث حضاري ترتكز عليه، وتبني عليه مقومات هويتها، وتأمل أن تستقي منه شروط نهضتها، وللأمة العربية والإسلامية تراث ضخم ومتنوع تراكم على طول قرون عديدة أبدع فيه العرب والمسلمون وأدلو بدلوهم في مختلف أصناف العلوم والمعرفة، وبرعوا في إنتاج مؤلفات ومصنفات عكست مدى الإسهامات الكبيرة للحضارة العربية الإسلامية في تطور المعرفة الإنسانية بأكملها .

وهذا البحث المتواضع هو محاولة للتعريف بأحد أهم العلوم العربية الإسلامية وأهم أعلامها الذين طالهم التهميش والنسيان، وهو علم التعمية، وقد عرف العرب المسلمون علم التعمية منذ القدم، وكان لهم دور رائد في تأسيسه وتطويره والتأليف فيه، ويعد علي بن عدلان (٥٨٣-١١٨٧/هـ-١٢٦٨ م) أحد أهم علماء العرب المسلمين الذين برعوا في علم التعمية واستخراج المعنى، ألف العديد من الكتب في علم التعمية وحل التراجم، وكانت إسهاماته في مجال علم التعمية ذات قيمة كبيرة في التراث العربي الإسلامي وحتى العالمي.

الكلمات المفتاحية: الأيوبيين، علم التعمية، دوافع تطور علم التعمية، علي بن عدلان، المؤلف
للملك الأشرف.

Summary

Every nation has a cultural heritage upon which it relies, and on which it builds the foundations of its identity, and hopes to draw from Islamic nation has it the conditions of its renaissance. The Arab and a huge and diverse heritage that has accumulated over many centuries in which Arabs and Muslims excelled and contributed to various kinds of sciences and knowledge, and they excelled in ent of the great producing works and writings that reflected the ext contributions of Arab Islamic civilization to the development of human knowledge as a whole

This modest research is an attempt to introduce one of the most Islamic sciences and its most prominent figures, who –important Arab arginalization and oblivion: the science of have suffered m cryptography. Arab Muslims have known the science of cryptography since ancient times and played a pioneering role in its establishment, 1268–AH / 1187 666–development, and writing. Ali ibn Adlan (583 Muslim scholars –idered one of the most important ArabCE) is cons who excelled in the science of cryptography and deciphering encrypted messages. He authored numerous books on cryptography

and solving translations, and his contributions to the field of Islamic and even global –were of great value in the Arab cryptography .heritage

Keywords: Ayyubids, cryptography, motivations for the .Ashraf–of cryptography, Ali ibn Adlan, author for King al development

-مقدمة:

يُعَد علم التعمية واستخراج المُعَمَّى من العلوم التي شهدت تطورًا ملحوظًا في الحضارة العربية الإسلامية، إذ انتقل من ممارسات تهدف إلى إخفاء المعلومات إلى علم له أصول وقواعد في التعمية وفكّها، مستفيدًا من علوم اللغة والنحو والصرف والإحصاء اللغوي، وقد ارتبط استخدام التعمية عند العرب، بصورة خاصة، بالحاجة إلى حماية المعلومات والمراسلات ذات الطابع السياسي والعسكري، ولا سيما في المراسلات بين الحكام والولاة والقادة، بما يضمن سرية الأخبار والأوامر ويحول دون اطلاع الخصوم عليها .

وفي العصر الأيوبي بلغ هذا العلم مرحلة أكثر نضجًا، ويبرز في هذا السياق علي بن عدلان النحوي (٥٨٣-٦٦٦هـ/١١٨٧-١٢٦٨ م) أحد أهم المؤلفين في علم التعمية واستخراج المعمى، جمع بين المعرفة اللغوية والخبرة العملية في التعمية واستخراج المُعَمَّى، وألف العديد من الكتب في حل التراجم كان من أهمها رسالته في علم التعمية واستخراج المعمى تحت عنوان (المؤلف للملك الأشرف في حل التراجم)، قسمها إلى فاتحة وعشرين قاعدة وخاتمة، أوضح فيها ما يحتاج إليه المترجم، وذكر أمثلة في الترجمة بالتبديل، ودراسة في اقتران الحروف، وأي الحروف أكثر تداولًا واستعمالًا من غيرها .

وقد اختصت رسالته على وجه الخصوص بطرق استخراج المعمى، واحتوت على شرح مفصل لها وهي: الطريقة التحليلية لحل المترجم، استخراج الفصل بين الكلمات المعمية، استخراج (ال وما حولها من حروف، الكلمة المحتملة، استخدام حروف أوائل الكلمات وأواخرها، استعمال المضاعف من الحروف أو ثنائيات الحروف، حل المدمج، حل المعمى من الشعر، وحوت الخاتمة موضوعاً واحداً هو: الدربة(التدريب) والتمرن من خلال مثال عملي.

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في أنه يتناول علم التعمية من حيث المفهوم والمضمون، وإسهامات العرب المسلمين في هذا المجال ولاسيما خلال العصر الأيوبي، ودور العلماء العرب المسلمون في علم التعمية، وعلى سبيل المثال لا الحصر ابن عدلان .

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على علم من علوم العرب المسلمون، وهو علم التعمية (الشفيرة) ومدى أهميته في الحياة اليومية، وفي المجالات النظرية والتطبيقية، ومعرفة أهم المؤلفات والمؤلفين والمبدعين الذين اهتموا بهذا العلم وأبدعوا فيه .
إشكالية البحث:

اما بالنسبة لإشكالية البحث طرح البحث الأسئلة التالية:

- هل أدرك العرب المسلمون وبالأخص في العصر الأيوبي أهمية علم التعمية؟ وهل طبق في مختلف المجالات الإدارية والعسكرية والفكرية؟
- إلى أي مدى ساهمت التحديات السياسية والعسكرية والإدارية التي واجهت الدولة الأيوبية في تحويل علم التعمية من مجرد أفكار ومهارات لغوية متفرقة إلى علم قائم بذاته، وأداة سيادية ومؤسسية تدار بها أمن الدولة واستقرارها؟
- هل طبق علم التعمية في المجال العلمي أم بقي علماً نظرياً؟
- من هو ابن عدلان؟ وماذا قدم لعلم التعمية؟ وما هي أهم مؤلفاته وأفكاره؟
- هل كان علي بن عدلان هو أول من نقل علم التعمية من المنهج النظري إلى المنهج العملي التطبيقي؟
- كيف ساهم ابن عدلان في تطوير علم التعمية؟ وما الجديد الذي قدمه؟

-منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج التاريخي بشقيه الوصفي والتحليلي، الوصفي نقل المعلومات كما وردت في المصادر والمراجع ، أما التحليلي استخدم للإجابة عن مختلف التساؤلات التي يطرحها البحث في محاولة للخروج باستنتاجات وأجوبة صحيحة .

الدراسات السابقة:

١-كتاب علم التعمية واستخراج المعنى ١٩٩٧م للدكتور محمد مرياتي ،والذي صدر بثلاثة أجزاء ،ويعد الكتاب الجماعي الوحيد الذي يبحث في تاريخ وتطور علم التعمية (التشفير) وفك الشفرات في الحضارة الإسلامية، حيث يتتبع الكتاب نشأة وتطور علم التعمية عند العرب، مبيناً سبقهم للحضارات الأخرى في هذا المجال بما يقارب ستة قرون، ويستعرض الأساليب القديمة للتعمية مثل طريقة التعمية أحادية الألفبائية، التي كانت سائدة حتى منتصف القرن التاسع الميلادي ،يُسلط الضوء على الأهمية الكبيرة لمرحلة "استخراج المعنى" (كسر الشفرة)، والتي كانت العرب أول من درسها بشكل منهجي ،ويؤكد على الدور الريادي للعرب في تطوير هذا العلم، حيث وضعوا المنهجيات الأساسية في التعمية وفك الشفرات قبل غيرهم بقرون ، يذكر الكتاب رسالة "المؤلف للملك الأشرف في حل التراجم" في استخراج المعنى لعللي بن عدلان الموصلي (٥٨٣-٦٦٦ م/١١٨٧-١٢٦٨ م) كأول عمل منهجي اختص بطرق استخراج المعنى ،إذ احتوت على عشرين قاعدة في طرق استخراج المعنى ،و الملاحظ أن المؤرخين و الباحثين المعاصرين لم يهتموا كثيراً بهذا التراث العربي والإسلامي الضخم فباستثناء هذا الكتاب ، لا نجد أي أبحاث أو دراسات جدية في موضوع إسهامات العرب و المسلمين في علم التعمية .

٢-كتاب صبح الأعشى في صناعة الأنشا ١٩١٣م لأحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ م/١٤١٨م) ،اشتهر هذا الكتاب كونه موسوعة علمية اذ ضم معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية ،

وقد أفرد فيه القلقشندي مقالة كاملة في الجزء الثالث للحديث عن علم التعمية وطرقه وقواعده، وأمثلة عن طرق التعمية التي وردت عند أهم أعلامه تحت عنوان "ما في الكتاب من السر " .

٢-كتاب معجم أعلام التعمية واستخراج المعنى في التراث العربي والإسلامي ٢٠١٨م للدكتور يحيى مير علم ،يتناول الكتاب تعريف علم التعمية واستخراج المعنى (الشفيرة وكسر الشيفرة) وبيان أنواعها ،وطرائقها ومنهجياتها ،وطرق حل المعنى وآلياته ،وأهميتها في التراث العربي والإسلامي، وريادة العلماء العرب والمسلمين، وتراجم للمؤلفين الذين برعوا في علم التعمية (كتابة الشفرة) واستخراج المعنى (كسر الشفرة) ، كما يهدف إلى إبراز دور العلماء العرب والمسلمين في هذا العلم، الذي يعتبرون رواده، وسبقوا به الغرب بحوالي ستة قرون، بالإضافة إلى ذلك يشمل الكتاب توثيقاً للجهود المعاصرة التي تهتم بتراث علم التعمية واستخراج المعنى في التراث العربي.

أولاً: التعمية تطورها عند العرب والمسلمين

١- تعريف علم التعمية:

التعمية في اللغة: الإخفاء والالتباس (١) ومنه تعمية الأخبار عن العدو أي إخفاءها. إذ يقال عمي عليه الأمر أي التبس (٢) ورجل عمي القلب أي جاهل، وامرأة عميه القلب بتخفيف الياء عل وزن فعله ، وقوم عمون وعمي الموج بالفتح يعمى عمى ، رم القذى والزبد ، وعميت معنى البيت تعمية ومنه المعمى من الشعر ، وتركناهم في عمى (يضم العين وتشديد الميم وبعدها ألف مقصورة) إذا اشرفوا عل الموت (٣) وقد وردت في القرآن الكريم في قوله عز وجل: ((فعميت عليهم الأنباء يومئذ)) والتعمية أن تعمي عل الانسان شيئاً فتلبسه تلبساً (٤) أما مصطلح علم التشفير أو التعمية ((Cryptography)) هو عبارة عن كلمة يونانية الأصل مكونة من مقطعين هما ((Krypto's)) وتعني مخفي ، و ((graphieh)) وتعني كتاب أي بمعنى الكتابة المخفية التي يقصد بها كتم المعلومات التي تحويها الكتاب (٥) وكلم تشفير جاءت من كلمة عربية هي (الصر) وهو ما أشارت إليه كثير من المراجع (٦) ، فقد أدخل العرب مفهوم الصفر في الحساب وطوروا استعماله على نطاق واسع ، وهذا ما لم يعرفه الغرب في العصور الوسطى لاستعماله الأرقام اللاتينية التي لا وجود للصفر في نظامها الرقمي ، وحينما دخلت الأرقام العربية العالم الغربي بدل مفهوم الصفر غاية في الإبهام والتعمية ، فكان أن شاع مثل في اللغة اللاتينية يستعمله المتكلم عندما يريد أن يقول إنه يتكلم عن أمور مفهوم لا عن شيء مبهم معكم (الصر) ومن هنا جاءت فكرة الكلمة (صفر) Cipher في جميع اللغات الأوروبية للدلالة على التعمية التي طور العرب عملياتها ودرسوا خصائصها حت اعطوها طابع العلم.

كما يمكن تعريف التشفير او التعمية على انه تحويل نص واضح الى اخر غير مفهوم باستخدام طريقة محددة يستطيع من يعرفها أن يفهم النص وذلك باستخراج المعنى أي تحويل النص المعنى إلى نص واضح لمن لا يعرف مسبقاً طريقة التعمية المستعملة (٧).

-
- (١)-ابن منظور (محمد بن مكرم ت 711هـ / 1311م): معجم لسان العرب ، تح: عامر أحمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2005م، ج 8 ، ص 544 : قلعه جي (محمد الرواس): معجم لغة الفقهاء ، دار النفائس، بيروت ، ط 1 ، 1996 ، ص 116 .
- (2)- الجواهر (إسماعيل بن حماد ت 939 هـ / 1003 م): تاج اللغة وصحاح العربية ، اعتناء : محمد تامر، دار الحديث ، القاهرة، 2009م ، ص 813 الرازي (محمد بن ابي بكر ت 660 هـ / 1261 م): مختار الصحاح ، دار الكتاب العربي ، دمشق، 1981 م، ص 456 .
- (3)- الصفدي (صلاح الدين بن ابيك ت 764 هـ / 1363 م): نكت الهميان في نكت العميان ، دار المدينة، مصر 1911 م ، ص 11.
- (4)- القرآن الكريم : سورة القصص ، الآية (66).
- (5)- الحمامي (علاء حسين): التشفير والترميز حماية ضد القرصنة والتطفل ، الدار العربية ، بغداد، 1999 م ، ص 18 .
- (6)- هونكه (زيغريد): شمس العر تسطع على الغرب ، تَن فاروق بيضون ، دار الجبل ، بيروت ، ط 8، 1993م، ص 92-93؛ عطية (أحمد عبد الحليم): دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، القاهرة ، 1991 م ، ص 368 .
- (7)- مراياتي(محمد) وآخرون: علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب ، مجمع اللغة العربي، دمشق، 1987 م. ج 1، ص 9-29 .

وقد استعمل العرب الترجمة الفارسية الأصل للدلالة على التعمية نفسها او على التعمية نفسها او على بعض ضروبها او على استخراج المعنى (1)، وقد انفرد المؤرخ ابي العباس القلقشندي (2)، بذكر المعن الثالث للتعمية، وعبر عنه اهل زمانه بحل المترجم واستعملوا أيضاً كلمة (المترجم) بمعن المعنى ومنه سمي المعبر لغيره عن لغة لا يعرفها بلغة يعرفها بالترجمان واليه ينحل لفظ الحل أيضاً اذ المراد من الحل إزالة العقد الموجود في النص المعنى ليصبح واضحاً (3) .

وقد تحدث أبو بكر الصولي (4) عن الترجمة في الكتابة وجعلها مرادفة للمعنى قال: ((وهي شبيهة ب المعنى وهو ما يكنى من الشعر، كأن يسمى الألف صقراً، والباء عصفوراً...، ثم يردد الحروف على هذا، وترجمة له الأمر: أوضحته له)) (5)

أما التعمية بالمفهوم الحديث هي عملية الحفاظ عل سرية المعلومات الثابت منها والمتحرك باستخدام برامج لها القدرة على تحويل وترجمت تلك المعلومات الى رموز بحيث إذا ما تم الوصول اليها من قبل اشخاص غير مخول لهم بذلك لا يستطيعون فهم أي شيء لان ما يظهر لهم هو خليط من الرموز والأرقام الغير مفهومة (6)

-
- (١)-الجزري (محمد مكي الحسني): علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، مجلة اللغة العربية، دمشق، مح 82، ص 161.
- (2)- القلقشندي: هو أبو العباس احمد بن علي بن احمد بن عبدالله بن الجمال أبو اليمن الفلزاني القلقشندي، ولد سنة (766 هـ / 1355م) بقرية قلقشندة في مصر ، درس في القاهرة والإسكندرية ، وبرع في الادب، وذاع صيته في البلاغة والانشاء، صنف العديد من المؤلفات كان أهمها كتابه (صبح الأعشى في معرفة الإنشا) توفي سنة (821 هـ / 1418 م) ؛ العسقلاني (احمد بن علي ت 852 هـ / 1449 م): انباء الغمر بأنباء العمر، تح: حسن حبشي، لجنة احياء التراث الإسلامي، مصر 1969 م. ج 3 ، ص 178؛ السخاوي (محمد بن عبد الرحمن ت 902 هـ / 1497 م): الضوء الامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1936 م. ج 2 ، ص 178؛ البغدادي (إسماعيل بن محمد ت 1339 هـ / 1920 م): هدية العارفين أسماء المؤلفين واثار المصنفين ، وكالة المعارف ، إسطنبول، 1951م، ج 1، ص 122.
- (3)- القلقشندي (احمد بن علي ت 821 هـ / 1418 م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، المطبع الاميرية ، القاهرة، 1916م، ج 9 ، ص 230 .
- (4)- الصولي: هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد صول ، جرجاتي الأصل، من مدينة صول، ولد في بغداد في سنة (255هـ/868م) ، حيث نشأ بها، كان عالماً بفقون الادب ، حسن المعرفة بأخبار الملوك وإيام الخلفاء ومآثر الاشراق وطبقات

- الشعراء، حافظاً بتصنيف الكتب (ت 336 هـ / 1946 م)؛ المرزباني (محمد بن عمران ت 348 هـ / 993 م)؛ معجم الشعراء ، تح: عبد الستار احمد فراج ، د.د. مصر ، 1960 ، ص56 ؛ السمعاني (عبد الكريم بن محمد ت 562 هـ / 1166 م)؛ الانساب، تح: ديفيد مارغوليوس، مطبع لندن، هولندا، 1912م ص 324 ؛ الحنبلي (عبد الحي بن احمد ت 1089 هـ / 1678 م)؛ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، تح: محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط1 ، 1989م ، ج2 ، ص339 .
- (5)- الصولي (محمد بن يحيى ت 335 هـ 1946 م)؛ أدب الكتاب : تح: محمد بهجة الاثري ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1932 ، ص 186 .
- (6)- العريقي (رائد عبد العزيز) وآخرون: Encryption and Decryption Digital color Image signal ، كلية علوم وهندسة الحاسوب ، جامعة الجديدة ، اليمن 2008-2009 ، ص23

٢- ظهور علم التعمية وتطوره في الحضارة العربية الإسلامية

استعمال التعمية واستخراج المعنى (الشفرة وكسر الشفرة) حاجة حضارية عرفتتها جميع الحضارات القديمة ممارسة واستعمالا، لأن ثمة دواعي مختلفة تحمل على إخفاء المعلومات عن الآخرين شخصية كانت أم غير شخصية (١) ، ولم يكن العرب في جاهليتهم بعبيدين عن هذه الحاجة فقد اصطنعوا الرموز و الملاحن (٢) والمعاريض (٣) ، وأمثالها ليخفوا معانيهم ومراميهم فلا يفهم عنهم إلا الفطن ذي النباهة.

اما عن الدوافع التي جعلت العرب يشتغلون بهذه الصنعة منذ جاهليتهم ، فيمكن القول بأن الدوافع السياسية والعسكرية كانت الأبرز دون شك، فمن المعروف منذ الأزل أن التعمية إنما تستخدم للأغراض السياسية والعسكرية كالاتفاق على تدبير مؤامرات سياسية كالاغتيال أو الانقلاب ونحوها من الأمور التي تطلب سرية تامة، والحرص على إخفاء معلوماتها عند نقلها من طرف لآخر، أو عند الحروب كنوع من ضمان سرية المعلومات والخطط العسكرية المتبادلة بين القادة العسكريين في ساحات المعارك.(٤)

وبعد ظهور الإسلام على يد النبي محمد (ﷺ) ، وانطلاقه خارج الجزيرة العربية عن طريق حركة الفتوحات التي قادتها دولة الخلفاء الراشدين (١١-٤٠ هـ / ٦٣٢-٦٦١ م) أضحت المسلمون بحاجة أمس لتطوير تقنيات التعمية فالجيوش الإسلامية الفاتحة لبلاد الشام والعراق أحتكت بجيوش من خلفها حضارات أكثر تطوراً من العرب الذي كانوا مضطرين لتطوير تقنياتهم العسكرية والتي كانت

التعمية جزءاً منها ولاسيما في مسألة نقل المعلومات بين القوات والجيش الإسلامية المنتشرة على مساحات واسعة في بلاد الشام والرافدين.

ومع وصول الأمويين (٤١-١٣٢ م/٦٦١-٧٥٠م) لخلافة الدولة العربية والإسلامية واستمرارها في سياسة الفتح خاضت هذه الدولة وعلى مساحات شاسعة حروباً بأشكال وأساليب مختلفة ألزمتها على تطوير تقنياتها العسكرية، والتي تشكل تعمية المعلومات العسكرية والسياسية جزءاً منها .

وعند اعتلاء العباسيين (١٣٢-٦٥٦ م/٧٥٠-١٢٥٨م) سدة حكم الدولة العربية والإسلامية دخلت التعمية طوراً جديداً ونالت الكثير من الاهتمام، ففي هذا العصر ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية وتشابكت مصالح الدولة وكثرت صلاتها بالدول الأخرى فذهب العرب حينها إلى التنفن في طرق إخفاء اغراضهم ومقاصدهم والاتجاه نحو أساليب متنوعة ومبتكرة كالرموز والألغاز والملاحن والمحاكاة (٥)، والمعايية (٦) وما إليها (٧).

(١)- علم (يحيى مير): معجم إعلام التعمية واستخراج المعنى في التراث العربي والإسلامي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت، ٢٠١٨م، ص ٢٣.

(٢)- الملاحن: مسائل كالألغاز يحتاج في حلها إلى فطنة، ويقال لحن له أي قال له قولاً يفهمه عنه ويخفي على غيره، الرازي: مختار الصحاح، ص ٥٩٤.

- ٣- المعارض: مفردتها معارض، والمعارض التورية والفحوى وأصله الستر، والتعريض ضد التصريح، ومن المعارض في الكلام وهي التورية بالشيء عن الشيء، الرازي: مختار الصحاح، ص ٤٢٥.
- ٤- احمد (عبد الوهاب صابر عيسوي): القيمة الرقمية للحروف من خلال دورانها عند أعلام التعمية واللغويين وأثرها في دلالة الألفاظ، معهد المعارف العالي للغات والترجمة صحيفة الألسن، ٢٠١٩م، ص ١١.
- ٥- المحاجة: مصدرها حاجي، والمحاجة حكاية الأحاجي، ويقال حاجاه محاجةً وحجاءً جادله وغالبه في مطارحة الأحاجي والألغاز، والأحجية لغز يتبارى الناس في حله، مجموعة مؤلفين: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط ٤، ٢٠٠٤م، ص ١٥٩.
- ٦- المعابة: جذر الكلمة عيا، ويقال عايا فلانٌ صاحبه إذ أتى بلغز ونحوه، وهو الكلام الذي لا يهتدى له ويقصد به إخفاؤه عن طالبه، ويطلق الأعياء بمعنى التعجيز، والأعيب ما عاييت به صاحبك من الأغاليط التي يتعاطاها الناس للتعمية، وأصل المعابة من العي وهو التعب والكلل وسمي الألغاز معابةً لأنه يوقع الناظر في مشقة وتعب ويظهر عيك أي تعبك؛ مجموعة مؤلفين: المعجم الوسيط، ص ٦٤٢.
- ٧- بن يحيى (بمينة): التفكير الرياضي عن الخليل بن أحمد الفراهيدي التعمية أنموذجاً، رسالة ماجستير جامعة الدكتور يحيى فارس، الجزائر، ٢٠٢١-٢٠٢٢م، ص ٨٣-٨٤-١٢٧.

وبدء في هذا العصر ظهور العلماء المشتغلين في علم التعمية كالفراهيدي (ت ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م) (١)، والكندي (ت ٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م) (٢)، والجدير بالذكر حركة الترجمة المزدهرة التي شهدها العصر العباسي كأحد أهم العوامل التي ساعدت في تطور التعمية عند المسلمين .

وبما أن علم التعمية كان قد ابتكر وتم تطويره للأغراض العسكرية فلم يتوقف أمر الاشتغال به عند العباسيين بل استمر في التطور في العصور اللاحقة ونخص منها العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧ هـ/ ٩٦٩-١١٧١ م)، والذي شهد أحداثاً عسكرية كبرى أبرزها اجتياح الغزو الصليبي للعالم الإسلامي أواخر القرن (٥ هـ/ ١١ م) ، فضلاً عن نزاع الدولة الفاطمية المستمر مع الدولة العباسية بالإضافة إلى دخول السلاجقة الأتراك إلى بلاد الشام والعراق وتمكنهم من إقامة عدة إمارات متناحرة فيها ، أي أن مطلع الألفية الثانية (١٠٠١-٢٠٠٠ م)، كان مليئاً بالحروب بين العديد من الأطراف كان أبرزها الصراع الإسلامي ضد الخطر الصليبي الذي كان دافعاً جديداً نحو الانتفاف إلى التعمية وتطوير أساليبها .

- (١)- الفراهيدي: الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي، ولد سنة (١٠٠ هـ/٧١٨ م) في مدينة البصرة في العراق، وهو شاعر ونحوي، ومؤسس لعدد من علوم العربية كالنحو والعروض والمعجم، عاش زاهداً تاركاً لزينة الدنيا، محباً للعلم والعلماء، (ت ١٧٠ هـ/٧٨٦ م)؛ الحلبي (عبد الواحد بن علي ت ٣٥١ هـ/٩٦٢ م): مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٥ م، ص ٢٧؛ السيرافي (الحسن بن عبدالله ت ٣٦٨ هـ/٩٧٨ م): أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي و أولاده، مصر، ١٩٥٥ م، ص ٣١؛ الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦ م، ج ٢، ص ٣١٤.
- (٢)- الكندي: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، ولد في مدينة الكوفة بالعراق حوالي عام (١٨٥ هـ/٨٠١ م)، لعائلة مرموقة من قبيلة كندة اليمنية، ونشأ بها بعد وفاة والده والي الكوفة، ثم انتقل إلى بغداد لطلب العلم، حيث درس واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة، وألف الكثير من المؤلفات فيها، مخلفاً ثروة علمية هائلة، بوصف بأنه فيلسوف العرب والإسلام في عصره توفي سنة (٢٦٠ هـ/٨٧٣ م)؛ الذهبي (محمد بن أحمد ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م): سير أعلام النبلاء، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣ م، ج ٢، ص ١١٥؛ نورجان (عبد الرحمن): الكندي وفلسفته، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٦٢ م، ص ١١٧؛ الدوري (عبد العزيز): أوراق في التاريخ والحضارة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٩ م، ص ٢٤٥.

٣- علم التعمية في العصر الأيوبي

شكل العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨ هـ/١١٧٤-١٢٥٠ م) (١) نقطة تحول هامة في تاريخ هذا العلم نتيجة الحاجة العسكرية الملحة، فقد حملت هذه الدولة راية الجهاد ضد الصليبيين والمغول، فكانت الدولة الأيوبية دولة عسكرية من الطراز الأول لكثرة حروبها مع الصليبيين، تلك الحروب التي ساهمت بشكل فعال في الاهتمام بعلم التعمية.

إذ عمل السلاطين الأيوبيون، وخاصة السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٢) على تشجيع العلماء، وأكثروا من إنشاء المراكز العلمية، وكان لكثرة هذه المراكز دوراً كبيراً في نشاط وتطور علم التعمية في هذا العصر. (٣)

(١)- الأيوبيون: أسرة كردية الأصل حكمت مصر والشام واليمن ترجع في اسمها إلى نجم الدين أيوب من قبيلة الهمدانية والذي عمل في خدمة الأتابك عماد الدين زنكي وهو والد صلاح الدين الأيوبي الذي اشترك مع عمه أسد الدين شيركوه في الحملات الثلاث المتتالية إلى مصر والتي انتهت بالقضاء على الدولة الفاطمية وتأسيس الدولة الأيوبية؛ الأصفهاني (محمد بن العماد ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م): الفتح القسي بالفتح القسي، دار النوادر والدرر، القاهرة، ط ١، ١٩٠٤ م، ص ٣٣٥-٣٣٢؛ ابن شداد (يوسف بن رافع ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح: جمال الدين الشيال، دار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٦٢ م، ص ٤٤٤، ١٢٦، ٤١٠؛ ابن واصل (محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: حسنين محمد ربيع، دار الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٧٧ م، ج ١، ص ١٧-١٨؛ الحنبلي (أحمد بن إبراهيم ت ٨٧٦ هـ/ ١٦٠٥ م): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تح: ناظم رشيد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط ١، ١٩٧٨ م، ص ١٤-١٥؛ (هاملتون. آر.): صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الإسلامي، تر: يوسف أبيش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٣ م، ص ١١٧-١١٨؛ العريني (السيد الباز ت ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٨ م): الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون)، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧ م، ص ٢٥-٣٤.

(٢)- الصالح نجم الدين أيوب: الصالح نجم الدين أيوب محمد الكامل بن محمد العادل، السلطان السابع لبني أيوب في مصر، عمل على تشجيع العلم والعلماء، وأكثر من إنشاء المراكز العلمية، اشتهر بقيادته في مواجهة الحملة الصليبية السابعة، والتي توفي أثناءها في المنصورة سنة (٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م)؛ ابن الفوطي (كمال الدين عبد الرزاق ت ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣ م): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تح: مصطفى جواد، المكتبة العربية، بغداد، التاريخ الميلادي، ١٩٩٧ م، ص ١١٥-١١٤؛ ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٧ م): نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تح: سمير طياره، المكتبة المصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٩ م، ص ١١٧-١١٨؛ المقريزي (أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م، ج ١، ص ٣٤٤؛ الطولوني (حسن بن حسين ت ٩٢٣ هـ/ ١٥٠٣ م): النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية، تح: محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٨ م، ص ١٣٦-١٣٨.

(٣)- النهار (عمار): الأوقاف الإسلامية وأثرها على النهضة العلمية في عصر المماليك، جامعة دمشق، سوريا، ٢٠٠٢ م، ص ١-٢.

كما اشتهر العصر الأيوبي بكثرة بناء دور التعليم، فقد أنشئت المدارس والأربطة (١) والخوانق (٢) والزوايا (٣) والبيمارستانات (٤) والمدارس الطبية وغيرها من المنشآت التي نمت وازدهرت وأسهمت في تطوير علم التعمية خلال هذا العصر .

- (١)-الربط: الربط في الأصل هي البناء المحصن الذي يقام قرب الحدود ويرابط به المجاهدون، وأصبح فيما بعد يطلق على المكان الذي ينزل به الصوفية، فأصبح يؤدي وظيفة دينية إلى جانب أنه مركز للعلم؛ العطاري (جلال يوسف): حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، دار الفكر، عمان، ٢٠١١م، ص ٢٤؛ عبد الله (دولت): معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي، مطبعة حسان، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٤٨؛ الشهابي (قتيبة): معجم دمشق التاريخي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٩م، ج ١، ص ٣٩.
- (٢)-الخانقاه: لفظ فارسي معناه بيت، أطلقت على الأماكن المعدة للزهاد وأتباع الطرق الصوفية، وقد كانت الخواص مكتبات عامة بالكتب القيمة، ولها خازن يقوم بخدمة من يرد إليها من الطلبة، وكان يلحق بها مكتب لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء القرآن الكريم ومبادئ القراءة والحساب؛ فرغلي (أبو الحمد محمود): الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقيطية في القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٣٨؛ النباهين (سالم): نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٢٦٧.
- (٣)-الزاوية: يقصد بها المسجد الصغير الذي يجلس فيه رجال الصلاح والوعظ، وقد أدت الزوايا في العصر الأيوبي دوراً مهماً، فقد كانت مركزاً للعبادة وتعليم القرآن الكريم والحديث في آن واحد، وقد استقطبت كثيراً من طلبة العلم، إذ كان يُحسَن فيها للطلبة ويجمعون على التفقه، ويرتّب لهم ما يأكلون، ويسعى لهم في الرزق وخصوصاً الواردين من الضواحي؛ العسلي (كامل جميل): معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م، ص ٧٥؛ الحجّي (حياة ناصر): صور من الحضارة العربية في سلطنة المماليك، دار القلم، الكويت، ط ١، ١٩٩٢م، ص ١٦٣.
- (٤)-البيمارستان: كلمة فارسية الأصل، مركبة من لفظين، بيمار: وتعني المريض أو العليل المصاب، وستان: وتعني دار أو مكان، وتعني الكلمة بذلك دار المرضى، ولم تقتصر وظيفة البيمارستان على معالجة المرضى فقط، بل خصصت لتعليم الطب أيضاً؛ كرد علي (محمد): خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ٢٠١٥م، ج ٦، ص ١٥٦-١٥٧؛ عيسى (أحمد): تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار القرآن العربي، بيروت، ١٩٨١م، ص ٤؛ حلاق (حسان) و صباغ (عباس): المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول الفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٤٨-٤٩؛ دهمان (محمد): معجم الألقاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٤١.

وأدى ذلك إلى ظهور الكثير من المؤلفات في هذا المجال من أهمها:

بداية العصر الأيوبي القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي نجد البغدادي ينقل لنا في كتابه هدية العارفين عن عالم أسمه أحمد بن عبد العزيز بن هشام الشنتمري، كان حياً سنة (٥٥٣ هـ/١١٥٨ م)، وهو من جملة المقرئين وكبار أسانيد النحويين، شاعراً محسناً، كاتباً بليغاً، متقدماً في العروض وفك المعنى، توفي بعد سنة (٥٥٣ هـ/١١٥٨ م) (١)

ومع نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي نتوقف مع أسعد بن الخطير أبي سعيد المهذب بن مماتي، ولد في القاهرة سنة (٥٤٤ هـ/١١٤٩ م)، وزير وكاتب وأديب وشاعر ومؤرخ، ويعد موسوعة في الأدب والفقه واللغة والدواوين والتراجم، كان ناظر الدواوين في الديار المصرية، ولعل أهم كتبه كتاب قوانين الدواوين (٢)

وكتابه في علم التعمية (خصائص المعرفة في المعميات)، توفي في حلب سنة (٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م) (٣)

وندخل في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي مع إبراهيم بن محمد بن دنيير (٦٢٧ هـ/١٢٢٩ م) ورسالته (مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة)، وقد أفاض بالكلام على طرق التعمية بالإخفاء، وعرض بعض طرق التعمية المركبة، كاستعمال طريقتي القلب والإعاضة معاً. ونأتي بعد ذلك إلى أهم أعلام التعمية في العصر الأيوبي العالم علي بن عدلان (ت ٦٦٦ هـ/١٢٦٨ م)، وقد ألف (المؤلف للملك الأشرف في حل التراجم) و(المعلم) (٤)، وأحال عليه من رسالته الماضية، وقد اختصت رسالته بطرق استخراج المعنى، وتضمنت عشرين قاعدة في استخراج المعنى، وهي موضوع بحثنا هذا وسنتحدث عنه لاحقاً بالتفصيل

- (١)-البغدادي(إسماعيل بن محمد ت ١٣٣٩ هـ/١٩٢٠م): هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين ، وكالة المعارف ، إسطنبول ١٩٥١م، ج١، ص٨٥؛ كحالة(عمر رضا): معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص٢٧٦؛ مراياتي (محمد) وآخرون: علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٨٧م، ج١، ص٥١-٥٢ .
- (٢)-ابن الساعي (علي بن أنجب ت ٦٧٤ هـ/١٢٧٥م):الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، تح: مصطفى جواد ، المطبعة السريانية، بغداد ، ١٩٣٤م ، ج٩ ، ص٣٠١ ؛ أبين العديم(عمر بن أحمد ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م) :تبغية الطلب في تاريخ حلب ،تح: سهيل زكار ، دار الفكر للنشر ، بيروت ، ١٩٦١م ، ج٤ ، ص٥٣؛ الأندلسي(علي بن موسى ت ٦٨٥ هـ/١٢٨٦م): المغرب في حُلَى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف ، مصر، ١٩٦٤م، ص٢٦٩-٢٧٢؛ العمرى(أحمد بن يحيى ت ٧٤٩ هـ/١٣٤٩م): مسالك الأبصار في مسالك الأمصار ، تح: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، مصر ، ١٩٢٤م ، ج١٢ ، ص٥٨؛ أبين كثير (إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م): البداية والنهاية ،تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مركز البحوث والدراسات العربية و الإسلامية ، مصر ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ج١٣ ، ص٥٣ ؛ النويري(أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ/١٣٣٣م): نهاية الأرب في فنون الأدب،تح: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز ،دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، ج٢٩ ، ص٥١-٥٢؛ الزركلي: الأعلام ، ج١ ، ص٣٠٢ .
- (٣)-الحموي(ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٩م): إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ،تح: إحسان عباس ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ج١ ، ص٦٣٥؛ أبين الساعي (علي بن أنجب ت ٦٧٤ هـ/١٢٧٥م): الدر الثمين في أسماء المصنفين، تح: أحمد شوقي بنين، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠٠٩م ص٣٠٢؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١ ، ص٢٠٥ .
- (٤)-الكتبي(محمد بن شاعر ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م):فوات الوفيات والذلل عليه ، تح:إحسان علي ،دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣م ، ص٤٣ ، البغدادي:هدية العارفين ، ج١ ، ص٧١١ .

٣-دوافع الإهتمام بعلم التعمية في العصر الأيوبي

شهد العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨ هـ/١١٧٤-١٢٥٠م) نهضة علمية وفكرية واسعة، خاصة في مجال علم التعمية، إذ شهد هذا العلم تطوراً كبيراً، فصنفت فيه الكثير من الكتب، التي تناولت طرق التعمية وكيفية حل الرموز المعقمة، واشتهر عدد كبير من علماء التعمية، وكان لنشاط الحركة العلمية بشكل عام، وازدهار علم التعمية بشكل خاص في هذا العصر دوافع عدة أبرزها:

أ-دوافع سياسية

أدى اتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية في العصر الأيوبي ومتاخمتها للعديد من الأمم الأخرى ، وحملها لراية الجهاد ضد الصليبيين إلى الحاجة إلى نقل المعلومات الإدارية بين الأقاليم بسرية، فكان من الطبيعي أن يشتمل بعض ما يكتب أو يرسل على شيء توجب الضرورة كتمانها أو تعميته، مما اقتضى الممارسة العملية للتعمية واستخراجها في بيئة التراسل والدواوين والإدارة.(1) مما كان له كبير الأثر في تطور علم التعمية واستخراج المعنى في هذا العصر ،حيث أهتم السلاطين الأيوبيون بتطوير علم التعمية وأساليبه بغية استخدامه في المراسلات البريدية بين أقاليم الدولة بهدف التجسس ومراقبة الولايات بسرية ، فقد كانت مراقبة الولايات تعتمد بشكل أساسي على الشبكات البشرية والمخابرات (الجواسيس) والرسل لجمع المعلومات عن أي تمرد، أو حركة مشبوهة، أو عدم ولاء، أو حتى شكاوى من السكان ، إضافة إلى التقارير الدورية للسكان المحليين والولاة لضمان الولاء وسرعة الاستجابة، حيث لم تكن التقنيات الحديثة موجودة، فكانت القوة العسكرية والحامية في المدن الرئيسية وسيلة رئيسية للسيطرة، مع الاعتماد على تقسيم الولايات إلى مناطق أصغر للمراقبة الفعالة ،بالإضافة إلى استخدامه في المراسلات للاتفاق بين القادة المتحالفين على تدبير مؤامرات سياسية كالاغتيال أو الانقلاب ونحوها من الأمور التي تطلب

سرية تامة، والحرص على إخفاء معلوماتها عند نقلها من طرف لأخر، خشية وقوع هذه الرسائل بيد خصومهم ومنافسيهم من الدول المجاورة ، وضمان سرية الاتفاقيات .

(١)-رجه (الاء حماد): كاتب السر في الدولة المملوكية (٦٤٨-٩٢٣ هـ/١٢٥٠-١٥١٧ م) ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد، العراق، ٢٠٠٥م، ص٣٨.

ب-دوافع عسكرية

حظي علم التعمية بعناية واهتمام كبير لدى السلاطين الأيوبيين، وكانت الدوافع العسكرية الأبرز دون شك، فقد دفعتهم الحاجة في إخفاء محتوى مراسلاتهم عن أعدائهم من مغول وصليبيين إلى استخدام التعمية (التشفير) لحماية كتبهم ومراسلاتهم، ومن المعروف أن التعمية إنما تستخدم للأغراض العسكرية التي تطلب سرية تامة، والحرص على إخفاء معلوماتها عند نقلها من طرف لأخر، أو عند الحروب كنوع من ضمان سرية المعلومات والخطط العسكرية المتبادلة بين القادة العسكريين في ساحات المعارك في حال وقعت تلك المعلومات في أيدي العدو.

وقد شكل الدافع العسكري في العصر الأيوبي نقطة تحول هامة في تاريخ علم التعمية نتيجة الحاجة العسكرية الملحة له، فقد حملت هذه الدولة راية الجهاد ضد الصليبيين على يد مؤسسها صلاح الدين الأيوبي (١)(٥٨٩ هـ/١١٩٣ م)، وخلفاءه من بعده، فكانت الدولة الأيوبية دولة عسكرية من الطراز الأول لكثرة حروبها مع الصليبيين، الذين شكلوا خطراً كبيراً على بلاد الشام ، واستولوا على عدد من المدن الساحلية، وأخذوا بتهديد الوجود العربي والإسلامي، مما شكل عامل

تحدّ في وجه الدولة الأيوبية مزعزعاً استقرارها السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي، وغلب عليهم الطابع العسكري الذي يفرض قيام غارات وغزوات ضد الصليبيين، وهذا ما شكل دافعاً قوياً لديهم للأهتمام بالتعمية وتطوير رموزها، حرصاً منهم على إخفاء محتوى المكاتبات السرية والخطط العسكرية المتبادلة بين القادة العسكريين في ساحة المعركة.

وتشير المصادر التاريخية المرتبطة بعصر صلاح الدين الأيوبي إلى أهمية المراسلات ونقل الأخبار والمعلومات العسكرية والاستخباراتية في إدارة الحرب ضد الصليبيين، ولا سيما في الحملة التي انتهت بمعركة حطين (٢) الخالدة في أذهاننا عام (٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م)، فقد كان صلاح الدين يعتمد على شبكة واسعة من الرسل وأصحاب الأخبار (٣)، وإن ذلك يمثل البيئة التي كانت تستدعي التعمية .

(١) -صلاح الدين الأيوبي: السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، ولد في قلعة تكريت في العراق عام (٥٣٢ هـ/ ١١٣٧ م)، ويعد المؤسس الحقيقي للدولة الأيوبية، واحداً من أعظم ملوك الإسلام، اختاره العاضد آخر الخلفاء الفاطميين للوزارة وقيادة الجيش، ثم استقل بملك مصر، وكان أعظم انتصار له على الإفرنج في فلسطين في يوم حطين الذي تلاه أسترداد طبرية وعكا ويافا (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م) ؛ أين شداد :النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص١٢-١٨-٢٠ ؛ عزام(عبد الرحمن) :صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني ،دار بلومزيري ،قطر ، ط٢، ٢٠١٣ م، ص٤٢ ؛ حسين(حمدي عبد المنعم محمد) :دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية، ٢٠٠٠ م، ص٧-٨ .

(٢) -معركة حطين: تعد معركة حطين إحدى المعارك الفاصلة بين الصليبيين والمسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وقعت في يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر عام (٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م) في تلال حطين قرب قرية المجاودة في فلسطين، وقد حقق المسلمون انتصاراً كبيراً في المعركة وتمكنوا بعدها من تحرير مدن فلسطينية عديدة؛ أبو خليل (شوقي): المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٥ م، ص٨٠-٨١-٨٤ .

(٣) -علوان (عبد الله ناصر): صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين، دار السلام، مصر ، ١٩٧٥ م، ص٤٧-٥٠ .

بالإضافة إلى ذلك عندما سقطت الدولة الايوبية في مصر وأستولى المماليك ع ملك مصر ،فسارع الأيوبيين أصحاب الحق الشرعي في ملك مصر والشام، بالإستيلاء على السلطنة بالشام، فأستولى الملك الناصر يوسف (١)صاحب حلب على دمشق، والملك المغيث عمر (٢)على الكرك والشوبك، والملك السعيد حسن(٣) على قلعة الصبيبة(٤) ،فاستقر رأي أمراء المماليك على أن يشترك في الحكم طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسى حفيد الملك الكامل محمد، لكن هذا الإجراء لم يسكت غضب الأيوبيين في الشام ، ثم أستولى المغول على بغداد وقاموا بقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله في الرابع من صفر سنة (٦٥٦هـ /١٢٥٨م) ،مما آثار موجة شاملة من الذعر في العالم العربي و الإسلامي أجمع ، وبدأ الحكام في مصر والشام بالذات يحسون أن دورهم قريب ، وأن الموقف يتطلب الاتحاد لمواجهة تلك الأزمة التي لم يشهد المسلمون مثلها حتى ذلك الوقت (٥)

-
- (١)-الملك الناصر يوسف:الناصر يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف ،آخر ملوك بني أيوب، ولد بقلعة حلب سنة(٦٢٧هـ /١٢٣٠م)، ولي الملك فيها بعد وفاة والده سنة (٦٣٤ هـ/١٢٣٦م) و عمره سبع سنين، فقام وزراء أبيه بتدبير مملكته ،بذكر تاريخياً بضغفه السياسي، وخاصةً ببتنازله عن سلطته لصالح المغول بدلا من محاربتهم، اتسمت فترة حكمه بالصراعات الداخلية والخارجية ،توفي سنة(٦٥٩ هـ/١٢٦١م)؛ أبن تغري بردي:النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٢٠٣؛ الزركلي: الأعلام ، ج٨ ، ص٢٥٠ .
- (٢)-المغيث عمر: هو الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، صاحب الكرك، كان مولده بالقاهرة سنة(٦٠٦ هـ /١٢٠٩م)، كان مغيث الدين عمر رجل ضعيفاً جداً، ومع ذلك كان صاحب أطماع كبيرة ، وكانت من أمنياته أن يكون حاكماً لمصر ولعل هذه الأمنية سبب مقتله ،فقد حاول أن يحكم مصر فقتله الظاهر بيبرس سنة(٦٦٢ هـ /١٢٦٤م)؛النويري:نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٢٩، ص٣٩٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٧ ، ص ٤١٥-٤٢٥؛ الزركلي: الأعلام، ج ٥ ، ص ٤٢ .
- (٣)-الملك السعيد حسن: الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن السلطان الملك العادل الأيوبي ، تملك الصبيبة سنة (٦٣١ هـ/١٢٣٣م)، ثم أخذها منه السلطان الملك الصالح بعد سنين ، وأعطاه إمرة في مصر، فلما قتل المعظم ابن الصالح (٦٤٨ هـ/١٢٥٠م) عاد الى الصبيبة وتملك الناصر (يوسف بن محمد) دمشق فقبض عليه وسجنه في البيرة (على شط الفرات) ودخلها هولاكو فأطلقه وأعادته الى الصبيبة، وبقي في خدمة التتار بدمشق إلى أن انهزموا وظفر به الملك المظفر (قُطُز) فقتله سنة(٦٥٨ هـ/١٢٥٩م)؛الذهبي: سير أعلام النبلاء ، ج٢٣ ، ص٢٠٧؛ الزركلي: الأعلام ، ج٢ ، ص ٣٠٠ .
- (٤)-قلعة الصبيبة:بضم الصاد وفتح الباء تصغير للصبة وهي جماعة من الخيل ، وتعرف بقلعة النمرود أو قلعة الصبيبة، أو قلعة الجرف الكبير، وهي قلعة بناها الأيوبيون وقام المماليك بتوسيعها بشكل كبير، تقع على المنحدرات الجنوبية لجبل الشيخ، على سلسلة

من التلال ترتفع حوالي (٢٦٠٠ قدم) فوق مستوى سطح البحر، تطل على مرتفعات الجولان وقد تم بناؤها بغرض حراسة طريق الوصول الرئيسي إلى دمشق ضد الجيوش القادمة من الغرب؛ العساف (فاتن): قلعة الصبيبة من روائع التحصينات العربية في الجولان، ٢٠١٠م، ص ٣-٥ .
(٥)-حسين: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٥٧-١٥٨-١٦١-١٦٢ .

لكن ملوك الأيوبيين في الشام رأوا أن يتخذوا في مبدأ الأمر سياسة ملاينة المغول لعل ذلك ينقذهم من أذاهم، فبعث الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق بأبنه إلى هولاكو (١) يخطب وده ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من أيدي المماليك، لكن هولاكو رد عليه رداً جافاً يأمره فيه بالخضوع والتبعية دون قيد أو شرط، ثم بدأ هولاكو يغزو الشام، فلم يجد الناصر يوسف بداً من مد يد العون إلى المماليك لمواجهة الخطر المغولي (٢)
من الأمثلة على ذلك ما حدث في دولة السلطان الظاهر برقوق (٣) (٧٨٤-٨٠١ م/ ١٣٨٢-١٣٩٨ م) عندما كان تيمورلنك (ت ٨٠٧ م/ ١٣٧٠ م) في العراق يستعد للاستيلاء على الممالك الشامية فوصله كتاب من الممالك الحلبية جاء فيه: (أنه وقع بتلك البلاد سيل عظيم ساق جملة من الأسود والنمور والحيات، وأنه دفع حية عظيمة سعة رأسها بقدر قوس)، فلما قرأ الكتاب بحضور السلطان فهموه على ما كتبه الكاتب بحصول سيل عظيم ساق تلك السباع والحية لقوته، ثم ظهر لهم بعد ذلك أن المقصود بالسيل تيمورلنك وجنوده والحية العظيمة نيابة عن تيمورلنك والسباع والحيات يقصد بها عساكره. (٤)
وهكذا نرى كيف دفعت الحاجة إلى نقل المراسلات والمعلومات بسرية بين الأمراء الأيوبيين في أوقات الحرب إلى استخدام التعمية من أجل أخفاء محتوى الرسائل كنوع من ضمان سرية المعلومات والخطط العسكرية المتبادلة بين القادة العسكريين في ساحات المعارك في حال وقعت تلك المعلومات في أيدي الأعداء من صليبيين و مغول.

- (١)-هولاكو: هولاكو خان حفيد جنكيز خان و مؤسس الإمبراطورية المغولية، ولد سنة (٦١٩ هـ/١٢١٧م) والده تولوي خان أصغر أبناء جنكيز خان وأمه سرخقتاني بكى، وهو أول خانات فارس ومؤسس عهد الخانات فيها، عينه شقيقه مونكو الخان الأعظم حاكماً على المنطقة الغربية من الإمبراطورية ففضى على الخلافة العباسية، ثم أسس دولة الإليخانية على أرضي فارس بعد تفتت الإمبراطورية المغولية، وحكم العراق ١٠ سنين، (ت ٦٦٣ هـ/١٢٦٥م)؛ عبد الحكيم(منصور): هولاكو المارد القادم من الشرق جزار التاريخ عدو الحضارة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٤٠-٢٤٧؛ الصاوي (الصاوي محمد): هولاكو الأمير السفاح، مكتبة النافذة، مصر، ط ١، ٢٠١٢م، ص ١٥٣-٢٠٥.
- (٢)-حسين: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٥٧-١٥٨-١٦١-١٦٢.
- (٣)-الظاهر برقوق: هو السلطان سيف الدين برقوق، كان اسمه الأصلي "الطنبغا"، وسماه أستاذه بليغا الخاصكي "برقوق" نسبة إلى جحوظ عينيه، وهو أول سلطان من سلاطين المماليك الجراكسة، وأسس دولتهم في مصر عام ١٣٨٢م، ليحكمها على فترتين، كان فارساً ماهراً، واشتهر بالعدل والتواضع، تصدى بنجاح لخطر المغول توفي سنة (٨٠١ هـ/١٣٩٩م)؛ العيني(بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١م)؛ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: متح:محمود رزق محمود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠١٠م، ج ٢، ص ٤٩٤.
- (٤)-القلقشندي(أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م):صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٦م، ج ٩، ص ٢٣٨-٢٣٩.

ج-دوافع اقتصادية

يعد الجانب الاقتصادي الركيزة الأساسية أو العمود الفقري لأي دولة، ودليل على مدى تحضرها، بحيث إذا كان الجانب الاقتصادي للدولة مزدهراً، فهذا دليل قطعي على استقرارها السياسي والاجتماعي و تطورها الفكري والثقافي .

وقد شهدت مصر في العصر الأيوبي انتعاشاً اقتصادياً كبيراً، اعتمد على الزراعة والتجارة والصناعة المزدهرة، حيث ازدهرت الزراعة بسبب توسع الأراضي الزراعية وبناء السدود والقنوات المائية لزيادة الإنتاج الزراعي، وكثرت المحاصيل الزراعية مثل الحبوب والخضراوات، فيما ازدهرت التجارة بفضل موقع مصر الجغرافي المتميز كحلقة وصل بين أوروبا وآسيا وأفريقيا، وتم بناء أسواق

وموانئ جديدة لتعزيز حركة التجارة الداخلية والخارجية، وكانت الإسكندرية من أكبر الموانئ التجارية، كذلك شيدت الخانات في الطرق لتسهيل حركة التجارة والبضائع . (١)

إضافة إلى الصناعة والتي بلغت أوجها في العصر الأيوبي، حيث ازدهرت الصناعات اليدوية مثل النسيج والخزف، كذلك الصناعات العسكرية كصناعة السفن، حيث تم بناء دور خاصة لإنشاء السفن (٢)، مما ساهم في ازدهار الاقتصاد العام، إضافة إلى اعتماد الأيوبيين على العديد من التنظيمات داخل الأسواق وفي المصانع، كل ذلك أهل مصر لأن تكون مركزاً تجارياً هاماً، ونقطة عبور بين الشرق والغرب، وتوافدت السفن التجارية على مصر من كل حذب . (٣)

أثر ازدهار الاقتصاد الأيوبي في مصر بشكل كبير على تقدم الحياة العلمية حيث ساهمت الأموال الناتجة عن الازدهار الاقتصادي في توفير الدعم المالي للمدارس والمؤسسات العلمية، و كان رواج التجارة والصناعة يترجم إلى أموال يتم تخصيصها للتعليم، بالإضافة إلى تمويل بناء المدارس والمراكز التعليمية، بما في ذلك بناء دور للعلم ووقف أوقاف عليها لدعمها، مما أدى إلى زيادة عدد طلاب العلم، كذلك كانت المراكز العلمية جزءاً من المشاريع العمرانية التي استثمرت فيها الدولة الأيوبية جزء من ثروة الدولة، فعملت على إصلاح المنشآت القائمة مثل الجوامع، وكذلك في بناء مراكز جديدة للصناعة والتجارة، والتي أصبحت في الوقت نفسه مراكز علمية وثقافية .

كذلك عمل السلاطين الأيوبيين على تشجيع العلماء فقربوهم إليهم وقدموا لهم الهبات، بالإضافة إلى المعونات العينية، والجوائز، وخصصوا للمدرسين وللطلبة مبالغ مالية أجريت عليهم شهرياً، فكان لذلك الأثر الواضح في كثرة العلماء والفقهاء وطالبي العلم، وشجع ذلك العلماء على التنافس العلمي وتأليف الكتب للحصول على الهبات والجوائز والأعطيات (٤)

(١)-كاشف (سيده إسماعيل) وآخرون: موسوعة تاريخ مصر عبر العصور تاريخ مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للمكتبة العامة، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص٤١٠؛ حاطوم (نور الدين): تاريخ العصر الوسيط، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٧م، ص٤١٥ .

(٢)-عبد المنعم (صبحي): تاريخ مصر السياسي والحضاري من الفتح الإسلامي حتى العهد الأيوبي، دار العربي، القاهرة، د.ت، ص٢١٠ .

(٣)-العبادي(أحمد مختار):في التاريخ الأيوبي والمملوكي، جامعة الإسكندرية، مصر، د.ت، ص١١٠-١١١ .

(٤)-ناصر (عامر نجيب): الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشروق، عمان، ٢٠٠٣م، ص٥٥ .

ثانياً: علي بن عدلان (٥٨٣-٦٦٦هـ/١١٨٧-١٢٦٨ م)

١- ولادته ونشأته

هو علي بن عدلان بن حماد بن علي، الإمام العلامة عفيف الدين أبو الحسن الربيعي الموصلّي النحوي المترجم (١)، وقد لقب بالمترجم لأنه كان ماهراً بحل المترجم والألغاز. ولد ابن عدلان بالموصل سنة (٥٨٣ هـ/١١٨٧ م) (٢)، وقضا بها أيام الصبا، ثم أرتحل إلى بغداد ودرس فنون الآداب، وأولع بحل المترج والألغاز، ثم أرتحل إلى بلاد الشام ودخل حلب، وأجاز له العلامة تاج الدين أبو اليمن الكندي (٣). ولأبن عدلان مراسلات في الألغاز والمعنى مع علماء عصره، كعلم الدين السخاوي (٤) وأبن خلكان (٥). كان أعجوبة في الذكاء (٦) رأساً في الأدب، شاعراً مجيداً، بل عده بعضهم من أذكاء بني آدم، ولعل ذلك وغيره قد أعانه على البراعة في الألغاز وحل المترجم، فانفرد بذلك دون كثير من مهرة هذا الفن، وترك فيه غيرما كتاب، توفي سنة (٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨ م) في القاهرة، فيكون بهذا قد عاصر الدولتين الأيوبية والمملوكية (٧).

- (١)- أبن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٢٦؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج ٢، ص ١٧٩ .
- (٢)- المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٥٣؛ البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ٧١١.
- (٣)- أبو اليمن الكندي: هو أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن الكندي، ولد في بغداد سنة (٥٢٠ هـ/١١٢٥ م) وحفظ القرآن في سن السابعة، ثم أنتقل إلى دمشق، وأخذ اللغة عن الجواليقي، والنحو عن ابن الشجري وأبن الخشاب، كان أوجد عصره في الأدب، وكان له اهتمام بالغ بالنحو واللغة والقراءات والحديث، وفي دمشق عمل في التدريس وذاع صيته كعالم جليل، وكان الطلاب يزدهجون في مجالسه، توفي في دمشق سنة (٦١٣ هـ/١٢١٦ م)؛ الزركلي: الإعلام، ص ٥٧؛ الطنطاوي (أحمد): نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥ م، ص ٢٠٨-٢٠٩؛ الأسعد (عبد الكريم): الوسيط في تاريخ النحو العربي، دار الشروق للنشر، الرياض، ط ١، ع.د.ت، ص ١٣٨-١٣٩.
- (٤)- علم الدين السخاوي: أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري السخاوي المقرئ النحوي، ولد بسنخا سنة (٥٥٨ هـ/١٢٦٣ م)، عالم بالقرأت والأصول واللغة والنحو والتفسير، توفي سنة (٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م)؛ الحنبلي (عبد الحي بن أحمد ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨ م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٩٨٩ م، ج ٥، ص ٢٢٢؛ الزركلي: الإعلام، ج ٥، ص ١٥٤؛ فروخ (عمر): تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤ م، ج ٣، ص ٥٥٢.
- (٥)- أين خلكان: هو العالم والأديب شمس الدين، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان البرمكي الإربلي الشافعي، قاضي قضاء دمشق وعالمها ومؤرخها، ولد سنة (٦٠٨ هـ/١٢١٢ م) بربل التي نشأ بها، وهو صاحب التاريخ المشهور وفيات الأعيان، ولي قضاء دمشق مرتين، الأولى حوالي سنة (٦٦٠ هـ/١٢٢٦ م)، وعزل وأُنقل إلى القاهرة، ودرس نحو سبع سنوات، ثم أعيد إلى قضاء دمشق، توفي سنة (٦٨١ هـ/١٢٢٨ م)؛ أبن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢٣-٢٩٩.
- (٦)- أين عدلان (علي بن عدلان ت ٦٦٦ هـ/١٢٦٨ م): الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥ م، ص ٧.
- (٧)- مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى، ج ١، ص ٩٨.

٢- حياته العلمية

عاصر وعاشر علي بن عدلان فحول علماء اللغة في وقته، فقد درس الأدب على أبي الحرم مكي بن ريان الماكسيني النحوي (١)، وقرأ عليه ديوان المتنبي (٢)، ثم أرتحل إلى بغداد وأدرك بها محب

الدين أبا البقاء العكبري النحوي الضرير (٣) فأخذ عنه، ومال إلى الزهد والعبادة، وكتب لنفسه جزءاً من كلام المشايخ والعارفين، وسمع الحديث من ابن الأخضر الحنبلي (٤)، ويحيى بن ياقوت (٥)، وعبد العزيز بن منينا (٦) .

وكانت له قدرة فائقة شهد بها المؤرخون في حل الرسائل المكتوبة برموز غامضة (والتي كانت تسمى بالتراجم أو المعمى) وأقرأ وعلم ما تعلم خاصة علوم اللغة العربية التي سمعها منه كثيرون، حيث تصدر لتدريس اللغة العربية والعلوم الأدبية في جامع الصالح بالقاهرة، هو أحد المساجد والمدارس العلمية المرموقة آنذاك، وكان يجتمع حوله طلاب العلم والعلماء للاستفادة من علومه ولغته، وظل يمارس التدريس والعمل العلمي هناك حتى وافته المنية سنة (٦٦٦ / ١٢٦٨ م) .

عاش ابن عدلان قرابة ثمانية عقود، اشتهر خلالها بحدّة ذكائه وتقدمه في النحو و فنون الآداب، وأبدع بحل المترجم والألغاز، وقد أثنى عليه العلماء، فصنّفه ابن شاکر الكتبي (ت ٧٦٤ م/ ١٣٦٠م) بأنه كان <علامة في الأدب، من أنكياء بني آدم، انفراد في حل المترجم والألغاز>، لكنه كان نزيّر التأليف قليله .

(١)-أبي الحرم الماكسيني:مكي بن ريان بن شبة بن صالح الماكسيني الموصلّي، المقرئ النحوي الضرير، ولد ونشأ بـمكسين وهي من أعمال الجزيرة، وخرج من بلده وقصد الموصل، واشتغل بها بعلم القرآن والأدب، ثم رحل إلى بغداد واجتمع بأئمة الأدب، وقرأ على أبي محمد ابن الخشاب وأبن العصار وأبن الأثيري ثم عاد إلى الموصل وتصدر بها للإفادة، وأخذ الناس عنه، وكان جامع فنون الأدب، وحجة كلام العرب، وفي سنة (٦٠٣ هـ/١٢٠٦م)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٤٢٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٧٨.

(٢)-المنتبي:أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكوفي الكندي، ولد سنة (٣٠٣ هـ/٩١٥م) في الكوفة في محلة تسمى (كنده) وإليها نسبته، نشأ في الشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية، وهو شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، له كتاب (الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المتكررة)، توفي سنة (٣٥٤ هـ/٩٦٥م)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٦؛ الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ١١٥ .

(٣)-أبا البقاء العكبري:عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين العكبري البغدادي الأزجي الضرير الحنبلي، ولد في بغداد سنة (٥٨٣ هـ/١١٤٣م)، هو عالم بالأدب واللغة والفرائض والحساب، توفي سنة (٦١٦ هـ/١٢١٩م)؛ أبي البقاء العكبري (عبد الله بن الحسين ت ٦١٦ هـ/١٢١٩م):التبيان في إعراب القرآن:تح:علي محمد الجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٦م، ج ٢، ص ٨٨٥؛ الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٨٠.

(٤)-ابن الأخضر الحنبلي: عبد العزيز بن محمود بن المبارك الجنايدي، يُعرف بابن الأخضر، محدّث العراق في عصره، ولد سنة (٥٢٤ هـ/ ١١٢٩م) ونشأ في بغداد، اشتهر بتضلعه في علم الحديث، وكان ثقة، وله مصنفات عديدة، منها كتاب <تنبيه اللبيب وتلقيح فهم المريب>، توفي سنة

- (٦١١ هـ/١٢١٤م)؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٥٥ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣١؛ الأُميني(عبد الحسين أحمد ت ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠م): سيرتنا وسنتنا، دار الكتاب الإسلامي، سوريا، ١٩٢٠م، ج ١، ص ٣٤٩ .
- (٥) - يحيى بن ياقوت: الشيخ أبو الفرج الفراهيدي بن ياقوت، سنة ولادته غير معلومة، سمع إسماعيل ابن السمرقندي، وعبد الجبار بن توبة، ويحيى ابن الطراح، ورتب شيخاً بالحرم ومعماراً، حدث عنه ابن الديبثي، ونزل مصر ثم عاد إلى بغداد وتوفي فيها سنة (٦١٢ هـ/١٢١٥م)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٥٤ .
- (٦) - عبد العزيز بن منبأ: أبو محمد عبد العزيز بن معالي بن غنيمه بن الحسن البغدادي الأشعري، ولد سنة (٥٢٥ هـ/١١٣٠م)، سمع من القاضي أبي بكر، ومن عبد الوهاب الأنماطي، وأبي محمد سبط الخياط، روى عنه ابن الديبثي، وقال: كان خيراً صحيح السماع، وروى عنه البرزالي، وابن النجار، توفي سنة (٦١٢ هـ/١٢١٥م)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٨٤.

٣- مؤلفاته

ترك ابن عدلان مصنفات هامة تدل على تنوع مجالاته بين التفسير والنحو والأدب، ومن أشهرها:

١- <الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب> خص المؤلف الكتاب بالأبيات المشككة الإعراب، ورتبه على حروف المعجم، واتسم كتابه بالإيجاز، وقد أورد فيه المؤلف (١٦٥) بيتاً من الأبيات التي ألغز فيها قائلوها، موزعة على حروف المعجم، وقام بفك تعقيداتها وإيضاح وجوه النحو فيها بأسلوب دقيق ومختصر .

٢ - <عقلة المجتاز في حل الألغاز> يعتبر الكتاب مصدراً لفهم الألغاز والأحاجي في العصور الوسطى، ويُعد مرجعاً هاماً لفهم فنون الأحاجي والحلول المعقدة في ذلك العصر، ويحتوي على نفائس من الألغاز والمفردات، جمع فيه الألغاز اللغوية والعقلية وشرح طرق حلها استناداً لقواعد الذكاء واللغة (١).

٣- <حل المترجم> أو <المؤلف للملك الأشرف> وهو رسالة في علم التعمية واستخراج المعنى، قسم إلى فاتحة وعشرين قاعدة وخاتمة ، يحوي عدة مواضيع هي عدة المترجم وذكر أمثلة في الترجمة بالتبديل ، ودراسة في اقتران الحروف ، وهو من أهم الكتب القديمة في علم التشفير، شرح فيه طرق كسر الرموز وتأمين المراسلات العسكرية والسياسية، ويعد الكتاب وثيقة تاريخية وعلمية هامة، يوضح فيه ابن عدلان القواعد والطرق الذكية لتفكيك الخطوط السرية وقراءة الرسائل المشفرة التي كانت تستخدم في المراسلات الحربية والسياسية آنذاك (٢)

٤- <أنفس الأتخاذ في إعراب الشاذ> كتاب متخصص في توجيه وإعراب "الشواذ" في اللغة العربية، والشاذ هنا يقصد به القراءات القرآنية الشاذة (التي لم تتواتر ولكنها صحيحة لغة)، أو الأبيات الشعرية والتراكيب العربية القديمة التي جاءت مخالفة للقواعد النحوية المشهورة، ويبين الكتاب الوجوه الإعرابية والعلل النحوية التي تبرر هذه التراكيب الشاذة وتجعلها مقبولة في القياس اللغوي .

٥- <التبيان في شرح الديوان> شرح لديوان الشاعر أبو الطيب المتنبي ، وقد اشتهر هذا الشرح بأن ابن عدلان تعقب فيه المعاني العويصة والألفاظ الغامضة في شعر المتنبي، ولم يقتصر الشرح على تفسير الكلمات فقط، بل ركز على توجيه الأبيات نحويًا، وحل التعقيدات اللفظية التي كان المتنبي يضمنها في قصائده .
ويجب التنبيه هنا إلى أن نسبة هذا الكتاب إلى علي بن عدلان ليست محسومة، فقد نسب إلى أبي البقاء العكبري، ورجّح بعض الباحثين ابن عدلان، بينما نسبه باحثون آخرون إلى زكي الدين السعدي .

٦- <الروضة المزهرة> كتاب متقدم في علم النحو واللغة، يُصنف كأحد المصنفات اللغوية التي يستعرض فيها المؤلف سعة اطلاعه ومسائل النحو المتقدمة، وقد عده الباحثين من كتب الفوائد والنواذر العربية التي تجمع بين اللغة والأدب .

٧- حزمة العين في اختلاف المذهبين > كتاب متخصص في الخلاف النحوي بين المذهبين، والمذهبين يقصد بهما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة في النحو، ويستعرض المسائل النحوية التي اختلف فيها علماء البصرة (أصحاب القياس المتشدد)، وعلماء الكوفة (أصحاب السماع الواسع)، ويذكر أدلة كل فريق ويرجح بينها بأسلوب علمي رصين. (٣)

-
- (١)-الكتبي: فوات الوفيات، مج ٣، ص ٤٣؛ البغدادي (إسماعيل بن محمد ت ١٣٣٩ م/ ١٩٢٠م): إيضاح المكنون في الذل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٤٧م، ج ١، ص ١١٢؛ الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٣١٢؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج ٧، ص ١٤٩؛ مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى، ج ١، ص ٩٩.
- (٢)-النهار: النشاط التألفي، ص ٥.
- (٣)-الكتبي: فوات الوفيات، مج ٣، ص ٤٣؛ البغدادي: إيضاح المكنون ج ١، ص ١١٢؛ الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٣١٢.

٤-إسهاماته في مجال علم التعمية

وتعد المساهمة الأكبر لابن عدلان في تاريخ العلم الإنساني هي ريادته في علم التشفير حيث وضع مناهج دقيقة لكسر الشفرات تعتمد على تتبع الحروف، ودراسة وتكرار الحروف في اللغة العربية، وكان من أشهر مؤلفاته في مجال التعمية رسالته: (المؤلف للملك الأشرف) والذي ألفه للسلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى (١)، وقد قسمها إلى فاتحة وعشرين قاعدة وخاتمة،

حوت الفاتحة ثلاثة مواضيع هي: عدة المترجم، وذكر أمثلة في الترجمة بالتبديل البسيط، ودراسة في اقتران الحروف لبناء الكلمة العربية.

وأحتوت القواعد على تسعة مواضيع هي: الطريقة التحليلية لحل المترجم (القواعد ١ ، ٢ ، ٣) استخراج

الفصل القاعدة (٤) ، استخراج (ال) وما حولها من حروف القواعد (٥ ، ٦ ، ٧) ، الكلمة المحتملة القاعدة (٨) ، استخدام حروف أوائل الكلمات وأواخرها القاعدتان (٩ ، ١٠) ، استعمال المضاعف من الحروف أو ثنائيات الحروف القواعد (١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥) ، حل المدمج القاعدة (١٢) حل المعنى من الشعر القاعدتان (١٦ ، ١٧) ، خلاصة وفوائد القواعد (١٨ ، ١٩ ، ٢٠) ، وحوت الخاتمة موضوعاً واحداً هو: الدرية (التدريب) والتمرن من خلال مثال عملي.

وبالتالي فإن هذه الرسالة تمثل دليلاً عملياً للباحث في علم التعمية واستخراجها، ودلت على أصالة ابن عدلان فيها النقاط التالية:

- ١- عرض ابن عدلان هذه الرسالة على شكل دليل عملي.
- ٢- تقديم فكرة (الضوابط) أو (المفتاح) بأبيات الشعر.
- ٣- أدخل لأول مرة بشكل صريح مفهوم المفتاح في طرائق التعمية.
- ٤- وضع قواعد وخطوات تحليل المعنى بشكل دقيق بحيث نستطيع أن نعدّها خوارزمية متكاملة لتحليل المعنى.
- ٥ معالجته المستفيضة للفواصل (الفراغ الفاصل بين كلمتين) في حالاته الثلاث (متحدداً، مختلفاً، مدمجاً: أي من الفاصل)
- ويكون ابن عدلان قد سبق بذلك العالم PORTA (٩٧١ هـ/١٥٦٣م) (٢) بثلاثة قرون، حيث أن الغربيون يعدون بورتا أول من كتب عن حل المدمج، تقسيمه الحروف من حيث تواترها إلى كثيرة ومتوسطة وقليلة، استعماله أطوال الكلمات وأوائلها وأواخرها، والتأكيد على استعمال الثنائية منها فالثلاثية فالرباعية، وما

يخص كلا منها، العناية بطريقة الكلمة المحتملة، الإستفادة من الحروف المضاعفة والمثلثة
والتثانيات

المضاعفة وتواترها، جاء بمفهوم لتقسيم الحروف من حيث تواترها، حدد بشكل دقيق المواصفات
الشخصية لمن سيتعامل مع التعمية والتشفير. (٣)

-
- (١)-الملك الأشرف مظفر الدين موسى :هو موسى بن إبراهيم بن أسد الدين شيراكوه ،ولد سنة (٦٢٧ هـ/١٢٣٠م) ،ملك حمص والرحبة
سنة (٦٤٤ هـ/١٢٤٦م) ،وعرف بالحزم والشجاعة والدهاء ، أقره هولاكو على حمص ، وولاه نيابة الشام مع كتبغا ، توفي في حمص
سنة (٦٦٢ هـ/١٢٦٣م) ؛ أبن العماد: شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١١ ؛ الزركلي: الأعلام ، ج ٧ ، ص ٣١٩ .
- (٢)-بورتا: هو جيامباتيستا ديلا بورتا، ولد سنة (٩١٣ / ١٥٣٥م) في مدينة فيكو إكوينسي جنوب إيطاليا، وهو عالم تعمية ورياضياتي
وفيزيائي، وفنان وعالم، ومخترع وكاتب، توفي في مدينة نابولي سنة (٩٩٣ / ١٦١٥م)؛ ويستقال(ريتشارد إس): جيامباتيستا ديلا بورتا
،قسم تاريخ وفلسفة العلوم ، جامعة إنديانا ، ١٩٩٥م ، ص ٢-٦ ؛ كاباروني (بييترو): نبذات عن السير الذاتية والمراجع للأطباء والعلماء
الطبيعيين الإيطاليين المشهورين من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر، روما ، ١٩٢٥-١٩٢٨م ، مج ١ ، ص ٥٧-٦٠ .
- (٣)-النهار :النشاط التألفي ، ص ٦-٥ .

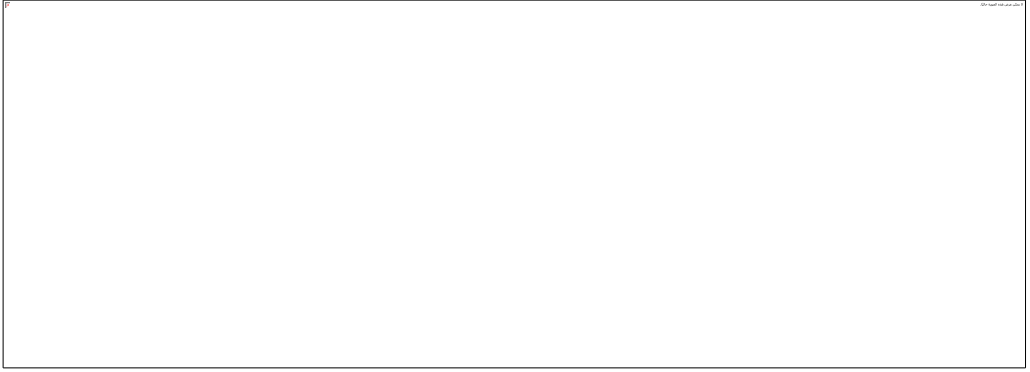
*أقسام رسالة ابن عدلان:

١-الفاتحة

أما الفاتحة فإن المترجم يستعان على حله بأمور منها: الذكاء ، جلاء خاطر ، والنشاط ، واللغة
، و النحو ، والتصاريف ، والتراكيب المستعملة في اللغة وغيرها ، ومعرفة العروض والقوافي ،
ومايكثر استعماله من الحروف ويتوسط ويقل ،وما يتنافر ويتوافق من تراكيب الحروف ، ومعرفة
كلمات يكثر استعمالها ويقل ويتوسط ثنائية وثلاثية ، ومعرفة الفواصل ، وذكر التمجيدات ، وكثرة

الرياضة بحصول التمرين والدربة بذلك والتأنيس والإشارة إلى شيء من تلك الأوضاع ، وهي كثيرة

فإذا أريد ذلك رسمت الحروف المعروفة في كل لسان ، ورسمت تحتها أشكال مخترعة متواضعاً عليها ، ثم تكتب بذلك ، فكلما أنقضت كلمة ، جعلت علامة تؤذن بالفصل ، إن كان المترجم غير مدمج ، والمدمج الذي ليس له فاصلة ، مثال ذلك :



ونظير هذه الرموز التي ذكرها المؤلف في الجدول السابق الأقلام المتداولة الكتابة ، إلا أن المعبر عنه بإقلام غير عربية ، والأقلام القديمة منها ما معناه عربي وغيره ، والهندي وغيره .
فالكتابة ظاهرة وكذلك رسوم الضوابط ، كقول الشاعر :

مُدَّ سَخَطْتُ غُصْنٌ عَلَى لَافِظٍ

قَدْ ضَجَّ زُخْرٌ وَشَكَا بَنُّهُ

وقول الآخر:

صَحَّ عُنْدِي وَقْتُ شَغْلٍ بِيهِمْ أَخَذُ فِظًّا كَثَّ رَطًّا ضَرَّ جَسِي

وهي بقدر عدد الحروف العربية دون تكرار أو نقص .
وأن شئت جعلت بعضها مكان بعض ، أو جعلت أول كل بيت عبارة عن الألف، وثانيه عبارة عن الباء ، وهلم جره إلى آخره ،وقد تجعل الأشكال على عدد الحروف ،وقد تنقص الأشكال وحدها وتنعكس ، وقد تفصل بفواصل كثيرة ومختلفة .(١).

(1)-مراياتي:علم التعمية واستخراج المعنى ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

القواعد العشرين

تكشف القواعد العشرين التي وضعها علي بن عدلان في علم التعمية عن منهج متكامل في تحليل النصوص المرمزة، لا يقوم على تخمين الحروف بصورة منفردة، وإنما يعتمد على جملة من القرائن المتضافرة، بعضها إحصائي يتعلق بتكرار الحروف والأشكال، وبعضها لغوي يتعلق ببنية الكلمة

وشبوع الألفاظ والتراكيب، وبعضها سياقي يستند إلى معنى الكلام ومقامه، فضلاً عن الإفادة من خصائص الشعر العربي من وزن وقافية، ومن ثم يمكن إعادة تنظيم قواعده العشرين في مجموعة من المحاور المنهجية المشتركة التي تكشف مراحل عملية الحل وتدرجها، وهي كالتالي:

أولاً: الأساس الإحصائي وتحليل تكرار الحروف

القاعدة الأولى: (مراتب الحروف بحسب كثرة الاستعمال)

يبدأ ابن عدلان حلّ التعمية من ملاحظة تكرار الأشكال في النص المرّمز، ويربط هذا التكرار بدرجات شبوع الحروف العربية، فقسّمها إلى ثلاث مراتب: كثيرة، ومتوسطة، وقليلة. فالمرتبة الكثيرة تضم سبعة أحرف يجمعها لفظ «الموهين»، وهي: الألف، واللام، والميم، والهاء، والواو، والياء، والنون، فالألف إذا وقعت في كتابة تعادل (٦٠٠)، واللام (٤٠٠) لكنها ليست ثابتة، والميم (٣٢٠)، والهاء (٢٧٠)، والواو (٢٦٠)، والياء (٢٥٠)، والنون (٢٢٠)، وذلك غالباً، ولكن يمكن أن تتغير القيم والأرقام بناءً على شروط معينة حسب الاستعمال والنص. إما المرتبة المتوسطة، وتضم أحد عشر حرفاً يجمعها قوله: «رعت بكس قحج»، وهي: الراء، والعين، والفاء، والتاء، والباء، والكاف، والذال، والسين، والقاف، والحاء، والجيم، وإذا قُعت الراء تبعاً لما ذكر سابقاً تعادل (١٥٥)، والعين (١٣٨)، و الفاء (١٢٢)، والتاء (١١٨)، والباء (١١٢)، والكاف (٩٢)، والذال (٩٢)، والسين (٨٦)، والقاف (٦٣)، والحاء (٥٧)، الجيم (٤٦). إما المرتبة القليلة فتضم عشرة أحرف، يجمع أوائلها بيت من الشعر، وهو:

خوف ضنى شبت صبا ذوايا

*

ظلم غزا طاب زورا ثاويا

(١)

والطاء تبعاً لما ذكر تعادل (٨)، والغين (١٢)، والطاء (١٥)، والراء (١٦)، والطاء (١٧)، والحاء (٢٠)، والصاد (٢٣)، والشين (٢٨)، والذاي (٣٥)، وربما يلتحق بالأحرف الكثيرة في بعض الاستعمالات التاء والكاف للخطاب، والسين تدخل على الفعل للأستقبال مثل كلمة (سأنجح)، وقد تؤثر في حساباتها. والمقصود من هذا التقسيم أن يتخذ المحلل من درجة تكرار الشكل قرينة أولية على الحرف الذي يمثله، فإذا وجد شكلاً كثير الدوران رجح أن يكون من حروف المرتبة الكثيرة، وإذا كان متوسط التكرار ألحقه بالمرتبة المتوسطة، وهكذا في الحروف القليلة، ولا يجعل ابن عدلان هذا الترجيح قطعياً، بل ينبه إلى إمكان تغير المراتب بحسب الاستعمال والنص. ويؤكد في ختام هذه القاعدة ضرورة عدّ الأشكال ومقارنتها بنظائرها، ثم محاولة حملها على المعنى، والاستمرار في تعديل الفرضيات حتى يستقيم الكلام، ومن هنا يظهر بوضوح اعتماد ابن عدلان على تكرار الحروف بوصفه قرينة أولية، لا بوصفه دليلاً نهائياً.

(١)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى، ج ١، ص ٢٧٥.

الثالثة: أثر طول النص في صحة الاستقراء

ينبه ابن عدلان في هذه القاعدة إلى أهمية طول النص في بناء الأحكام المتعلقة بتكرار الحروف، إذ يرى أن الكلام الذي يراد حله ينبغي أن يكون في حدود تسعين حرفاً أو قريباً منها، حتى تكون الحروف قد دارت في النص دورات تسمح بظهور نسب تكرارها، أما النص القصير قد يعطي نتائج مضللة بسبب محدودية العينة النصية، مع إمكان حل النصوص الأقصر في بعض الحالات. ويورد لذلك أمثلة شعرية مترجمة، مبيّناً أن قلة عدد الحروف قد تجعل التوافق بين تكرار الأشكال والحروف ناشئاً عن المصادفة، ومن ذلك حله ما ترجمه أبو الحسن علي بن عبد الجبار التونسي المنسي (١):

أبى دهرُنا إسعافنا في نفوسنا * وأسعفنا ممّن يحبُّ ويكرّم

وكذلك حله ما ترجمه ابن البطريق الواسطي الحلي (٢) من شعره في الحال:

ابن عدلان نحوّه * فائقٌ و التراجُم

فهو بحر عمّ البلاد * كقولي كشاجم

(٣)

فهذان البيتان وإن كانا من الخفيف، فهما كببت من الطويل لأنهما سبعة وأربعون حرفاً، وقد يبلغ من الطويل تسعة خمسين حرفاً، مثاله من قول ابن عدلان:

أرى الشَّخصَ ذا الجدوى مدَى الدهر طالباً * زكا الرزق في اليسرى عزيزاً
وفي العسرى

وبالجملة إذا أردت حل مترجم ترسم كل نوع من أشكاله في حقل، ثم تعد ذلك وغيره من الأنواع، وتحسب ذلك بالعدد، ثم ترتب ذلك على ثلاث مراتب، فتجعل كثر الكثير الألف ومابعدا اللام، ثم

الميم ، وتجعل كثير المتوسط الرائ ثم العين إلى آخره ، وتجعل أقل القليل الظاء ثم الغين إلى آخر الكلام (٤).
وتقدم هذه القاعدة أساساً مهماً لفهم المنهج الإحصائي عند ابن عدلان، فهو يدرك أن قيمة التكرار في فك التعمية تتوقف على حجم العينة النصية، وأن قصر النص يضعف إمكان الاعتماد على الإحصاء وحده.

(١)-المنسي: هو أبو الحسن علي بن عبد الحبار التونسي ، ولد في تونس سنة (٤٢٨ هـ / ١٠٧٣ م)، أديب ولغوي وشاعر ، توفي في الإسكندرية سنة (٥١٩ هـ / ١١٢٥ م)؛ الحموي:معجم الأنباء ، ج ١٤ ، ص ٨- ١٠ ؛ كحالة: معجم المؤلفين ، ج ٧ ، ص ١١٧ .
(٢)-ابن البطريق الحلبي: هو يحيى بن الحسن ، ولد في الحلة بالعراق سنة (٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م)، وهو باحث وفقه ترك عدة مؤلفات ،سكن بغداد مدة ، ونزل بواسط ، وكان في حلب سنة (٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م)،توفي سنة (٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م) ؛ الزركلي : الأعلام ، ج ٨ ، ص ١٤١ .

- (٣)- كشاجم: وهو لقب في الأصل للشاعر محمود بن الحسين ، ولفظ كشاجم مأخوذ فيما يقال من علوم كان يتقنها ، الكاف للكتابة ، والشين للشعر ، والألف للإثشاء ، والجيم للجدل ، والميم المنطق ، ولعل الشاعر قصد أن يمدح ابن عدلان بدلالات حروف الكلمة ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٧ ، ١٦٧-١٦٨ .
- (٤)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى ، ج١ ، ص ٢٧٨ .

ثانياً: تحديد الفواصل وحدود الكلمات وبنية النص

القاعدة الرابعة: (الفاصل بين الكلمتين)

يمثل التعرف إلى حدود الكلمات مرحلة أساسية في منهج ابن عدلان ، لأن النص المرمز قد يحافظ على الفواصل بين الكلمات ، وقد يدمجها في صورة واحدة. (١)

فإذا كان النص مفصولاً بفاصل واحد متكرر ، فإن اكتشاف هذا الفاصل يكون أيسر ، لأنه يتكرر في المواضع التي يحتمل أن تكون حدوداً بين الكلمات ، ويقترح ابن عدلان الاستفادة من كثرة الشكل وتكراره ، ثم فحص أوائل الكلمات وأواخرها ، ومقارنة المواضع المتشابهة ، حتى يتأكد المحلل من حقيقة الفاصل .

أما إذا كان الفاصل مختلفاً من موضع إلى آخر ، فإن المسألة تصبح أكثر تعقيداً ، ويقول ابن عدلان في رسالته : ((ورأيت بعض من يتعاطى هذا الفن يزعم أنه لا يتأتى كشفه وإيضاحه ، وكنت أخرجت منه عدة مكتوبات على جهة الأمتحان ، وكتابين ظفر بهما بعض الملوك)) ، وهو الملك المعظم عيسى بن أيوب (٢) ، وكذلك لولده الملك الناصر (٣) كتاباً ظفر به من بعض الأطراف وهنا يلجأ إلى اختبار الحروف المحتملة ومقارنة مواقعها ، ولا سيما الألف واللام في أوائل الكلمات .

ويشير إلى أن الحرف قد يكون خفياً إلى جانب ما يُظن أنه فاصل ، ولذلك ينبغي ألا يكتفي المحلل بالمظهر الأول للنص ، بل يراجع ما قبل الفاصل وما بعده .

القاعدة السادسة: (الكلمات التي تدخل عليها الألف واللام وأطوالها)

خصص ابن عدلان هذه القاعدة لمعرفة الكلمات التي تدخل عليها الألف واللام، وأطوال تلك الكلمات، ويقرر أن الكلمات التي تدخل عليها «أل» تتفاوت في عدد حروفها، فمنها القصير: كالحب، والرب، والبر، والذر، والمر، ومنها ما يبلغ سبعة أو ثمانية، مثل: (مصطلحين، مصطلحات، مستخرجين، مستخرجات)، ويعدده ما لا يدخله ألف ولام مثل: (أَنْلَزَمَكُوها) (٤)، وهي عشرة، ماعدا هذا أربعة عشرة حرفاً مثل (أفبستصلاحكموها) وأما أحد عشر فيكثر مثل: (أَتَسَنَخِرْجُونَهَا، وَتَسْتَنْبِطُونَهَا). (٥)

وتكمن أهمية معرفة هذا الأمر في تحديد الفواصل، إذ قد يجد المحلل عدداً كبيراً من الأشكال المتتابعة، فيتردد في حملها على كلمة واحدة، لكن معرفة الأطوال الممكنة للكلمات التي تدخل عليها «أل» تساعد على اتخاذ القرار الصحيح.

(١)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى، ج ١، ص ٢٧٨.

(٢)-المعظم عيسى: وهو الملك المعظم عيسى، ولد في القاهرة سنة (٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م)، ونشأ في دمشق، عرف بعلمه وشجاعته، وكان له ما بين بلاد حمص والعريش بالإضافة إلى بلاد الساحل وفلسطين، حارب الفرنج، وخلف عدة تصانيف، توفي سنة (٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م)؛ الزركلي: الأعلام، ج ٥، ص ١٠٧-١٠٨.

- (٣)-الملك الناصر: وهو داود بن الملك المعظم عيسى صاحب الكرك، ولد في دمشق سنة (٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م)، كان شاعراً وأديباً، جمعت رسائله في كتاب (الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية)، توفي مطعوناً في دمشق سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)؛ الزركلي: الاعلام، ج ٢، ص ٣٣٤.
- (٤)-القرآن الكريم: سورة هود، الآية ٢٨.
- (٥)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى، ج ١، ص ٢٨٤.

القاعدة السابعة: ما قبل الألف واللام وما يتصل بها

يبحث فيها الحرف السابق على الألف واللام، إذ يقرر أن ما قبل «أل» يكون في الغالب واحداً من أربعة أحرف: الواو، والباء، والكاف، والفاء، مرتبة بحسب كثرة ورودها، وقد تجتمع أحياناً بعض هذه الحروف، مثل «وبالله»، و«وكالدر»، و«فوالله»، و«فبالله» (١). وتمثل هذه القاعدة مثلاً واضحاً على توظيف المعرفة النحوية والتركيبية في حل التعمية، فإذا أمكن تحديد رمز يحتمل أن يمثل اللام، فإن معرفة مواضع «أل» يمكن أن تساعد في تثبيت رموز أخرى.

القاعدة التاسعة: التمييز بين التراكيب المتشابهة

تؤكد هذه القاعدة ضرورة الحذر من الالتباس بين حروف العطف والألف واللام، فقد يظن المحلل أن ما يظهر في بداية الكلمة هو ألف ولام، بينما يكون في الحقيقة حرف عطف متبوعاً بكلمة أخرى.

ويستشهد ابن عدلان بتراكيب شعرية وقرآنية تتكرر فيها الواو قبل الألف واللام، كقول أبو الطيب المتنبي:

الخيْلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُنِي * والطَّغْنُ والضربُ والقطراسُ والقلمُ (٢)

وكقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا وَ الْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَاها﴾ (٣)، وكذلك أيضاً (بالليل) و (كالليل) فتظن الباء والألف والكاف والألف (الألف واللام)، فخذ حذرك .
وتكشف هذه القاعدة عن أهمية السياق التركيبي، فالرمز الواحد لا يمكن تفسيره دائماً بمعزل عن الرمز الذي يجاوره.

القاعدة الثانية عشرة: حل النص المتصل (الدمج)

يولي ابن عدلان عناية خاصة للنص الذي تغيب فيه الفواصل بين الكلمات، ويبدأ الحل هنا بضبط مراتب الحروف، ثم مقارنة عدد الأشكال بعدد الحروف، فإذا كان النص طويلاً ولم تزد الأشكال على عدد الحروف، رجّح أن النص خالٍ من الفواصل الظاهرة، ثم يبدأ بالنظر في اجتماع الحروف وإمكان تواليها في العربية.

ومن أهم الأدوات التي يستخدمها في ذلك معرفة عدد المرات التي يمكن أن يتكرر فيها الحرف الواحد متوالياً، فالألف مثلاً لا تجتمع عادة أكثر من مرتين مثل: (جاء آخر) و (شاء آدم)، أما الباء فتجتمع أربعة مثل: (أحب بكر)، وكذلك التاء نحو (سكتت) ، والدال أربعة نحو: (عدَدُ دَدِيه) . (٤)

(١)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٢)-المتنبى(أحمد بن الحسين ت ٣٥٤ هـ/٩٦٥م):ديوان المتنبى ،دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م ، ص ٣٣٢ .

(٣)-القرآن الكريم:سورة الشمس ، الآية ١-٢-٣ .

(٤)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

ويستشهد ابن عدلان بأمثلة شعرية ولغوية لإثبات إمكان اجتماع بعض الحروف، ومنها ما تكلف فيه التاج البلطي (١) عن مثال لتوالي تسع دالات في الأبيات الشعرية التالية :

لا تُرَدُّ دُ دُ * دُ دُعِي مِنْ قُنْدُ

فدد: اسم رجل منادى محذوف أداة النداء ، ودد: اسم موضع قال طرفه (٢):

كَأَنَّ خُدُوجَ الْمَالِكِيَةِ غُدُوءَ * خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ

وقد صنع البلطي بيتين ، جمع في الواحد منهما تسع كافات متواليات وهما :

لَا تَفْخَرَنَّ بِعَزْلٍ مَعَ كُفْرِكَ

عَمَّ حُزْتُ مَلِكْ مُكَّ كَكَّكَ (۳)

وتتطلب هذه المرحلة مقارنة التتابعات المتشابهة في مواضع متعددة، ثم محاولة تقسيمها إلى كلمات، بحيث يكون الحرف الأخير من كلمة هو نفسه الحرف الأول من الكلمة التالية، إذا اقتضى تركيب العربية ذلك.

-
- (١)-البليطي: أبو الفتح عثمان بن منصور البليطي أو البليطي ،ولد سنة(٥٢٤ هـ/١١٣٠م) ، كان عالماً إماماً نحويّاً لغويّاً اخبارياً مؤرخاً شاعراً عروضياً ، توفي سنة(٥٩٩ هـ / ١٢٠٢م)؛ الحموي: معجم الأدباء ،ج١٢ ، ص١٤١؛ السيوطي: بغية الوعاة ، ج٢ ، ص١٣٥-١٣٦ ؛ الزركلي: الأعلام ، ج٤ ، ص٢١٢؛ كحالة:معجم المؤلفين ، ج٦ ، ص١٦٧ .
- (٢)-طرفه: طرفه بن العبد بن سفيان، من بني ضبيعة بن بكر بن وائل، وُلِدَ في البحرين سنة (٨٦ ق. م. / ٥٤٣ م)، هو شاعر عربي جاهلي من شعراء الطبقة الأولى، اشتهر بمعلقاته الخالدة التي تعد من أروع قصائد الشعر العربي وأكثرها إنسانية وفصاحة، يقتله المكعبير بعد أن هجا الملك عمر بن هند سنة (٦٠ ق. م. / ٥٦٩ م)؛ طرفه(طرفه بن العبد ت ٦٠ ق. م. / ٥٦٩ م)؛ ديوان طرفه بن العبد ،تح:دريّة الخطيب ولطفي الصقال ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٠م ، ص٢٣- ٢٤؛ الزركلي: الأعلام ، ج٣ ، ص٢٢٥ .
- (٣)-مراياتي: علم التعمية، ج١ ، ص٢٩٣-٢٩٤

ثالثاً: الكلمات الشائعة والوظائف النحوية

القاعدة الثانية: الكلمات الثنائية والثلاثية كثيرة الاستعمال

ينتقل ابن عدلان إلى الاستفادة من طبيعة اللغة العربية ذاتها، ولا سيما الكلمات القصيرة كثيرة الاستعمال، وفي هذه القاعدة يلفت النظر إلى مجموعة من الكلمات الثنائية الشائعة، وقسمها إلى عدة أقسام، الأكثر استخداماً مثل: «لا»، و«من»، و«من»، و«إن»، و«أن»، و«ما»، و«في»، و«لم»، و«عن»، و«قد»، و«هم»، و«إذ»، و«ثم»، و«هي»، و«أو»، و«لو»، و«يا»، الأقل استخداماً مثل: «ذا»، و«كي»، و«ذو»، و«رب»، و«مذ»، و«هن»، و«وا»، أما مثل: «لي»، «لك»، و«له» (١) فمعرفتها تؤخذ من مراتب الضمان، أما «وي» فأنها قليلة الاستعمال جداً، ولم ترد في القرآن عند سيبويه (٢) إلا في موضع واحد في سورة القصص: ﴿وَيَ كَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣) كما يشير إلى الكلمات الثلاثية الشائعة، مثل: «إلى»، و«على»، و«أنا»، و«لها»، و«بها»، و«أما»، و«لما»، و«إذا»، و«كما»، و«متى»، و«عما». (٤)

ولا تقتصر أهمية هذه الكلمات عنده على شيوعها، بل إن قصر بنيتها وثبات صورها يجعلانها من أقوى القرائن التي يمكن استثمارها عند تحديد الحروف المجهولة، فإذا أمكن التعرف إلى حرف أو أكثر من كلمة قصيرة، أمكن استخدامه في فك كلمات أخرى تتكرر فيها الأشكال نفسها.

ويعتمد ابن عدلان هنا على مبدأ التعميم، فما يثبت في موضع يمكن نقله إلى مواضع أخرى، ثم اختبار مدى انسجامه مع بقية النص، وبذلك تصبح الكلمات الشائعة أشبه ب (مفاتيح) أولية تساعد على فتح بقية النص المرمز.

- (١)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى ، ج ١ ، ص ٢٧٥- ٢٧٦ .
- (٢)-سيبويه: هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، ولُقِّب بـ "سيبويه" وهو لقب فارسي يعني "رائحة التفاح" ، ولد في شيراز سنة (١٤٨ هـ/ ٧٦٥م) وتعلم فيها، ثم هاجر إلى البصرة التي كانت مركزاً علمياً نشطاً، وهناك درس العربية على يد كبار العلماء مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي ويونس بن حبيب، ويعد أول من بسط علم النحو، وساد أهل زمانه، وأشهر مؤلفاته هو "كتاب سيبويه" الذي جمع فيه قواعد اللغة العربية، توفي في شيراز ببلاد فارس سنة (١٨٠ هـ/ ٧٩٦م)؛ ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩م): الشعر والشعراء تح: ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٥٦م، ص ٥٠٣-٥٤٤؛ الأنباري (محمد بن القاسم ت ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠م) : الزاهر في معاني كلمات الناس ، تح : حاتم صالح الضامن ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق ، ١٩٦٧م، ج ١ ، ص ١٠٥ ؛ بدوي (أحمد أحمد): سيبويه حياته وكتابه، مؤسسة هنداوي، مصر، ٢٠١٧م، ص ٢٠-١٣١٩ .
- (٣)-القرآن الكريم :سورة القصص ، الآية ٨٢ ،
- (٤)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

القاعدة الخامسة: في استخراج الألف واللام

وتتصل بذلك القاعدة الخامسة المتعلقة بإخراج الألف واللام، إذ يعدّهما ابن عدلان من أكبر الأعوان على حل التعمية، فإذا ظهر في بداية كلمة محتملة شكلان، وكان أحدهما كثير التردد، أمكن حملهما على الألف واللام، ثم البحث عن نظائرها في بقية النص للتثبت من صحة هذا الافتراض.

غير أن ابن عدلان يحذر من بعض المواضع التي قد تؤدي إلى الالتباس، كال كلمات التي تتضمن «من» و«عن» أو «في» و«على» في النص المدمج، إذ قد يشتبه الأمر على المحلل فيظن بعض

الحروف ألفاً ولاماً، ولهذا لا بد من اختبار الفرضية في مواضع متعددة، وربطها ببنية الكلمة والمعنى. (١)

وتزداد أهمية هذه المسألة في حالة تشابه شكل الألف واللام أو اتحادهما، حيث يقترح ابن عدلان الاستعانة بمواضع أخرى تظهر فيها الألف واللام منفردتين، ثم نقل النتيجة إلى الموضع المشكل.

القاعدة العاشرة: في أواخر الكلمات

يلتفت ابن عدلان إلى الحروف التي تكثر في أواخر الكلمات، ويجعل مواقعها قرائن على تحديد قيم الرموز، يذكر أن أواخر الكلمات إذا كانت تنتهي بألف ممدودة (ألفات)، فإن الحرف الذي يسبق هذه الألف يكثر أن يكون هاءً مثل: (أكرمها، أهنتها)، ومثله، قال تعالى: (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها) (٢)، وقد يكون نوناً وهو أقل من الهاء، مثل: (أكرمنا، علمنا)، ومثله: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) (٣)

وهذه القاعدة تكشف عن اهتمامه بالموقع لا بالحرف المجرد فقط، فالرمز قد يؤدي معنى مختلفاً في ذهن المحلل بحسب موقعه من الكلمة.

القاعدة التاسعة عشر: الياء في أواخر الأفعال المضارعة

تظهر أهمية البنية الصرفية بصورة خاصة في القاعدة التاسعة عشرة، حيث يشير ابن عدلان إلى كثرة الياءات في أواخر الأفعال المضارعة، مثل «يكرمني» و«يعلمني» (٤)، ولذلك قد يلتبس الأمر على المحلل إذا لم يكن قد حسم الألف، فيظنها ياء، أو إذا ظهرت الياء في نهاية كلمة فغلب على ظنه أن ما قبلها نون.

وهذا المثال يكشف عن انتقال ابن عدلان من مجرد التعرف إلى الحرف إلى التعرف إلى الوظيفة الصرفية للحرف، فالحرف لا يفسر منعزلاً، وإنما يفهم في ضوء موقعه من الكلمة وصيغتها.

- (١)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى ، ج١ ، ص ٢٨٢ .
- (٢)-القرآن الكريم:سورة الشمس، الآية ١-٢ .
- (٣)-القرآن الكريم :سورة البقرة ، الآية ٢٦٢ .
- (٤)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى ، ج١ ، ص ٢٨٧ .

رابعاً: التكرار والتجاور والتضعيف

القاعدة الحادية عشرة: في الكلمات المركبة من مرتبة واحدة

تقوم مجموعة من قواعد ابن عدلان على استثمار ظاهرة تكرار الحرف أو تماثله داخل الكلمة أو بين الكلمات ،ويتضح ذلك في القاعدة الحادية عشرة، التي تبحث في الكلمات المركبة من حرف مكرر أو من حروف متجاورة متماثلة.

وقد قسم ابن عدلان الحروف المركبة في النص إلى عدة مجموعات:

- ١-المركب من الألفات (الهمزات المتتالية) مثل: (أأسجد)(١)، وقد تكتب ثلاث ألفات. مركبات الهمزة مع مرتبتين (حرفين) بعدها ،مثال:آآت: همزة الاستفهام، آت (اسم فاعل)، إذًا / إذ: همزة الاستفهام ، ظرف الزمان (إذ أو إذا) .
- أأز: همزة الاستفهام ، أر (بمعنى دفع) ،أس: همزة الاستفهام ، أس (بمعنى أصل).
- أآض: همزة الاستفهام ، آض (بمعنى رجع)، أأط: همزة الاستفهام ، أط (صوت البعير من ثقل الحمل)، أفأ: همزة الاستفهام، أف (كلمة تضجر).
- آأل، أم، أن، آه، أو، أي: كلها همزات استفهام دخلت على كلمات تبدأ بالهمزة (آل، أم، إن، آه، أو، أي) .

- ٢- المركب من الباءات (الباء المكررة): يذكر أن تكرار الباء في أول الكلمة (بدون تاء التانيث) غير مستعمل إلا في حكايات الأصوات أو الأسماء الأعجمية مثل: ببة (حكاية صوت أو اسم رجل)، وبيت، ببيت، ببخ، بيد، بير، وبببض (الببض: الجلد الناعم)، وأشار إلى أن هذا التركيب ذكرت في كتاب "المعلم" الذي ألف للخليفة العباسي المستنصر بالله (٢)
- ٣- المركب من اللامات المتتالية: مثل: (للا، للم، للي، للو، للن)، يوضح الكاتب أن هذه التراكيب تصادفك فقط في "كلام النحويين" (عند ضرب الأمثلة النحوية)، ما عدا لفظ الجلالة (الله) فإنه كثير الاستعمال.
- ٤- مركبات الحروف الأخرى (الميم، الواو، الياء، النون): ممل، ممن، ممل: (من + ما) تصبح مما، و(من + من) تصبح ممن، وممل.
- ووا، وول، ووي: اجتماع واوين في أول الكلمة (مثل واو العطف تدخل على كلمة تبدأ بالواو).
- بين: اسم وإد (٣) (الياء مكررة). نل، ننم، ننه: النون المكررة في أفعال مضارعة مجزومة أصلها (ننال، ننام، نناهي) فحذفت الألف لالتقاء الساكنين بسبب الجزم، فالتقت النونات في النطق والخط.
- ثم ينتقل ابن عدلان لشرح الكلمات التي يتكرر فيها حرفان، ولكن يفصل بينهما حرف أو حرفان أو ثلاثة: ما كان بين المثلين حرف أو حرفان من الحروف القليلة أو المتوسطة: مثل: (إذا، آخا، أبأ، نحن، لكن، معم).
- ومنها أسماء الأعلام أو الأماكن مثل اسم قلعة بالموصل: (شوش) (٤)، وكذلك الحروف المتوسطة بين مثلين كثيرين مثل: (دود، سوس).
- أو بين قليلين مثل اسم: (مسمم)، وكذلك الكلمات المكررة المقطعين مثل: (عوغاء) (٥)
- ويبين أن معرفة إمكان اجتماع الحروف وتماثلها في العربية تساعد على التعرف إلى النص المرمز بسرعة أكبر، فإذا ظهر مثلاً شكلان متماثلان في بداية كلمة، أمكن مقارنتهما بالأنماط المعروفة في العربية، وتحديد الحرف الذي يحتمل أن يمثلها.

- (١)- القرآن الكريم: سورة الإسراء ، الآية ٦١ .
- (٢)- المستنصر: المستنصر بالله أحمد بن محمد الظاهر أبو القاسم العباسي ، وهو أول الخلفاء العباسيين في مصر ، دخلها بعد ثلاث سنين من أنقراض الخلافة العباسية في العراق ، بايعه الملك الظاهر ببيرس بالخلافة ، ولقبه المستنصر بالله ، ويعدونه الثامن والثلاثين من خلفاء بني العباس ، توفي سنة (٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م) ؛ الزركلي: الأعلام ، ج ١ ، ص ٢١٩-٢٢٠ .
- (٣)- بين: اسم واد بين جبلي ضاحك وضويحك أسفل الفرش ؛ الحموي: معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٥٤ .
- (٤)- شوش: قلعة عظيمة عالية جداً قرب عقر الحميدية ، من أعمال الموصل ؛ الحموي: معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ .
- (٥)- غوغاء: أصل الغوغاء الجراد حين يخف للطيران ، ثم استعير للسفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر ، وأصبح وصفاً للسفلة والرعاع من الناس الذين يكثر لغتهم وصياحهم وضجيجهم ؛ ابن منظور: لسان العرب ، ج ١١ ، ص ١٠١ .

القاعدة الثالثة عشرة: اجتماع رمزين متماثلين في أول الكلمة

يقرر ابن عدلان أنه إذا ظهرت في أوائل الكلمات حروف متجانسة، وكانت الكلمة تزيد على حرفين، فإن الحرفين المتماثلين لا يخرجان عن مجموعة معينة من الحروف التي يمكن أن تتكرر في هذا الموضع، مثل: (الألف والباء والتاء والفاء والكاف واللام والميم والنون والياء والواو) يجوز أن يقع غير ذلك، ثم يرد هذه الحروف إلى مراتبها من حيث الكثرة والتوسط والقلّة، فتعمل بحسب ذلك.

القاعدة الرابعة عشرة: تكرار الحروف في أواخر الكلمات

تتناول هذه القاعدة الحروف المتماثلة في أواخر الكلمات، ولا سيما اللامين والميمين والنونين والهاعين والواوين، فضلاً عن الباعين والتاعين والثاعين والفاعين والراءين، و يقل جداً حدوث ذلك في حرفي العين والغين، وتصبح هذه الملاحظة ذات قيمة خاصة إذا تساوى عدد الأشكال مع عدد الحروف، إذ تمنح المحلل قرينة إضافية على طبيعة الحرف المكرر .

القاعدة الخامسة عشرة: التراكيب المكررة والمتشابهة

ويخصص ابن عدلان هذه القاعدة للألفاظ المطابقة أو المتكررة في بنيتها، مثل «لولو»، و«سبب»، و«قرقر»، و«جرجر»، و«هدهد»، و«قبقب»، مع التنبيه إلى إمكان اشتباه هذه الصور بحروف العطف في الكتابة المدمجة مثل: «تنح» فتشتبه التاء بحرف العطف، وتكشف هذه القاعدة عن أهمية المعرفة المعجمية والصرفية في عملية فك التعمية، لأن معرفة إمكان وجود كلمة ذات بنية مكررة قد تحسم احتمالاً كان يبدو في البداية غامضاً.

خامساً: صيغ الابتداء بالتمجيدات والخواتم

القاعدة الثامنة: الاستفتاحات والخواتم

وفي هذه القاعدة من رسالة ابن عدلان أشار إلى نوع خاص من العبارات التي تتكرر في الرسائل والكتب، وهي التمجيدات أو الاستفتاحات، ومن أمثلتها: «بسم الله الرحمن الرحيم»، و«باسمك اللهم»، و«ما شاء الله كان»، و«العزة لله»، و«بالله اعتضد»، و«الحمد لوليه»، و«الحمد لولي الحمد»، و«المنة لله»، و«الله ولي العصمة»، و«الله ولي الإعانة»، و«ثقتي بالله»، و«الله ولا سواه»، و«الله عدلي»، وغيرها .

وتتبع أهمية هذه الصيغ من كونها تأتي غالباً في بداية الكتاب أو الرسالة، فإذا تعرف المحلل إلى طبيعة النص وعلم أنه يتضمن تمجيداً أو افتتاحاً مألوفاً، أمكنه تثبيت مجموعة من الحروف دفعة واحدة، ثم استخدامها في فك بقية النص.

ويمتد الأمر إلى خواتم الرسائل، مثل: «وصلى الله على سيدنا محمد وآله»، وعبارات «إن شاء الله»، و«والسلام». (١)

وبذلك يستفيد ابن عدلان من العبارات الجاهزة المتكررة ثقافياً ولغوياً بوصفها قرائن قوية في عملية الحل، وبذلك يتحول السياق الخارجي إلى أداة من أدوات استخراج المعنى .

(١)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى، ج١، ص ٢٨٥ - ٢٩٣ .

سادساً: الشعر والعروض والقافية

القاعدة السادسة عشرة: الوزن الشعري

إذا كان النص المرمز شعراً، فإن ابن عدلان يوسع دائرة القرائن لتشمل الخصائص العروضية والقافية (١)، ففي القاعدة السادسة عشرة يقرر أن العروض يمكن أن يعين على معرفة الكلمات إذا أمكن تخيل جزء من النص على وزن بحر معين، ثم اختيار كلمة تلائم ذلك الوزن والمعنى معاً. كما يستفيد من عدد الأشكال في البيت لتقريب تحديد البحر العروضي، فعدد الحروف والأشكال يمكن أن يستبعد بعض البحور ويرجح بعضها الآخر. وقسم ابن عدلان النص اعتماداً على عدد الحروف أو الأجزاء في البيت الشعري لتخمين البحر إلى عدة أقسام :

الأبيات الطويلة أكثر من 40 إلى 50 حرفاً/شكلاً تقريباً ، تحتمل البحور الطويلة والتامة مثل: الطويل، المديد، البسيط، الكامل، الوافر، تام الرجز، تام الرمل، تام السريع، المنسرح، الخفيف، وتام المتقارب.

الأبيات المتوسطة أكثر من 30 قليلا أو أقل ، تحتل البحور المجزوءة والمربعة مثل: مجزوء
المديد والبسيط، مربع الكامل والوافر، الهزج، الرجز، الرمل، السريع، الخفيف، المضارع، المجتث،
والمتقارب.

الأبيات القصيرة أكثر من 10 حروف ،كون من البحور القصيرة جداً (المنهوكة أو المشطورة) مثل
قصار المنسرح والرجز.

ويؤكد ابن عدلان على قاعدة عروضية معروفة وهي أنه لم يُسمع عن العرب بيت شعري يتكون
من أقل من جزعين (تفعيلتين)،ومن أمثلة ذلك من بحر المنسرح:

هل بالديار أنسُ

لما النقوا بسولافُ

وهما من المنسرح.

ياليتني فيها جدُّعُ

أخبُ فيها وأضعُ (٢)

-
- (١)-القافية:القافية في الشعر هي الكلمة الأخيرة في البيت الشعري أو المقطع الصوتي المتكرر في نهاية الأبيات، وتُعرف تقنيًا بأنها آخر ساكن في البيت وما قبله من متحرك، وتُعد عنصراً موسيقياً أساسياً في الشعر العربية؛ التبريزي (يحيى بن علي ت ٥٠٢ هـ/١١٠٩م): الوافي في العروض والقوافي، فتح:فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦م، ص ١٩٩؛ مصطفى(محمود):أهدى سبيل إلى علمي الخليل، ص ٩٠.
- (٢)-مراياتي:علم التعمية واستخراج المعنى، ج ١، ص ٢٩٥.

وهما من الرجز ، والشطر المكون من تفعيلة واحدة، وإنما جاء للمحدثين (أي شعراء العصر العباسي وما بعده) ولم يكن من أوزان العرب الأوائل، والهدف منه كان إظهار البراعة والقدرة على النظم والوقوف على قافية بعد كل تفعيلة مفردة، ومثاله قول سلم الخاسر (١):

يحيى القَمَر

غيثٌ بَكَرَ

يُحيي البَشَرَ

غير أن ابن عدلان لا يمنح العروض قيمة مطلقة، بل يصرح بأن فائدته في الحل محدودة، وهو ما يمهد للقاعدة التالية.

القاعدة السابعة عشرة: القافية

في القاعدة السابعة عشرة يقرر أن الاستضاءة بالقافية أنفع من العروض، لأن القافية تفرض قيوداً على الحرف الأخير وما يتصل به من وصل وخروج وريدف، فإذا عرف المحلل حرف الوصل، أمكنه تضيق دائرة الاحتمال في الحرف السابق له، وكذلك إذا عرف حرف الريدف أمكنه تحديد الحرف الواقع قبل الروي في كثير من المواضع. (٢)

ومن ثم تصبح القافية أداة لتحديد مجموعة من الحروف المجهولة، ثم اختبارها في بقية النص.

- (١)-سلم الخاسر: سلّم بن عمرو بن حمّاد، ولد بالبصرة وفيها نشأ، سُمّي الخاسر لأنه باع مصحفاً كان ورثه من أبيه فاشترى بثمنه طنبوراً أو ديواناً للشعر، وقد فعل ذلك مجوناً، مع أنه لم يكن رديء الدين، هو من فحول الشعراء في زمن الدولة العباسية، من تلامذة بشار بن برد وعنه أخذ، توفي سنة (١٨٦ هـ/٨٠٢ م)؛ ابن المعتز (عبد الله بن المعتز ت ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م): طبقات الشعراء، تح: عبد الستار أحمد فرج، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٩ م، ص ٩٩. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ١٩٤؛ الأصفهاني: الأغاني، جامع الكتب الإسلامية، مج ١٩، ص ٢٧٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٥٠.
- (٢)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى، ج ١، ص ٢٩٨.

سابعاً: بناء الحل من المعلوم إلى المظنون

القاعدة الثامنة عشرة: توطئة الحل

تمثل القاعدة الثامنة عشرة الجانب الإجرائي الأوضح في منهج ابن عدلان، إذ يصف فيها عملية الحل بوصفها انتقالاً تدريجياً من المعرفة إلى الاحتمال، ثم إلى الاختبار.

فإذا كانت الكلمة ثنائية، فإن المحلل يبدأ بإخراج أحد حرفيها اعتماداً على إحدى القرائن السابقة، ثم يعرض الحرف الباقي على حروف الهجاء، ويثبت الاحتمال الذي ينتج عنه معنى صحيح. ومثال ذلك إذا كانت الكلمة (ما) وعرفت حرف الألف، وبقيت الميم مجهولة، تقوم بتركيب الألف مع كل الحروف فتقول: (با، تا، ثا، جا...)، واللفظ الذي يمنحك كلمة ذات معنى حقيقي في اللغة تثبته، وتستبعد الألفاظ المهملة التي لا معنى لها. (١)

أما إذا كانت الكلمة ثلاثية أو رباعية، فيبدأ بما يمكن حله منها، ثم يستفيد من الحروف التي سبق حلها في كلمات أخرى، فإذا وافق حرف مجهول حرفاً معلوماً في موضع آخر، انتقل أثر المعرفة من الموضع المعلوم إلى الموضع المجهول، وهكذا تتدرج عملية الحل من:
المعلوم إلى المظنون، ومن المظنون إلى المشكوك فيه، ومن المشكوك فيه إلى المتوهم، ثم اختبار الجميع بالمعنى وبالنظائر.

وهذه الصياغة تكشف عن أن ابن عدلان لا يتعامل مع الحل بوصفه حدثاً منفرداً، بل بوصفه عملية تراكمية تتفاعل فيها الفرضيات والقرائن، وكلما ثبت حرف أو كلمة اتسعت دائرة المعرفة، وأمكن استخدامها في حل وحدات أخرى.

القاعدة العشرون: الجميع بين القرائن

تكتمل الصورة في القاعدة العشرين، إذ تمثل نوعاً من الخلاصة المنهجية التي يعالج فيها الحالات التي تتطابق فيها أعداد الأشكال مع أعداد الحروف، فقد تزيد الأشكال على الحروف أو تنقص عنها، وفي هذه الحالة يشير إلى الاستعانة بالجدول التي شرحها في كتابه (المعلم)، وإلى المقارنة بين الحروف التي تقترن ببعضها والتي لا تقترن، ويؤكد كذلك ضرورة مراعاة حال لمترجم موضوع الكلام والواقعة التي ورد فيها النص، مما يدل على أن الإحصاء عنده قرينة من قرائن الحل وليس نظاماً آلياً مستقلاً، وبذلك يتحول استخراج المعنى من عملية حديثة إلى عملية راكم قرائن.

(١)-مراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى، ج١، ص ٢٩٨-٣٠١.

ثامناً: المراجعة والتصحيح والتدرب

تؤكد القواعد السابقة مجتمعة أن الحل عند ابن عدلان عملية دائرية وليست خطية ، فالمحلل لا ينتقل من حرف إلى آخر حتى نهاية النص، وإنما يثبت بعض الحروف، ثم يعود إليها في كلمات أخرى، ويقارن النتائج، ويعدل ما سبق افتراضه إذا ظهرت قرينة أقوى. ومن هنا تتضح أهمية ما يسميه في القاعدة الثامنة عشرة بالاستعانة بالمعلوم في حل المجهول، وما يظهر في القاعدة التاسعة عشرة من تصحيح الفرضيات بناء على الموقع الصرفي للحرف، وما يؤكد في القاعدة العشرين من ضرورة مراجعة الحل وفق المعنى والواقعة.

خاتمة الكتاب(في ما يحصل به الدربة والتمرن)

خصصها لما يحصل به التمرن والدربة، فتدل على أن إتقان هذا الفن لا يتحقق بالمعرفة النظرية وحدها، وإنما يحتاج إلى الممارسة المستمرة والتدريب على نصوص مترجمة مختلفة، ويورد ابن عدلان مثلاً ترجمه له بعض المغاربة بدار السلام سنة (٦٢٦ /):

وَدُنَّا جَمِيعاً ثُمَّ تُحْيَا وَلَا

*

تَمْنَتْ مِنْ حَبِيٍّ بِثِيْنَةٍ أَنَّنَا

أُحْيَا

بَسَاعَةٍ ضَمِّيْهَا رَضِيْتُ مَنْ

*

فَتَرْجِعُ دُنْيَاهَا عَلَيْهَا وَإِنَّنِّي

الدنيا

و كانت فيها الأشكال المرمزة على هيئة أسماء طيور، وكانت صورة ترجمته:
حمام يمام هدهد صقر حمام باز، يمام هدهد باز بغاث (١) عصفور صقر باز عقق (٢)

-
- (١)-بغاث: البُغاث طائر صغير، بلون الغبار، بطيء الطيران، ذو عنق طويل، ويُعتبر من الطيور الضعيفة التي لا تصطاد وتتغذى على الجيف، وقد يُستخدم الاسم للدلالة على ضعف الطيور بشكل عام؛ ابن منظور (محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ/١٣١١م): لسان العرب، تح: عامر أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م، ج٢، ص ١١٨؛ مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر، ٢٠٢١م، ج١، ص ٧٦.
- (٢)-عقق: طائر من عائلة الغرابيات يتميز بذيله الطويل وريشه الأسود والأبيض، وهو معروف بذكائه وقدرته على التكيف في بيئات مختلفة، يعتمد نظامه الغذائي على الحشرات والفواكه والحبوب؛ معلوف (أمين): معجم الحيوان، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٥م، ط٣، ص ١٨٨.

سوذنيق (١) صقر هدهد عقاب باز مكاء (٢) هدهد هدهد مكاء باز غراب صقر أجدل (٣) هدهد
مكاء باز عصفور يمام صقر فاخنة (٤) مكاء باز سوذنيق يمام باز حمام بغاث صقر مكاء باز
غراب شقراق (٥) مكاء باز مكاء بغاث صقر مكاء .
هزار (٦) حمام شحرور عصفور فاخنة باز أجدل هدهد صقر مكاء عقاب مكاء باز فاخنة شقراق
صقر
عقاب مكاء باز غراب مكاء هدهد هدهد صقر باز عقق كركي مكاء فاخنة عقاب باز خفاش يمام
صقر عقاب مكاء باز شحرور خفاش صقر حمام باز يمام هدهد باز مكاء شقراق أجدل هدهد صقر
مكاء .
ثم أحصى تكرار كل شكل، فوجد أن «حمام» تكرر خمس مرات، و«يمام» و«هدهد» إحدى عشرة
مرة، و«صقر» ثلاث عشرة مرة، و«باز» ست عشرة مرة، وغير ذلك من الأشكال.

ويمثل هذا المثال تطبيقاً عملياً واضحاً للأساس الإحصائي الذي يقوم عليه منهج ابن عدلان؛ إذ يبدأ المحلل بإحصاء الأشكال المختلفة وتكرارها، ثم يرتبها بحسب الكثرة والقلة، ويستخدم ذلك مدخلاً إلى استعادة الحروف المقابلة لها.

(١)-سودنيق:سودنيق (بالكسر) اسم عربي يُطلق على الصقر، وذلك بحسب ما ورد في بعض المصادر الأدبية والتراثية، ويُمكن أن يكون الاسم مشتقاً من "سوذ" أو "سوذ" والتي قد تعني "التحليق" أو "الانقضاض"، يشبه في حجمه بعض الطيور الجارحة، وهو من الطيور التي تُستخدم في الصيد؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ١٥٩؛ ابن الكثاني (محمد بن الحسن ت ٤٢٠ هـ / ١٠٣٠م): التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تح: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٧٦.

(٢)-مكاء: المعروف أيضاً بالبقرة الهددية وأم سالم والورقاء، هو طائر صحراوي متكيف جيداً مع بيئته، ويُعرف بصوته المميز وطيرانه الاستعراضي، تتغذى على الحشرات والنباتات، وتتكاثر بوضع بيضها على الأرض؛ اليوسفي (محمد بن سليمان): طيور السعودية، د.د.، السعودية، ط ١، ٢٠٢٠م، ص ٧٨؛ الصالح(رند): الموسوعة الشاملة للطيور (طائر المكاء)، د.د.، مصر، ٢٠٢٣ م، ص ٤-٥.

(٣)-أجل: الأجل هو اسم يُطلق على الصقور، والواحد منها "أجلد". وهو طائر جارح يتميز بالقوة والسرعة، ويرتبط في التراث العربي بالصقور والبيزاة، كما أن كلمة "أجلد" قد تشير أحياناً إلى نوع آخر من الطيور وهو الحجل أو "القيج"؛ مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج ١، ص ١٦.

(٤)-الشقراق: طائر متوسط الحجم، يتبع فصيلة الشقراقية من رتبة الشقراقيات، يشتهر بألوانه الزاهية التي تشمل الأزرق والتركوازي، ويتميز بمنقاره الحاد، وهو طائر مهاجر يتغذى على الحشرات والفقاريات الصغيرة، ويعتبر جزءاً مهماً من التوازن البيئي نظراً لدوره في مكافحة الآفات؛ جينغنز(مايكل): مختصر أطلس الطيور المتكاثرة في شبه الجزيرة العربية، تر: زينا مغريل، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض، ٢٠١٣م، ص ١١٣؛ مجمع اللغة العربية: المعجم الكبير، القاهرة، ج ١٤، ص ٣٨١؛ المجلس الأعلى للغة العربية: قاموس مصطلحات الفلاحة، الجزائر، ٢٠١٨م، ص ٢٢٨؛ معلوف: معجم الحيوان، ص ٧٣.

(٥)-فاخته: الفاختة، أو حمامة النخيل، هي حمامة صغيرة تنتشر في أفريقيا والشرق الأوسط وشبه القارة الهندية. تتميز بصغر حجمها وذيلها الأطول من أجنحتها، ولونها يميل إلى البني المحمر أو الوردي على الرأس والصدر، وغالباً ما توجد في المناطق السكنية وتتغذى على الحبوب؛ مجلة الحياة البرية: اليمامة الضاحكة (فاخته النخيل)، المملكة العربية السعودية، ص ١-٢.

(٦)-هزار: طائر مغرد صغير من فصيلة صائغيات الذباب، يشتهر بصوته العذب، ويعرف أيضاً بأسماء مثل العندليب، ويتميز بظهره البني وذيله المائل للحمرة وبنطه الفاتح، يعيش في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا ويأكل الحشرات والبذور والفواكه؛ بيرونز(كريستوفر): موسوعة الطيور المصورة (دليل نهائي إلى طيور العالم)، تر: عدنان يازجي، مكتبة لبنان، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م، ص ٢٦٤؛ المعلوف: معجم الحيوان، ص ١٧٠.

-خاتمة :

بعد إتمام هذا البحث نتوصل إلى النتائج التالية :

- أن علم التعمية من العلوم التي يعود للعرب الفضل في أبتكارها منذ عصور ما قبل التاريخ وعد الطريقة المثلى لحماية رسائلهم سيما في وقت الحروب للحيلولة دون كشف أعدائهم لها إذا ما وقعت بأيديهم .
- حاجة الأيوبيين المستمرة لعلم التعمية كانت أحد أهم الأسباب في الاهتمام به كعلم والعمل على تطويره الدائم ليواكب التطور الحاصل في جميع مجالات المعرفة الأخرى .
- كان نشاط الحركة العلمية بشكل عام، وأزدهار علم التعمية بشكل خاص في العصر الأيوبي، نتيجة تضافر دوافع عدة أبرزها سياسية وعسكرية واقتصادية.
- علي بن عدلان الموصلي أحد أهم المؤرخين المسلمين الذين اهتموا بعلم التعمية، وتميز بمنهجه العلمي العملي بعيداً عن الطابع النظري.
- أن منهج علي بن عدلان يقوم على منظومة متدرجة من القرائن، يمكن اختصارها في خمس عمليات أساسية مترابطة وهي: الإحصاء، التفكيك، القياس اللغوي، الاستدلال السياقي، الاختبار والمراجعة.

-تبرز قيمة منهج ابن عدلان في تاريخ علم التعمية إذ يجمع بين الملاحظة الإحصائية، والتحليل اللغوي، والاستدلال التركيبي، والحدس المنضبط بالسياق، وهي عناصر تجعل قواعده أقرب إلى منهج تحليلي متكامل في فك الرموز منه إلى مجموعة من الصفات المنفصلة.

-يتضح لنا أن علي بن عدلان لم يكن شغوفاً بعلم التعمية فحسب بل كان ملماً وعالمًا به ،فمعرفته الجيدة في الرياضيات ، ونبوغه بعلوم اللغة مكناه من صقل معرفته بهذا العلم والعمل به ، وقد كانت إسهاماته في مجال علم التعمية ذات قيمة كبيرة في التراث العربي الإسلامي .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

(١)- القرآن الكريم.

(٢)- الأنباري (محمد بن القاسم ت ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م): الزاهر في معاني كلمات الناس ، تح : حاتم صالح الضامن ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق ، ١٩٦٧ م .

(٣)- الأندلسي (علي بن موسى بن سعيد ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م): المغرب في حُلَى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف ، مصر، ١٩٦٤ م .

(٤)- الأصفهاني (محمد بن العماد ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م): الفتح القسي بالفتح القدسي، دار النوادر والدرر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٠٤ م .

(٥)- ابن الأثير (علي بن محمد ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م): الكامل في التاريخ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٦ م .

٦-أبن إياس(محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ/١٥٢٣م):بدائع الزهور في وقائع الدهور ،تح: محمد مصطفى، المعهد الألماني، بيروت ، ١٩٧٥ م .

٧-أبي البقاء العكبري (عبد الله بن الحسين ت ٦١٦ هـ/١٢١٩م):التبيان في إعراب القرآن:تح:علي محمد البجاوي ،مطبعة عيسى البابي الحلبي ،القاهرة ، ١٩٧٦ م .

البغدادي (إسماعيل بن محمد ت ١٣٣٩ هـ/١٩٢٠م):

٨-إيضاح المكنون في الذل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٤٧ م .

٩-هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين ، وكالة المعارف ، إسطنبول ١٩٥١ م .

١٠-الدمشقي (عبد القادر محمد النعيمي ٩٢٧ هـ / ١٥٢١م): الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م .

أبن دقماق (إبراهيم بن محمد بن ت ٨٠٩ هـ/١٤٠٧ م):

١١-الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٨٩٣ م .

(١٢)-نزرة الأنام في تاريخ الإسلام، تح: سمير طياره، المكتبة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م

(١٣)-أبن واصل (عبد الله محمد سالم ت ٦٩٧ م/١٢٩٨م):مفرج الكروب في أخبار بني ايوب،
تح:حسنين محمد ربيع، دار الكتب، القاهرة ، ط١، ١٩٧٧م .

(١٤)-أبن حجر (أحمد بن علي ت ٨٥٢ م / ١٤٤٩م): الإصابة في تمييز الصحابة، تح:عادل
أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٥م .

(١٥)-الحلي (عبد الواحد بن علي ت ٣٥١ م/٩٦٢م): مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،
مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م .

الحموي(ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦ م/١٢٢٩م): إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ،تح:إحسان
عباس ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣م .

الخبلي(أحمد بن ابراهيم ت ٨٧٦ م/١٦٠٥م):

(١٦)-شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، تح: ناظم رشيد، وزارة الثقافة والإعلام ،بغداد ، ط١ ،
١٩٧٨م .

- ١٧)-شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تح : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٩م .
- ١٨)-الطولوني(حسن بن حسين ت ٩٢٣ م/ ١٥٠٣م) :النزومة السننية في اخبار الخلفاء والملوك المصرية، تح:محمد كمال الدين عز الدين علي،عالم الكتب ،بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م .
- ١٩)-طرفة(طرفة بن العبد ت ٦٠ ق.م/٥٦٩ م) :ديوان طرفة بن العبد ،تح:درية الخطيب ولطفي الصقال ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٠م .
- ٢٠)-اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب ت ٢٨٤ م/٨٩٧م) :تاريخ اليعقوبي ، دار صادر، بيروت، ط١ ، ١٩٦٠م .
- ٢١)-الكندي(محمد بن يوسف ت ٣٥٠م/٩٦١م):الولاة والقضاة ، مطبعة بريل ، لندن ، ط١ ، ١٩١٧م .
- ٢٢)-ابن الكتاني (محمد بن الحسن ت ٤٢٠ م/ ١٠٣٠م): التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، تح:إحسان عباس ،دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨١م .

(٢٣)-الكتبي(محمد بن شاکر ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م):فوات الوفيات والذل عليه ، تح:إحسان علي ،دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ م .

(٢٤)-أبن كثير(إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م): البداية والنهاية ،تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مركز البحوث والدراسات العربية و الإسلامية ، مصر ، ط ١ ، ١٩٩٨ م .

(٢٥)-المناوي(زين الدين محمد ت ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢م): فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٣٧ م .

(٢٦)-المنذري (زكي الدين أبو محمد):التكملة لوفيات النقلة ،تح:بشار عواد ،مؤسسة الرسالة ، بيروت ، د.ت .

(27)-المقريزي(أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م):المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٨ م .

(28)-المتنبي(أحمد بن الحسين ت ٣٥٤ هـ / ٩٦٥م):ديوان المتنبي ،دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣ م .

(29)- ابن المعتز (عبد الله بن المعتز ت ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م): طبقات الشعراء، تح: عبد الستار أحمد فرج، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٩ م.

(30)- النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م): نماية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤ م.

أبن الساعي (علي بن أنجب ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م):

(31)- جامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تح: مصطفى جواد، المطبعة السريانية، بغداد، ١٩٣٤ م.

(32)- الدر الثمين في أسماء المصنفين، تح: أحمد شوقي بنين، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط ١، ٢٠٠٩ م.

(33)- السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط ١، ١٩٦٧ م.

(34)- السيرافي (الحسن بن عبد الله ت ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م): أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي و أولاده، مصر، ١٩٥٥ م.

(35) - السمعاني (عبد الكريم بن محمد ت 562 هـ / 1166 م): الانساب ،تح: ديفيد مارغوليوس ، مطبعة ليدن ، هولندا ، 1912 م.

(36) - السخاوي (محمد بن عبد الرحمن ت 902 هـ / 1497 م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1936 .

(37) -أبن العديم(عمر بن أحمد ن أبي جرادة ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م):بغية الطلب في تاريخ حلب ،تح: سهيل زكار، دار الفكر للنشر، بيروت، ١٩٦١ م .

(38) -أبن عدلان(علي بن عدلان ت ٦٦٦ هـ/١٢٦٨م): الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥ م .

(39) -العيني(بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١م)؛ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ،تح:محمود رزق محمود ، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠١٠ م .

(40) -العمري(أحمد بن يحيى ت ٧٤٩ هـ/١٣٤٩م): مسالك الأبصار في مسالك الأمصار، تح: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، مصر ، ١٩٢٤ م .

- (41)- العسقلاني (احمد بن علي ت 852 هـ / 1449 م): أنباء الغمر بأنباء العمر، تح: حسن حبشي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، مصر ، 1969 م.
- (42)-العريني(السيد الباز ت ١٣٨٩ هـ/١٩٦٨م): الشرق الأدنى في العصور الوسطى(الأيوبيين)، دار النهضة العربية ،القاهرة ،١٩٦٧ م .
- (43)-ابن الفوطي (كمال الدين عبد الرزاق ت ٧٢٣ هـ/١٣٢٣م): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تح: مصطفى جواد، المكتبة العربية ،بغداد ،التاريخ الميلادي،١٩٩٧ م .
- (44)- الصولي (محمد بن يحيى ت 335 هـ / 946م): أدب الكتاب، تح: محمد بهجة الأثري ، المطبعة السلفية، القاهرة ، 1922 م.
- (45)- الصفدي (صلاح الدين خليل بن ايبك ت 764 هـ/1363 م): نكت الهميان في نكت العميان ، دار المدينة ، مصر ، 1911 م.
- (46)-القلقشندي(أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م):صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٦ م .
- (47)-ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ/٨٨٩م): الشعر والشعراء تح: ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٥٦ م .

- (48)- ابن شداد (يوسف بن رافع ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م): النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية،
تح: جمال الدين الشيال، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٦٢ م.
- (49)- التبريزي (يحيى بن علي ت ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م): الوافي في العروض والقوافي، تح: فخر الدين
قباوة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦ م.
- (50)- ابن تغري بردي (يوسف بن تغري ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،
دار الكتب، مصر، ١٩٥٦ م.
- (51)- ابن خلكان (أحمد بن محمد ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م): وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، تح:
إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨ م.
- (52)- الذهبي (محمد بن أحمد ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٨ م): سير أعلام النبلاء، مؤسسة
الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٤٥ م.
- (53)- ابن ظهيرة (محمد بن محمد ت ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣ م): الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة
تح: مصطفى السقا وكمال المهندس، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٦٩ م.

ثانياً: المراجع

١-المراجع العربية

- (١)-الأميني(عبد الحسين أحمد):سيرتنا وسنتنا ،دار الكتاب الإسلامي ،سوريا ،١٩٢٠م .
- (٢)-الأتروشي(شوكت عارف): الحركة الفكرية خلال العصر الأيوبي ،دار الدجلة ، العراق ،ط١ ،٢٠٠٧ م .
- (٣)-الأسعد (عبد الكريم):الوسيط في تاريخ النحو العربي ،دار الشروق للنشر ، الرياض ، ط١ ، د.ت .
- (٤)-بدوي (أحمد أحمد): سبويه حياته وكتابه، مؤسسة هنداوي، مصر، ٢٠١٧م، ص ٢٠-١٣-١٩ .
- (٥)-دهمان(محمد): معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ،دار الفكر ،دمشق ، ط١ ، ١٩٩٠م .
- (6)-الدوري (عبد العزيز): أوراق في التاريخ والحضارة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٩م .

- (7)- الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦ .
- (8)- حاطوم (نور الدين): تاريخ العصر الوسيط، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٧ م .
- (9)- الحجي (حياة ناصر): صور من الحضارة العربية في سلطنة المماليك، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٩٢ م .
- (10)- الحمامي (علاء حسين): التشفير والترميز ضد القرصنة والتطفل، الدار العربية، بغداد، 1999 م .
- (11)- الحموي (محمد ياسين): دمشق في العصر الأيوبي، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٦ م .
- (12)- حسين (حمدي عبد المنعم محمد): دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠ م .

حسن (حسن إبراهيم):

- (13) - تاريخ عمرو بن العاص، مطبعة السعادة، مصر، ط ١، ١٩٢٢ م .
- (١٤) - تاريخ الدولة الفاطمية، مطبعة النهضة المصرية، مصر، ط ٣، ١٩٦٤ م .
- (15) - الطنطاوي (أحمد): نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥ م .
- (16) - اليوسفي (محمد بن سليمان): تطور السعودية، د.د، السعودية، ط ١، ٢٠٢٠ م .
- (17) - كرد علي (محمد): خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ٢٠١٥ م .
- (18) - مراياتي (محمد) وآخرون: علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٧ م .
- (19) - ناصر (عامر نجيب): الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشروق، عمان، ٢٠٠٣ م .

(20)-النباهين(سالم): نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٠م،

(21)-النهار(عمار): الأوقاف الإسلامية وأثرها على النهضة العلمية في عصر المماليك، جامعة دمشق ، سوريا ، ٢٠٠٢ م .

(22)- نورجان (عبد الرحمن): الكندي وفلسفته، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٦٢ م .

(23)-السيد (أيمن فؤاد): الدولة الفاطمية في مصر، مطبعة الدار اللبنانية، بيروت ط ١، ١٩٩٢ م .

(24)-العبادي(أحمد مختار):في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، جامعة الإسكندرية ،مصر ،د.ت .

(25)-عبد الحكيم(منصور): هولاكو المارد القادم من الشرق جزار التاريخ عدو الحضارة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ٢٠٠٨ م.

(26)-عبد الله (دولت): معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي، مطبعة حسان، القاهرة، ١٩٨٠ م .

- (27)-عبد المنعم (صبحي): تاريخ مصر السياسي والحضاري من الفتح الإسلامي حتى العهد الأيوبي، دار العربي ، القاهرة ،د.ت .
- (28)-عزام(عبد الرحمن):صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني ،دار بلو مزيري ،قطر ،ط٢ ،٢٠١٣م .
- (29)- عطية (احمد عبد الحليم): دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الثقافة ، القاهرة، 1991م .
- (30)-العطاري (جلال يوسف): حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، دار الفكر، عمان، ٢٠١١م.
- (31)-عيسى(أحمد): تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار القرآن العربي، بيروت، ١٩٨١م .
- (32)-علوان (عبد الله ناصر): صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين، دار السلام، مصر ، ١٩٧٥م .

(33)-العسلي(كامل جميل):معاهد العلم في بيت المقدس ،جمعية عمال المطابع
التعاونية،عمان،١٩٨١ م .

(34)- العريقي (رائد عبد العزيز) وآخرون Encryption and Decryption Digital
color Image signal ، كلية علوم وهندسة الحاسوب ، جامعة الجديدة ، اليمن 2008-
2009 ، ص23

(35)-فكري(أحمد):مساجد القاهرة ومدارسها ،دار المعرفة ، مصر، ط٢، ٢٠٠٨ م .

(36)-فروخ(عمر): تاريخ الأدب العربي،دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤م

(37)- فرغلي (أبو الحمد محمود): الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، الدار
المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩١ م .

(38)-الصاوي (الصاوي محمد): هولوكو الأمير السفاح، مكتبة النافذة، مصر، ط١، ٢٠١٢ م .

(39)-الشهابي (قتيبة): معجم دمشق التاريخي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٩م،

40)-أبو خليل (شوقي): المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، دار الفكر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٥ م .

٢-المراجع المترجمة

١)-برونز(كريستوفر):موسوعة الطيور المصورة(دليلٌ نهائيٌّ إلى طيور العالم)، تر: عدنان يازجي ،مكتبة لبنان ،بيروت ،ط ١ ، ١٩٩٧ م .

٢)-جب(ماملتون.آ.ر): صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الإسلامي، تر: يوسف أبيض، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت، ط ١، ١٩٧٣ م .

٣)-جينغز(مايكل):مختصر أطلس الطيور المتكاثرة في شبه الجزيرة العربية، تر:زينا مغريل ،مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ،الرياض، ٢٠١٣ م .

4) - هونكه (زيغريد) شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون، دار الجيل، بيروت ، ط 8 ، 1993 م .

5)-ويستفال(ريتشارد إس): جيامباتيستا ديلا بورتا ،قسم تاريخ وفلسفة العلوم ، جامعة إنديانا ، ١٩٩٥ م .

- (6)-كاباروني (بيترو): نبذات عن السير الذاتية والمراجع للأطباء والعلماء الطبيعيين الإيطاليين المشهورين من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر، روما ، ١٩٢٥-١٩٢٨ م .
- (7)- ماكزري (نيل دي) : القاهرة الأيوبية ، تر: عثمان مصطفى عثمان ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1 ، 2007 م.

ثالثاً: الموسوعات والمعاجم

- (١) - الجواهري(إسماعيل بن حماد ت 393 هـ/ 1003 م): معجم تاج اللغة وصحاح العربية، اعتناء : محمد تامر ، دار الحديث ، القاهرة ، 2009 م.
- (2)-حلاق (حسان)و صباغ (عباس):المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول الفارسية والتركية ،دار العلم للملايين ،بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩ م .
- (3)-الحموي(ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٠ /١٢٢٩م) :معجم البلدان ، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢م .
- (4)-كاشف (سيدة إسماعيل) وآخرون: موسوعة تاريخ مصر عبر العصور تاريخ مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للمكتبة العامة، الإسكندرية، ١٩٩٣م
- (5)-كحالة(عمر رضا): معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٣ م .
- (6)-المجلس الأعلى للغة العربية:قاموس مصطلحات الفلاحة ،الجزائر ، ٢٠١٨م

- (7)-مجمع اللغة العربية:المعجم الوسيط ،مجمع اللغة العربية ،مصر ، ٢٠٢١ م .
- (8)-مجمع اللغة العربية :المعجم الكبير ،مجمع اللغة العربية، القاهرة
- (9)-ابن منظور (محمد بن مكرم ت 711 هـ / 1311 م): معجم لسان العرب، تح: عامر احمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2005 م .
- (10)-معلوف(أمين):معجم الحيوان ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ط٣ ، ص١٨٨ .
- (11)-المرزباني (محمد بن عمران ت 348 هـ / 993 م): معجم الشعراء، تح: عبد الستار أحمد فراج ، د.د، مصر ، 1960 م .
- (12)-علم (يحيى مير): معجم إعلام التعمية واستخراج المعنى في التراث العربي والإسلامي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت، ٢٠١٨م .
- (13)- قلعة جي (محمد رواس) : معجم لغة الفقهاء، دار النفائس ، بيروت ، ط1 ، 1970 م .
الرازي (محمد بن ابي بكر ت 660 هـ / 1261 م): مختار الصحاح ، دار الكتاب العربي، دمشق ، 1981 م .

رابعاً: الرحلات:

- (1) - ابن جبير (محمد بن أحمد ت 614 هـ / 1270 م): رحلة ابن جبير ، دار الكتب اللبنانية، بيروت، 1970 م.

خامساً: الرسائل الجامعية

- (١) - بن يحيى (يمينية): التفكير الرياضي عن الخليل بن أحمد الفراهيدي التعمية أنموذجاً، رسالة ماجستير جامعة الدكتور يحيى فارس، الجزائر، ٢٠٢١-٢٠٢٢ م، ص ٨٣-٨٤-١٢٧.
- (٢) - رجه (ألاء حماد): كاتب السر في الدولة المملوكية ٦٤٨ هـ - ٩٢٣ م / ١٢٥٠-١٥١٧ م، رسالة ماجستير جامعة بغداد، العراق، ٢٠٠٥ م.

خامساً: المجالات

- (١) - الجزري (محمد مكي الحسني): علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق ، 2015 م.
- (2) - مجلة الحياة البرية: الإمامة الضاحكة (فاخته النخيل)، المملكة العربية السعودية ، ٢٠١٩ م .
- (٣) - الصالح (رند): الموسوعة الشاملة للطيور (طائر المكاء)، د.د. مصر، ٢٠٢٣ م، ص ٤-٥.